

مجلة شهرية . العدد الثامن والعشرون . السنة الثالثة . مايو ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 28 - May 2001

محمد حسنين هيكل
"الفرانكوفونية".. وأخواتها

مدرسة الطب المصرية من أبى زعبل إلى قصر العينى
محمد فؤاد الذاكرى

جدلية الصحراء والمدينة
سلامة أحمد سلامة

الفن التلقائى
حسام الدين زكريا

عادل حسين ومأزق المثقف الوطنى
رءوف عباس

شحاتة هارون مصرى عادى يهودى غير عادى
أمينة شفيق

التحديث فى تركيا بين العثمانيين وأتاتورك



السنة الثالثة
العدد الثامن والعشرون
مايو ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أمينة شفيق .. صحفية.
- حسام الدين زكريا ... باحث فى العلوم اللغوية والموسيقية
- حسين عبدالله.. أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية.
- ذوقان قرقوط.. كاتب سورى.
- رءوف عباس.. أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة.
- زياد بهاء الدين .. محام.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- شوقى ضيف .. رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- كريستوفر دى بيليج.. مراسل صحيفة «الاندبندنت» البريطانية فى إيران.
- مايكل هيرش .. صحفى أمريكى.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد فؤاد الذاكرى.. باحث فى التراث العلمى من سوريا.
- ناصيف حتي.. أستاذ العلاقات الدولية ومدير مكتب الجامعة العربية بباريس.

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى - سعد الدين شحاتة**

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.

إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.

Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــة..



اللغـة .. والسـيـاسـة

أحدَ عشرَ يوماً كاملة أمضاها الأمريكيون والصينيون فى البحث عن لفظ يعنى الاعتذار، يُرضِى الصينيين الذين سقطت لهم طائرةٌ.. ومات لهم طيار، ويمنعُ فى الوقت نفسه إراقة ماء وجه الإدارة الأمريكية الجديدة.. التى هى، وبحكم كونها «سيدة العالم»، تستنكف الاعتراف بالذنب.

«دبلوماسية اللغة» ـ وليست «البنج بونج» هذه المرة ـ نجحت فى الحفاظ على العملاقين على الطريق الذى دلفا إليه قبل سنوات طويلة. يومها لم تكن الطَّرقاتُ الافتتاحيةُ، كما اعتاد الناسُ «لكفٍ على باب» وإنما كانت لكرةٍ صغيرةٍ بيضاء على طاولة خضراء. وكان «مهندس اللعبة» الدبلوماسى الأشهر هنرى كيسنجر.

كرة كيسنجر الناعمة «المستديرة»، والتى بحثوا عنها ـ أو لعلهم احتاجوها ـ هذه المرة أيضا، لم يجدها الدبلوماسيون تحت الطاولة، ولا فى اضابير الاتفاقات الدولية ذات الصلة بالطيران او بالقواعد الحاكمة للمجالين الجوى والبحرى للدول ذات السيادة، وإنما بين دفتى القاموس، أو بالأحرى القواميس والمعاجم اللغوية التى كان فى اختلافها «دلالياً وثقافياً» الحل السحرى لأزمة لا يريد لها الطرفان قطعاً أن تستمر.

نطقها الأمريكيون إذن دون أن يعتبروها اعتذاراً. وسمعها الصينيون «ترجمةً» إقرارا بالذنب يعتبرونه فى ثقافتهم مهانةً ومذلة. ونجح اللغويون فى أن يصنعوا من معاجمهم «الاثنية» جسرا بين ضفتين لولا ابتعادهما ـ ويا للغرابة ـ ما كان بناؤه ممكنا ولا متاحا.



وإذا كانت العلاقةُ بين اللغةِ (اصوات ونبرات ودلالات وإيحاءات وتراثا) وبين ثقافة أمة ما (متمايزة عن غيرها بالضرورة)، لا يحتاج إلى تذكرة.. فضلاً عن برهان، فإن «الحل اللغوى» لواقعة الطائرة الصينية أخيرا، ليس الشاهد الأوحد لما بين اللغة والسياسة من علاقة. فقبل ثلاثة عقود نجح اليهود ـ ومازالوا ـ فى أن يُدخِلوا العربَ فى «تيه» الصحراء الشاسعة التى تفصل بين لفظة «أراضٍ» محتلة فى النص الإنجليزى، و«الأراضى» المحتلة فى النص الفرنسى للقرار ٢٤٢ الشهير. وقبل أسابيع فقط نحت الأمريكيون بذكاء تعبير «العقوبات الذكية» مستبِقين به قمة عربية ترقبها الجميع. ولم يكن صعباً أن يلاحظ ـ من يريد أن يلاحظ ـ كيف تسلل التعبير «الذكى» إلى لغة اجتماعات إقليمية سبقت القمة وجمعت أعضاء بها ذوى علاقة.



وتتعدد ـ بطبائع الأشياء ـ جوانب العلاقة بين اللغة والسياسة. وأحدها ـ فقط أحدها ـ تعبر عنه وجهة نظر رَجُل مثل «جاك لانج» (وزير الثقافة الفرنسى) والذى يحذر من خطورة «الاستيلاء على اللغة»، والذى يمكن أن يكون «مُقَدِّمةً لإلغاء هَوِيَّة أصحابها» .

ليس بعيداً عن ذلك ما قرأناه قبل أسابيع عن قرار إمارة راس الخيمة بدولة الإمارات العربية المتحدة، والذى فرض عقوبة موجعة، على الشركات التى تستخدم لافتات وإعلانات تحتوى على أخطاء فى قواعد اللغة العربية الإملائية والنحوية. القرار الذى أكد واضعوه أنه يستهدف الحفاظ على الهوية فى عالم متسارع متغير، بدأ تنفيذه بكل حزم وحسم. وكان المأمول ـ تعميماً لفائدةٍ مرجوة ـ أن تحذو دول «عربية» كبرى حذو الإمارة الصغيرة التى ترقد فى هدوء الصحراء على ضفاف خليج طالما ماجت مياهُهُ بعواصفِ السياسةِ وتياراتِ الثقافةِ متباينةً ومتفاعلة، ومازال وصفه «لغويا»: بين فارسيٍ وعربيٍ، انعكاسا لكل ذلك.

العلاقة المتداخلة بين اللغة والسياسة، لم تغب أبداً ـ ولا كان يحق لها ذلك ـ عن ذهن الساسة والمفكرين. فكمال الدين اتاتورك، بكل ماله وبكل ما عليه، كانت خطوته «السياسية» الأولى.. لغوية.وفى «وجهات نظر» هذا العدد للشأن التركى مكانه فى مقال يحاول الإجابة عن سؤال قديم جديد: «من بدأ التحديث فى تركيا؟»

واللغة ـ بالمعنى الحرفى للكلمة ـ لها مكانها أيضاً فى مقال لشوقى ضيف رئيس مجمع اللغة العربية؛ المعقل الرسمى للغة التى هى عريقةٌ بتاريخها، ثريةٌ بتراثها، قويةٌ بدينها، كبيرةٌ بعددالناطقين بها.. والتى هى بعد ذلك ـ أو ربما قبله ـ فى مأزقٍ لا تجد لنفسها فيه نصيراً إزاء غوائل عصور مُستَجَدَّة، كما يقول محمد حسنين هيكل فى مقال يستغرب فيه انخراط العرب ـ أو بعضهم ـ من موقع المشارك ـ لا المراقب ـ وإن قيل ذلك، فى منظمة «الفرانكوفونية» والتى تنعقد «قمتها» فى أكتوبر القادم، لأول مرة فى عاصمة «عَرَبية» هى بيروت، لدَواعٍ «لا تَبدو ـ لى ولغيرى ـ مَفهومة ، وللمقاصد لا يَظهَر فيها للأمَّة نَفعٌ». والكلام لهيكلَ الذى يرى فى ذلك استمراراً «للشرود عن نظام السِرب العَرَبى» ، تتبَعثر اجنحته كلٌ منها مُستَسلمة لريح !

ويقارن هيكل بين منظمات وتشكيلات عدة، دخلها العالَم العَرَبى منذ بداية يَقظته الحديثة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، مشيراً إلى «مشروعات سَقَطَت لأنها كانت حَملاً خارج الرَحِم، فى حين نَجَحَ مشروع الجامعة العَرَبية لأنه حَملٌ طبيعىٌ». ذلك أن الأمَّةَ كانت مُتَّسِقة مع نفسها ، مُتَّسقة مع عالمها ، مُعَبِّرة عن «هَوِيَّة» يَقوم عليها «وَلاء» ، ومُعَبِّرة عن «مَصالح» تَتَرتَّب عليها «التزامات» ـ ذلك أنه لا أحد فى هذا العالَم يَنتَمى خارج هَوِيَّته ، أو يَنتَظِم خارج مصلحته.



الملاحظ انه فى مَطلع السبعينات راحَ التنظيم العَرَبى الجامع ـ المعَبِّر عن الانتماء وعن المصلحة ـ يَتَراخى وتَنفلت منه أجزاء تَتَطايَر وتَشرُد. فظهرت «أجنحة» تارة، و«اقتطاعات» تارةً أخرى، فى شكل تنظيمات و«كيانات»، منها ماكان استجابة لرؤى «لحظية» ضيقة. ومنها ماركن إلى هوية رآها ـ أو اجتزأها ـ إقليمية. ومنها ما أعيا أصحابَه البحثُ عن هويةٍ، فلجأ إلى «اللغة» وقواميسها مرة أخرى.. ليبحث عن مسمياتٍ تصلحُ للمناسبة.

قد يكون ذلك كله مفهوماً، وإن انحصر فى مصالح ضيقةٍ، يحسب أصحابها أن الانزواء فى ركن ـ أو التحليقَ بعيدا عن السرب ـ يظل مأموناً وبعيدا عن الصراعات وطلقات القناصة.. إلا أنه فجأة ، ومن المجهول ، وبالانسياق ـ فى الغالب ـ أو بالانزلاق ، ظَهَرَ على ساحة المنطقة مَشروع طارئ باسم «الفرانكوفونية» ـ وهو مَشروع مُنظمة غربية لا تُعَبِّر بالنسبة للأمَّة عن هَوِيَّة ، ولا أمن ، ولا مصلحة ، ولا أمَل . ومع ذلك فهناك الآن دَعوة إلى قِمَّة لها ـ تَجتَمع فى عاصمة من أجمل عَواصم الأمَّة العَرَبية ، وأكثرها صلابة، وأغناها إسهاماً فى الثقافة العَرَبية .وهنا يَبرُز سؤال هيكل: ما هى «الفرانكوفونية» بالضبط ؟ ـ تلك التى التحقنا بها ونحن لا نَعرف مَتى؟ ـ وتلك التى نشارك فى اجتماعاتها ولا نعرف لماذا؟!

ليس بعيداً أبدا عن مقال هيكل، يأتى مقال المفكر السورى ذوقان قرقوط والذى يقول فيه أن هوية مصر «العربية» ليست هوية مستعارة، على ماحاول بعضهم استعارة هوية أفريقية لها أو متوسطية أو أوروبية إلخ «هربا من المسؤولية»، بل هى هوية عربية أصيلة... ومصر بمثل ماهى مسؤولة عن عروبتها، فهى مسؤولة ـ شاء البعض أم أبوا ـ عن العرب بل وعن العروبية فى حد ذاتها.

وجهات نظر

"الفرانكوفونية"



محمد حسنين هيكل



مهمة مطروحة على عمرو موسى

وَسَط اهتمام مُتَزايد بجامعة الدُوَل العَرَبية - مع ابتداء مَسئولية «عمرو موسى» عن أمانتها العامة - خَطَرَ ببالى أنها مُناسَبة لطَرح مَسألة تستحق الاهتمام - هى ذلك الشُرود العَرَبى إقليمياً ودَولياً حتى أصبح جَمعُ الأمَّة قريبَ شَبَه بسِرب طيور ضاعَ نظامه وتَبَعثَرَت أجنحته كلٌ منها مع ريح !

وخَطَرَ - أيضاً - ببالى أنه ربما استطاع المناخ الجديد فى جامعة الدُوَل العَرَبية أن يُساعد على عَودة الشارد والمبَعثر، أو يُوقف الطيران الأعمى بحيث يَعود إلى السِرب شىء من نظامه - واحترامه !

أعرض ذلك عارفاً حدود الجامعة العَرَبية، وحدود أمينها العام :

- بمعنى أننى أعرف أن الجامعة العَرَبية منظمة إقليمية تُشارك فيها دُوَلٌ ذات سيادة، وَجَدَت «المشتَرَك» بينها كبيرا، ورأت أنها فى إطار هذا «المشتَرَك» قادرة على إظهار نوع من «الإرادة الجماعية» لصالح شعوبها، مُدركة حَجم وعُمق ما بينهم من روابط لها طبيعة خاصة ومُتَمَيِّزة.

- وبمعنى أننى أعرف أن الأمين العام للجامعة العَرَبية لا يَصنع سياسة - وإنما هو فى حدود «المشتَرَك» بين الدُوَل الأعضاء فى الجامعة مَسئولٌ عن التحضير والتجهيز ومتابعة التنفيذ بما يَخدم المتَّفق عليه ضِمن «المشتَرَك» ويُنَظِّم حُسن أدائه.

لكننى مع ذلك أعرف أن لدى «عمرو موسى» مَزايا لم تَتَوَفَّر لآخرين :

١ - فهو يَجىء إلى مَنصبه كاختيار إجماع لم تَتَخَلَّف عنه دَولة عَرَبية واحدة.

٢ - وهو يَجىء إلى مَنصبه ومعه قَدرٌ واضحٌ من الرضا العام يُضيف مَعنوياً إلى قُدرته.

٣ - وهو يَجىء إلى مَنصبه بدَرَجة عالية من الكفاءة والحَيَويَّة.

٤ - وهو يَجىء إلى مَنصبه فى ظرف تَستَشعر فيه الأمَّة خطراً على وجودها ذاته، ومن ثم فهى مُستَعِدَّة لأن تَسمَع وقابلة لأن تَستَجيب.

وهذه المزايا كلها لا تُعطى لـ«عمرو موسى» «سُلطة» لا يَمنحها له الميثاق - لكنها تُعطيه «حق» أن يَتَكَلَّم دون أن يَتَلَعثم، وأن يُبادر دون أن يَنظر خلفه، وأن «يُوصى» دون أن يَستَسلم، وأن يَعتَذر عن الولاية والوصاية وفى المقَدِّمة ولاية ووصاية «دولة المقَر»، التى نَسيَت نفسها مرات وتَصَوَّرَت أن الجامعة العَرَبية «إدارة أخرى» من إدارات الدولة المصرية، وساعَدَها على الوَهم وجود المقَر فيها، وواقع أن كل الأمناء العامين للجامعة - باستثناء واحد لا يُقاس عليه - كانوا من مُواطنيها، والغريب أن ذلك كان إصرارها دون نَصٍ فى الميثاق !



أمَهِّد بذلك وفى اعتباري أن مصر - ودُوَلاً عَرَبية غيرها - علي وشك أن تُشارك فى مؤتمر على مستوى القمَّة لتَنظيم دَولى يُطلَق عليه وَصف «الفرانكوفونية»، وهذا التنظيم الدَولى يَعقد قمَّته - فى أكتوبر القادم - لأول مرة فى عاصمَة عَرَبية هى بيروت، لدَواعٍ لا تَبدو - لى ولغيرى - مَفهومة، ولمقاصد لا يَظهَر فيها للأمَّة نَفعٌ.

ومُؤدَّى ذلك أنه مرة أخرى سنة ٢٠٠١ يَستَمر الشرود عن نظام السرب العَرَبى، وتَتَبَعثر أجنحته كلٌ منها مُستَسلمة لريح !

وفى بعض الأحيان يَتَبَدَّى لى أن مصر دَخَلَت تَنظيم «الفرانكوفونية» بالخطأ، أو بالتَوَرُّط، دون قَصد. وفى أحيان أخرى يَتَبَدَّى لى خلاف ذلك وتَعتَرينى الدَهشة لأن الدُوَل لا تَدخل فى تَنظيمات، إقليمية أو دَولية، إلا بناء على مَطالب من تاريخ أو مُستقبل، من أمن أو مصلحة، من زيادة فاعلية أو زيادة نفوذ - وأما بدون ذلك فإن الدَولة الرشيدة لا تُضَيِّع وقتها، ولا جهدها، ولا هيبتها، إذ تَتَسَكَّع فى غير مَكانها وفى غير ما يَعنيها، وبلا سَبَب يُقنع أو هَدَف يُساوى.

والحاصل أن العالَم العَرَبى منذ بداية يَقظته الحديثة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية - دَخَلَ وشارَك فى مُنظَّمات وَجَدَ نفسه فيها طبيعياً، ورأى مَطالبه منها جَليَّة واضحة، وقَصد من خلالها إلى ما يُريد واثقاً.

● وكانت البداية أن الدُوَل العَرَبية المستقلة سنة ١٩٤٤ تَقَدَّمَت وأنشأت بإرادَتها مُنَظَّمة إقليمية (الجامعة العَرَبية) مُعتَبرة ذلك تاكيداً لانتماء قومى أصيل - فيه التاريخ، وفيه اللغة، وأمَلاً فى شَراكة للمستقبل واسعة - فيها الاقتصاد والأمن، وفيها التعليم والثقافة، وفيها رَغبة فعل إقليمى مُؤثر يُساهم فى بناء عالَم تَتَطلَّع إليه البَشَريَّة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

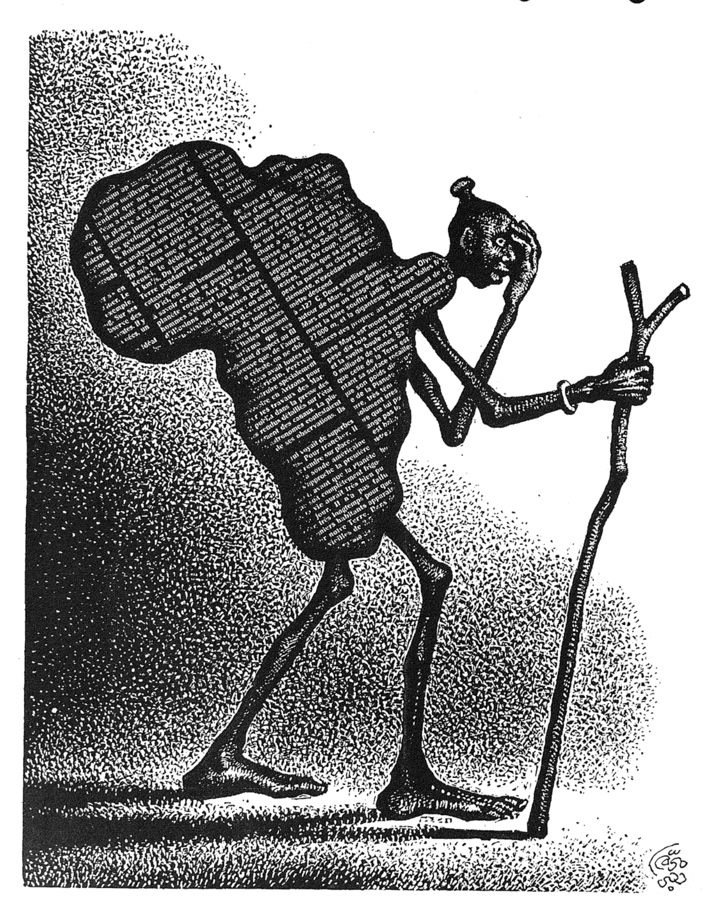
وفى وضوح فكر الأمة وعَزمها - فإنها رَفضَت مَشروعات طُرحَت عليها لتنظيم المنطقة إقليمياً وعَرَبياً. بينها مشروع حلف للدفاع عن الشرق الأوسط فى نفس الصَف مع تركيا وإيران وباكستان. وبينها اقتراحات لمشروعات تَقوم إما فى إطار «الهلال الخصيب» تَدعو إليه بغداد ويَجمَع سوريا ولبنان والأردن (ولاحقاً تركيا)، وإما فى إطار «سوريا الكبرى» يَجمَع الدُوَل العَرَبية السابق ذكرها ولكن تحت تاج هاشمى !

وقد سَقَطَت كل هذه المشروعات لأنها كانت حَملاً خارج الرَحم، ونَجَحَ مشروع الجامعة العَرَبية لأنه حَملٌ طبيعىٌ.

ثم لَحَقَ بذلك أن الدُوَل العَرَبية الأعضاء فى جامعة الدُوَل العَرَبية سنة ١٩٤٥ دَخَلَت فى النظام العالمى للأمم المتحدة - وكانت هى التى سَعَت للمشاركة فى تاسيسه بـ«إعلان سان فرانسيسكو» طامحة أن تُحَقِّق لنفسها مكاناً ووَزناً فى شئون عالَم ما بعد الحرب، قاصدة أن تكون موجودة عند وضع القانون الأساسى الذى يَحكُم مُجتمع الدُوَل فى عالَم السلام القادم، وهو ميثاق الأمم المتحدة.

وبالفعل فقد جاء نظام الأمم المتحدة شاملاً للسياسة (الجمعية العامة ومجلس الأمن) -

.. وأخواتها



والاقتصاد (صندوق النقد الدولى والبنك الدولى) - ومَمتَداً إلى مَجالات أوسَع وأرحَب بعد ذلك من الثقافة والعلوم (منظمة اليونيسكو)، إلى الصحَّة (منظمة الصحَّة العالمية)، إلى الطيران - إلى الرَصد الجَوى لسماء عالمية واحدة - وحتى توزيع مَوجات الإذاعة والتلفزيون (فى بداية ثورة الاتصال).

وفى إطار ميثاق جامعة الدُوَل العَرَبية (على مستوى الإقليم) - وفى إطار ميثاق الأمم المتحدة (على مستوى العالَم) - كانت الأمَّة مُتَّسقة مع نفسها، مُتَّسقة مع عالمها، مُعَبِّرة عن «هَويَّة» يَقوم عليها «وَلاء»، ومُعَبِّرة عن «مَصالح» تَتَرتَّب عليها «التزامات» - ذلك أنه لا أحد فى هذا العالَم يَنتَمى خارج هَويَّته، أو يَنتَظِم خارج مصلحته.

□

وفى مرحلة الفوَران التى اعترت العالَم أحلاماً وأفكاراً وطموحات بعد انتهاء الحرب العالمية - شارَكَت الدُوَل العَرَبية أو بعضها - فى تَجَمُّعات استدعتها أسباب التَكَيُّف والملاءمة، وخصوصاً حين بدا أن النظام الدولى الذى عَبَّرَ عنه قيام الأمم المتحدة يَنزع إلى نوع من الاستقطاب الحاد بين إمبراطوريتين : الولايات المتحدة الأمريكية - والاتحاد السوفيتى.

ووَقَعَ فى ذلك المناخ أن دُوَل آسيا وأفريقيا - وضمنها بعض الدُوَل العَرَبية - تَنادَت إلى طلب التَحَرُّر (وكان ذلك مَقصد تَجَمُّع «باندونج») - ثم تَنادَت إلى طلب قَرار مُستقل تَبتَعِد به عن الانحياز المسبق لهذه القوة الأعظمَ أو تلك (وكان ذلك مَطلَب حَرَكَة عَدَم الانحياز).

وفى ذلك المناخ أيضاً نشا ما سُمِّىَ بالمؤتمر الإسلامى، وكانت مصر هى البادئة بالدَعوة إليه بهَدَف ثقافى هو مُساعدة الموروث الإسلامى ليكون فاعلاً حضارياً فى عُصور انتقلت فيها مراكز التَنوير إلى ما وراء البحار والمحيطات !

وبالتَّوازى مع المؤتمر الإسلامى - وَقَعَ لقاء دُوَل أفريقيا - وضمنها بعض الدُوَل العَرَبية - ورجاؤه المساعدة على إنقاذ القارة السوداء من مَطامع تَتَرَبَّص بها، تَقصد حرمانها من سيادتها أو حرمانها من مَواردها !

وفى كل الأحوال فإن هذه التَجَمُّعات (فى آسيا وأفريقيا - وأمريكا اللاتينية فيما بعد) كانت أشبه ما تكون بالنوادى يتلاقى أعضاؤها، مع ملاحظة أن الناس لا يَشتركون فى النوادى تَطفُّلاً، وإنما لأنهم يَجدون فى إطارها مُتَّسعاً لحاجات يَستَشعرونها، وهُم يَحملون بطاقات عُضويتها بالتحديد، دون أن يكون وراء ذلك - فى الواقع العَمَلى - ما هو أكثر من الاقتراب والانتساب.

ثم كان بجانب هذه التَجَمُّعات - النوادى - أن المصالح استدعت أشكالاً من التَقارُب أوجَدَت ما يُشبه الاتحادات. وعلى سبيل المثال فقد كان طبيعياً أن تَتَقارَب الدُوَل المصَدِّرة للبترول مثلاً («أوبيك»)، أو أن تَتَقارَب دُوَل حوض النيل، أو الفرات، أو الأردن - لدَواعٍ مَحصورة فى حقل مُعَيَّن، أو بين ضفَّتين ظاهرتين !

وكان هذا كله فى إطاره السَليم : مَفهوماً، مَعقولاً - ومَقبولاً.

□

لكنه فى مَطلع السبعينات راحَ التنظيم العَرَبى الجامع - المعَبِّر عن الانتماء وعن المصلحة - يَتَراخى وتَنفلت منه أجزاء تَتطايَر وتَشرُد.

ـــ كانت البداية تَفاهُماً بين الملك «فيصل» (السعودية)، والملك «الحسن» (المغرب)، والشاه «محمد رضا بهلوى» (إيران) - على أن يَتَحَوَّل المؤتمر الإسلامى (الثقافى فى أصله المصرى) إلى منظمة سياسية جامعة للدُوَل الإسلامية لها ميثاقها وإطارها والتزامها، ولم يكن القصد خالصاً لأن أقطار العالَم الإسلامى على اتساع القارات لا يَربطها على سبيل المثال أمن مُشتَرَك (لأنه يَصعُب ظهور تَهديد، ويَستَحيل قيام ضرورات أمن مُشتَرَك - يَستَدعى فعل دفاع مُشتَرَك بين الملايو والمغرب، أو بين إندونيسيا وسوريا مثلاً) - وبنفس المقياس - وعلى سبيل المثال فإنه من الصَعب تَحديد ضرورات مَصلَحة مُشتَرَكة (بين موريتانيا وأفغانستان، أو تركيا والسودان مثلاً)، وأسباب ذلك منطقية لأن «الإسلام» نورٌ عابرٌ للقارات مُتَجاوز للأوطان - والأمن ليس كذلك، والاقتصاد ليس كذلك، لأن كليهما له مَوقع وله حدود.

ثم كان أن أصبح «المؤتمر الإسلامى» السياسى بَديلاً مُوازياً أو مُكَرَّراً لجامعة الدُوَل العَرَبية. وفى الواقع فإن «المؤتمر الإسلامى» قُصد به أن يكون بَديلاً لجامعة الدُوَل العَرَبية التى أخذتها الفكرة القومية إلى عَداء مُسَلَّح مع إسرائيل - وفى الحقيقة فإن هذا المؤتَمَر الإسلامى الجديد كان بذاته وصفاته مشروع «الحلف الإسلامى» الذى طَرَحَته الولايات المتَحدة استنساخاً لـ«حِلف بغداد» بعد سقوطه سنة ١٩٥٨ !

والمهم أنه بإنشاء «المؤتمر الإسلامى» الجديد جرى اقتطاع جزء من التنظيم العَرَبى - المعَبِّر عن النظام العَرَبى - لصالح تَنظيم آخر اسمه «المؤتمر الإسلامى».





فى إطار ميثاق جامعة الدول العربية (على مستوى الإقليم) - وفى إطار ميثاق الأمم المتحدة (على مستوى العالم) - كانت الأمة متسقة مع نفسها، متسقة مع عالمها، معبرة عن «هوية» يقوم عليها «ولاء». ومعبرة عن «مصالح» تترتب عليها «التزامات». ذلك أنه لا أحد فى هذا العالم ينتمى خارج هويته

ولم يَعتَرض أحد، ولم يكن فى وسع أحد أن يَعتَرض، لأن تنظيم المؤتمر الإسلامى وَقَع بعد ظروف حَرب سنة ١٩٦٧ - وكانت الحَرَكة القومية العَرَبية مُقَيَّدة فى فعلها - مَحصورة فى رَدِّ فعلها - مُطالبة بالتركيز على الأساسى، وتأجيل الفرعى، والتَحَرُّك إلى أمام بغير انشغال بمَعارك جانبية.



- ومع بداية الثمانينات وَقَعَ اقتطاع آخر من الجامعة العَرَبية، فقد ظهَر إلى جوارها وبالإضافة إلى «المؤتمر الإسلامى» تَجَمُّعٌ ثالث جديد هو «مجلس التعاون الخليجى». وإذا كان «المؤتمر الإسلامى» قد اقتطع جُزءاً من وحدة التنظيم العَرَبى، فإن مجلس التعاون الخليجى - أحدَثَ تَقسيماً فى المصلحة العَرَبية، وفى الإرادة العَرَبية أيضاً. وأبسَط النتائج أن بعضاً من أهَمِّ عَناصر قوة الفعل العَرَبى خَرَجَت من صراع المستقبَل باحثة لنفسها عن رُكن من شبه الجزيرة العَرَبية تَظَلُّه مأموناً وبعيداً عن الصراعات - وكان ذلك إنكاراً للحقائق وللضرورات، لأن دُوَل الساحل العَرَبى تُصبح بلا عُمق إذا انعزلت عن الداخل العَرَبى - فالتاريخ ليس قشرة على سطح الجغرافيا، وإنما هو علاقة أطراف حَيَّة بجسم حَى !

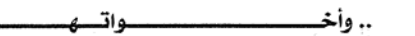


ثم حَدَث قريباً أن العقيد «معمر القذافى» أعلن نظرية «الفضاءات» الحضارية، وظَهَرَ له أن العالَم العَرَبى ليس له «فضاء» حضارى - ! - وإنما فيه عُنصرية عَرَبية تَحسب نفسها دُوَلاً - ! - وهى جميعاً بلا أمَل فى المستقبل إلا إذا عَثرت لنفسها على «فضاء»، و«فضاؤها» هو أفريقيا التى أعاد العقيد «القذافى» اكتشافها، وأعلن تَوحيدها، وقَرَّر تنظيم دُوَلها فى اتحاد شامل تَترامى حدوده من «جوهانسبرج» جنوباً حتى «طنجة» شمالاً، ومن «داكار» غرباً حتى «دار السلام» شرقاً، ثم انتهز فُرصة القِمَّة العَرَبية الأخيرة فى عَمَّان ودعا زملاءه من رؤساء الدُوَل العَرَبية أن يَفيقوا من عُنصُريَّتهم، ويعودوا إلى رُشدهم، ويَلتَحقوا بالفضاء الأفريقى قبل أن يَسقُطوا من حساب القرن الواحد والعشرين، ويَتركهم التَقَدُّم وراءه بقايا من قرون سابقة»!

وكان ذلك مرة ثالثة - ورابعة - وخامسة - اقتطاعاً لجُزء من قوة الفعل والإرادة العَرَبية يُضاف إلى كل ما سَبَق - يَطرَح ولا يَجمَع، ويَقسم ولا يَضرب !



- وخلال ذلك - وعلى طول سنين - طرأت على الساحة العَرَبية مشروعات عَرَضَت نفسها





دون قبول، وهى مَنسيَّة هذه اللحظة أو ضائعة.

■ بينها مشروع - مُعلَّق - بعنوان الاتحاد المغاربى [لدُوَل شمال أفريقيا من تونس إلى المغرب، وهو حتى إشعار آخر حِبرٌ على وَرَق، ولعله يَظَل كذلك].

■ ومشروع ضاع - وكان يُطلق عليه اسم مجلس التعاون العربى [وقد ضَمَّ مصر والعراق والأردن واليمن - وكان مَشروعاً مَشئوماً من يومه، وربما أن الأثر الإيجابى المفيد لحَرب الخليج الثانية أنها أطاحَت بـه !]

■ ثم أطَلَّ على الساحة مشروعٌ آخر مُعلَّقٌ بين النسيان والضياع، هو «مشروع الشرق الأوسط»، وصاحبه «شيمون بيريز». والفكرة المركزية فيه أن العَرَب ليست لهم هَويَّة أو مُستقبل غير المنطقة التى يعيشون فيها، وهذه المنطقة ليست لهم وَحدهم، وإنما لشركاء غيرهم فيهم إسرائيل وتركيا وكذلك إيران (عندما تَتِم تصفية الثورة الإسلامية فيها بالطبع).

وكانت تلك كلها مُحاوَلات لم تَنجَح فى تَجاوز النظام العَرَبى الشامل، أو خَلق تَوازنات مُختلفة فيه بعد أن وَقَعَ انقسامه. ومن حُسن الحَظ أنها جميعاً نُسِيَت أو تَعَطَّلَت.

وأخيراً، وفجأة، ومن المجهول، وبالانسياق - فى الغالب - أو بالانزلاق، ظَهَرَ على ساحة المنطقة مَشروع طارئ باسم «الفرانكوفونية» - وهو مَشروع مُنظمة غريبة لا تُعَبِّر بالنسبة للأمَّة عن هَويَّة، ولا أمن، ولا مصلحة، ولا أمَل. ومع ذلك فهناك الآن دَعوة إلى قِمَّة لها - تَجتَمِع فى عاصمة من أجمل عَواصم الأمَّة العَرَبية، وأكثرها صلابة، وأغناها إسهاماً فى الثقافة العَرَبية.

وهنا يَبرُز سؤال : ما هى «الفرانكوفونية» بالضبط - تلك التى التحقنا بها ونحن لا نعرف متى ؟ - وتلك التى نشارك فى اجتماعاتها ولا نعرف لماذا؟! ■



الإمبراطوريات تعَوض عن القوة الضائعة

■■ ليس سرًا خافياً على أحد أن مُنظمة «الفرانكوفونيَة» هى مُنظمة أقامتها «فرنسا» (ومَعناها الحَرفى استنادا إلى قاموس «أوكسفورد» - «الصوت الفرنسى»)، ثم إنه ليس خافياً أيضاً أن هذه المنظمة فى السياسة الفرنسية وفى تركيبة الدولة الفرنسية اختصاص مُوَزَّع بين رئاسة الجمهورية، ووزارة الخارجية، وبقايا وزارة المستَعمرات، ثم - وهذا هو الأخطر - إدارة المخابرات الخارجية للدولة الفرنسية! (S.D.E.C.E.)

ومُؤدَّى ذلك ببساطة أن هذه المنظمة مشروع فرنسى، قامَت على إنشائه الدَولة الفرنسية بسُلطتها، وتُوَجِّهه الدَولة الفرنسية بأدَواتها، وتُديره الدَولة الفرنسية بأجهزتها لبلوغ هَدَف ومَصلحة، وهذه طبيعة أشياء وحقائق أمور، لأن الدُوَل الكبرى - وفرنسا بينها - تَصرف وقتها فيما يَنفَعها ولا تُضَيِّعه فراغاً أو هوايات !

وبالطبع فإنه من حَقِّ كل قُوَّة كبرى - بما فيها فرنسا - أن يكون لها مشروعها إذا تَمَكَّنَت إرادَتها، وإذا استطاعت مَواردها.

وفرنسا بالتحديد قُوَّة كبرى لها وَزنها ولها دَورها :

● أوَّله فرنسا فى قلب أوروبا قُوَّة مُتَحَرِّكة واصلة إلى أبعَد من غيرها لأنها صاحبة إسهَام حضارى وثقافى، فكرى وفنى، لا يُضاهيه إسهام أوروبى آخر. وهى لذلك قيمة عالمية مُعتَرَف بها قبل أن تكون قُوَّة يُحسَب حسابها.

● وثانيه أن فرنسا بحكم التَقابُل عبر شمال البحر الأبيض وجنوبه لها مع العالَم العَرَبى علاقات مُتَشابكة وأحياناً مُشتَبكة - والبحر الأبيض بُؤرة الصراعات العالمية، وفرنسا على شاطئه الشمالى مُواجهة لضفته الأخرى وعليها الشرق الأوسط ووراءها أفريقيا.

وفى إطار هذا التشابُك والاشتباك كانت فرنسا طَرَفاً فاعلاً فى الحروب الصليبية، وكانت طَرَفاً فى سباق إمبراطورى دَعا واحداً من أكبر قُوادها وهو «نابليون بونابرت» إلى غَزو مصر. وبعد تَراجُع الغَزو تارجَحَت فرنسا بين تأييد مشروع «محمد على» فى بدايته، وبين المشاركة مع القوى الأوروبية بعد ذلك فى ضربه وتَدمير أسطوله، وفرض مُعاهَدة سنة ١٨٤٠ عليه. وكانت فرنسا بعد ذلك إلهاماً للخديو «إسماعيل»، لكنها انضمت إلى بريطانيا فى وصاية على المالية المصرية، حتى وَقَعَ اقتسام النفوذ بين الاثنتين بالوفاق الودِّى فى «فاشودة» فانفردت بريطانيا بمصر، وانفردت فرنسا بالمغرب. وتأكيداً لـ«فاشودة» اقتسمت فرنسا مع بريطانيا الإرث العَرَبى لدَولة الخلافة باتفاقية «سايكس بيكو» (بما فيها تَنفيذ وَعد بَلفور بوَطَن قومى لليهود فى فلسطين)، ثم كان ما كان من سياسات فرنسا على طول المسافة من الجزائر حتى السويس (١٩٥٦).

كل ذلك فى إطار التشابُك والاشتباك، وكله الآن تاريخ، والتاريخ ليس خِزانة مَحفوظات وإنما هو تَجربة حَيَّة عاشَت بالأمس يَوماً وتعيش الآن غيره - مُدركة أن الحياة مُستَمِرَّة، وحَرَكَتها صراعٌ بالاتفاق والاختلاف، لأن الدُوَل لها مصالح ثابتة وسياسات مُتَغَيِّرة مع الظروف.

● وثالثه أن فرنسا جُزء كبير من قُوَّة أوروبا. وأوروبا هى المركز المؤسِّس لحَيَوية وتَدَفُق مَدَنية هذا العصر، وإذا كان التَواصُل بين شمال البحر الأبيض وجنوبه مَطلوباً، وهو أكثر من مطلوب، فإن فرنسا كانت وتَبقى علاقة عَرَبية مَرغوباً فيها، خصوصاً عندما تَكون العلاقة صحِّية بالوضوح وبالشفافية.

● ورابعه أن انفراد الولايات المتحدة بالقوة بعد سقوط الإمبراطوريتين الكبيرتين فى الشرق (الأوسط والأقصى) - يَدعو العَرَب وغيرهم أن يبحثوا عن حُلفاء وعن أصدقاء خصوصاً فى أوروبا. وفرنسا لأسباب عديدة صديق مُحتَمَل، وصَداقته نافعة، على أن يكون معنى الصداقة مَفهوماً للأطراف - مُحافَظاً عليه ومُحتَرَماً.

....

....

[وأتذكر عندما قَصَدتُ فى شهر سبتمبر ١٩٦٧ إلى باريس لموعد مع الرئيس الفرنسي الأشهر الجنرال «شارل ديجول» - أننى مَرَرتُ على «جمال عبد الناصر» فى طريقى إلى المطار أسمع آخر ما لديه قبل السفر. فلم تكن باريس يومها سياحة أو صحافة، وإنما كانت رسالة سياسية من مصر إلى فرنسا. وأذكر ما قاله لى يومها وبنَصِّه تقريباً :

«نحن فى حاجة إلى دولة أوروبية كبرى لكى نجد لأنفسنا جسراً إلى الغرب، وإلا فقد نَجِد أنفسنا (وَسَط هذه المعركة) - مع الاتحاد السوفيتي وَحده. إن الاتحاد السوفيتى مفيدٌ لنا عسكرياً واقتصاديا - لكن وجودنا معه وَحده فى هذه الظروف ضارٌ بصورَتنا أمام العالَم الآن، وضارٌ بحقيقة موقفنا فى المستقبل، ولهذا نحتاج إلى جسر مع أوروبا.

وفرنسا هى الجسر المعقول - لأن بريطانيا حَليفٌ مُخلص للولايات المتحدة - وألمانيا ما زالت بَعد غير قادرة.

وإذن فرنسا هى المرشح الأصلح.

و«ديجول» الذى يُلهم فرنسا بنوع من استقلالية القرار تَستَعيد بها مجدها القديم - هو بالنسبة لنا رَجُل فى مكانه وفى وقته.

وحتى إذا لم تكن فرنسا بالفعل مُستعدَّة، وحتى إذا لم يكن «ديجول» مُتَفَهِّماً بقَدر كافٍ لمواقفنا - فإن فرنسا هذه اللحظة ضرورية».

أضاف «جمال عبد الناصر» بنبرة لها معنى :

«أريدك أن تعرف أنه إذا كانت فرنسا غير مُستعدَّة - فعلينا أن «نَختَرعها»..

وإذا لم يكن «ديجول» مُتَفَهِّماً لمواقفنا فعلينا أن نَتَصَرَّف على أساس أنه مُتَفَهِّم، وذلك بالممارسة سوف يُحدث أثره ويَصنَع حقائقه».

وفى قصر «الإليزيه» - فى اليوم التالى - كان من حُسن الحظ أننى وَجَدتُ فرنسا - لأسبابها - مُستعدَّة، و«ديجول» - بتجربته - متفهما.

وهكذا فإن «جمال عبد الناصر» دَعا فرنسا إلى دور فى أزمة الشرق الأوسط - وتَقَدَّمَت فرنسا للدور (تَعتَبره مُقَدِّمة وراءها ما وراءها، وكذلك تَفعَل القوى الكبرى إذا قبلت دَعوة ووَجَدَت فرصة).]

....

....

ثم حَدَث أن فرنسا ومع الدَور الذى ارتآه «ديجول» حاوَلَت وما زالت تُحاول أن تَتَّخذ لنفسها خطاً مُختلفاً، تَتحَرَّك عليه باستَقلالية - ولو نسبية - وضمن أغراضها أن تَتَوَقَّى هَيمَنة أسلوب الحياة الأمريكى وطغيانه على الدُنيا - وذلك الخَط الفرنسى المختَلف مَجهودٌ يَستَحق التكريم، ويَستَوجب الاحتَرام، ويَستَحق المساندة.

على أن ذلك كله جزء من الحقيقة.

وبقيَّة الحقيقة ولا يَصح نسيانها - أن فرنسا قوة عُظمى، وكانت ذات يوم وإلى عَهد قريب إمبراطورية كبرى، ثم ضاعَ منها ما كان من أملاكها - لكن القوى الكبرى إذا فَقَدَت مجالها الإمبراطورى لا تُهَرول بالانسحاب، وإنما تُحاول التَعويض، وذلك مَنطق القُوَّة - وشخصيتها كذلك.

والشاهد أن بريطانيا حين فَقَدَت الإمبراطورية جَرَّبَت التَعويض عنها - فى ظروف مُتَغَيِّرة - بالكومنولث - وكان الرابط فيه هو الجنيه الإسترلينى «يُلَملم» عَشرات من الدُوَل كانت يوماً حَبَّات عُقد واحد. وتَوَصَّلَت حكمة الإمبراطورية إلى «أنه مع انفراط العُقد فلَيس ضرورياً أن تَتَبَعثر الحَبَّات وتَتَدَحرَج».

وكان المثال البريطاني مُؤثراً على خيال الجنرال «ديجول» بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وقد حَرَّكه الخيال وحكمة التجربة القديمة إلى فكرة التعويض عن الإمبراطورية. وتَوَلَّدَ لدى «ديجول» اعتقاد بأن فرنسا تحتاج إلى «مَثيل فرنسي» للكومنولث البريطاني. وبما أن الفرنك الفرنسي لم يكن وقتها في قوة الجنيه الإسترليني - فإن اللغة الفرنسية طَرَحَت نفسها بديلاً للإسترليني تُضيف إلى القوة الفرنسية وتدعمها بـ«عَظَمة الثقافة» التي تحتويها هذه اللغة. وكان حُلم «ديجول» أن تكون «اللغة والثقافة الفرنسية» قادرة على خدمة «عَظَمة الدولة الفرنسية» (وربما أن ذلك كان تأثير صَديقه ووَزيره «أندريه مالرو») !

هكذا وعند أواخر عَهد «ديجول» - قبل أن تَهل السبعينات - بَدَأت قصَة ما سُمى مُنَظَمة «الفرانكوفون» - «فرنسا - الصوت الفرنسي - اللغة الفرنسية».

أى أنه مَشروع فرنسي. هَدَفه أن يُعَوِض القُوَة الإمبراطورية الفرنسية. وقاعدته وسلاحه اللغة الفرنسية - حاملة الثقافة الفرنسية. ومن اللغة والثقافة إلى ما بعدهما حَسَب ما تَسمَح به الظروف وتَحتَمله الإرادة.

كذلك كانت نشأة المنظَمة. وذلك هَدَفها. وبالتالي تَحَدَّدَ مَوضعها عند نقطة مُعَيَنة، في مَوقع مُعَيَن من تركيبة الدولة الفرنسية بين الرئاسة - ووزارة الخارجية - ووزارة الدفاع - وبقايا وزارة المستعمرات - ثم إدارة المخابرات الخارجية الفرنسية (D.E.C.E.).

□

وحين أعلن ميلاد المنظَمة («الفرانكوفونية») رَسمياً سنة ١٩٧٠ - كان «ديجول» قد اعتزل وتَرَك قصر «الإليزيه» لـ«جورج بومبيدو» (صديقه ومُعاونه ونائبه في رئاسة حزبه) - وقد حَدَث الميلاد أثناء انعقاد مُؤتمرَ تَمهيدى للدُوَل الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية - وكلها بالطبع من المستعمرات الفرنسية السابقة. وكانت شهادة الميلاد اقتراحا من رؤساء ثلاث دُوَل شاركت في اجتماع عُقِدَ في «نيامي» عاصمة «النيجر»، يَحمل توقيع الثلاثة وهُم «ليوبولد سينجور» رئيس السنغال، و«الحبيب بورقيبة» رئيس تونس، و«هاماني ديورى» رئيس النيجر (وهى البلد المضيف للاجتماع).

ثم انتقلت مسئولية المنظمة الوليدة إلى الحكومة الفرنسية بوزاراتها وإداراتها وأجهزتها (بما فيها المخابرات)، وقامت الخارجية الفرنسية على وضع ميثاق لها يقول بغير التباس أن «الهَدَف من المنظَمة الجديدة هو تَجميع الدُوَل المتَكَلِمة باللغة الفرنسية (المستعمرات الفرنسية السابقة) حتى تَعمَل معاً في مجالات تطوير الثقافة، والتعليم، والعلوم والتكنولوجيا». ثم أضيف إلى ذلك هَدَفٌ جرى التعبير عنه بأسلوب شاعرى وهو أن تكون المنظَمة «حارساً للغة الفرنسية» (حتى لا تقوم اللغة الإنجليزية بقهرها وتَهميشها).

لكن المنظمة الجديدة تَخَلَفت عن النمو لأسباب:

١ - أوَلها أن عَدَداً من المستعمرات الفرنسية السابقة خصوصاً في العالَم العَرَبي - بالذات سوريا في المشرق العَرَبي، والجزائر في المغرب العَرَبي - تَخَوَفت من المشروع واعتبرته مُحاولة «لإعادة الروح» إلى الإمبراطورية الفرنسية التي سَقطَت على المسافة ما بين الجزائر والسويس. وكان رأى سوريا والجزائر في ذلك الوقت أن «الثقافة شَلال قوى مُتَدَفِق بحَيَويَة إنسانية تَتَحَرَك به من لغة إلى أخرى، كما أن المحتوى الثقافي للغة الفرنسية عالَم تأثر بغيره وأثر فيه، وحتى إذا كانت اللغة وعاء الثقافة فإن كل لغة تُراث عالمي شائع لا يَحتاج إلى وصاية دَولة».

٢ - أن الطابع الفرنسي لإقليم «كويبيك» - في كَنَدا - أثارَ مشكلة عويصة أمام المنَظَمة الجديدة، لأن كَنَدا كلها عُضوٌ مُهِمٌ وبارزٌ في منَظَمة الكومنولث البريطاني، ولا يَعقل أن يكون البَلَد كله في الكومنولث ثم يَلتَحق إقليم منه مُستَقِل بدَعوى طابعه الفرنسي ويَنتَمى إلى مُنَظَمة مُنافسة هى «الفرانكوفونية».

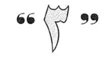
ومن الغريب أن هذه المشكلة ما زالت قائمة حتى الآن، وإلى دَرَجة أنه عندما ذهَب السكرتير العام لمنَظَمة الفرانكوفون (الدكتور «بطرس غالى») لزيارة إلى كَندا، وَقعَت مَشادة بين ولاية «كويبيك» (فرنسية الطابع) وبين الحكومة الكَنَدية (عُضو الكومنولث) - أيهما يكون المضيف الرسمى للسكرتير العام الزائر (دَولة الكومنولث - أو إقليم الثقافة الفرنسية) ؟!

٣ - إن كثيرين تَرَدَدوا في الاعتراف بالمنَظَمة الجديدة على أساس «مَحدودية اللغة الفرنسية»، وتَقدير هؤلاء - وهو صحيح - أن اللغة الفرنسية رغم ثرائها تَقَع في المرتَبَة التاسعة بمقياس الانتشار، لأنه في اتساع التداوُل العالَمى قبلها، ثماني لغات غيرها هى: الصينية، والإنجليزية، والهندية، والأسبانية، والروسية، والعَرَبية، والبنغالية، والبرتغالية.

٤ - وأخيراً كان هناك سَبَبٌ رابع - أهَمَ الأسباب - ومُلَخَصه أن الحكومة الفرنسية لم تكن لديها الموارد التي تمكنها من الصرف على المنَظَمة وفتح الطريق أمامها حتى تُنافس الكومنولث البريطاني على الأقل، وفي تلك الأيام شاعَ في المجتَمَع الدَولى وَصفٌ لمنَظَمة «الفرانكوفونية» يَعتَبرها : «مُنَظَمة ذات «شُهرة» متواضعة و«سُمعة» أكثر تواضعاً !»



ولعل السَبَب الذى استدعى ذلك الوصف القاسى أن مُنَظَمة «الفرانكوفون» زادَ اقترابها من إدارة المخابرات الخارجية - والسَبَب العَمَلى أن الاتحاد السوفيتي في أواخر الحَرب الباردة اتخذ من أفريقيا ساحة لهجومه الأخير، وبتركيز على المستعمرات الفرنسية السابقة التي تأثر زعماؤها بالماركسية وانتمى عَدَدٌ منهم فعلاً إلى الحزب الشيوعى الفرنسى عندما كانوا طَلَبَة علم في باريس (وبينهم رجال من أمثال «سيكوتورى» زعيم غينيا، و«موديبو كيتا» زعيم مالى، وكلاهما لم يكن عُضواً نشطاً في الحزب الشيوعى الفرنسى وحسب، وإنما استطَاع أن يُصبح زعيماً نقابياً له سَطوَته).



رَجُـل باريـس القـوى فى السـبعينات

في سبتمبر ١٩٧١ كنت في فرنسا لزيارة عَمَل، فقد كانت الطبعة الفرنسية من كتابى عن «جمال عبد الناصر وعلاقاته الدولية» على وشك أن تَظهَر تحت عنوان «وثائق القاهرة» عن دار «فلاماريون» للنشر، لكن الزيارة أحاط بها مَناخ أضفى عليها ما زادَ عن حقيقتها.

وكان السَبَب أنه شاعَ في الولايات المتحدة وفي أوروبا أنني - في ذلك الوقت - الصديق الأقرب إلى الرئيس المصرى الجديد «أنور السادات» - وأنني كنت أحد الجسور التي انتقلت عليها الرئاسة إليه من سَلَفِه («جمال عبد الناصر») - (وكان ذلك ما دَعا جريدة مثل «النيويورك تيمس» أن تَنشر مقالاً بعَرض سَبعة أعمدة عنوانه «الرَجُل الأهَم الثاني في مصر» - وكنت المقصود به. ورغم أنني حاوَلتُ أن أصَحِح، فإن كثيرين تَصَوَروا أن التصحيح «تَواضُعٌ» !)

والشاهد أنني أذكر ذلك لأن وقائع ما سوف أسرده فيما بَعد تَرَتَبَت على هذا الانطباع رغم كل ما حاولت - وعليه فقد لاحَظتُ أثناء تلك الزيارة لفرنسا اهتماما غير عادى تَبَدَى في الترتيبات وفي المراسم، وبين ما لاحظته أنني طلبت مَواعيد مع عَدَد من الناس، لكن ما تَحَدَدَ لى تَجاوَز ما طلبتُه، وهكذا وَجَدتُ لى مواعيد تَحَدَدَت مع رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية، وحتى وزير الاقتصاد وهو في ذلك الوقت «جيسكار ديستان» الذى أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية.

ومع أني شديد الاعتزاز بمِهنتي، فلم يكن في مَقدورى أن أتَجاهَل حقيقة أن بعض ما ألقاه «رَسمى» أكثر منه «صَحَفى».

□

وحَدَث يوم ١٢ سبتمبر (١٩٧١) أن زارني لفنجان شاى حيث كنت أقيم في فندق «الكريون» (على ميدان «الكونكورد» وفي مواجهة المسَلَة المصرية الشهيرة في وَسَطه) - عَدَدٌ من المهتمين بالفكر والنشر - أربعة أو خمسة (فقد سَجَلتُ المناسبة في أوراقي ولم أسَجِل العَدَد) - وكانت بينهم صديقة عَزيزة هى الكونتيسة «تيريز دى سان فال»، وهى سيدة من أسرة عريقة جَذبَتها عوالِم الثقافة فاقتربت واهتمت.

وانتهى اللقاء، وبينما كنا نخرج (من الصالون الوحيد الذى بقى على حاله من عَهد صاحب القصر - الذى تَحَوَل إلى فندق - وهو «الدوق الماريشال دى كريون» صديق «هنرى الرابع» وصَفيُه) - أمسَكَت «تيريز دى سان فال» بيَدى وأخَذتني جانباً لتقول لى هَمساً : «ابن عَمى يريد أن يقابلك .. وقد طَلَبَ منى أن أرَتِب له مَوعداً معك بعيداً عن الإطار الرسمى. وكان يستطيع أن يَطلب تَحديد مَوعد معك بواسطة وزارة الخارجية، لكنه فَضَلَ أن تَصِل إليك رَغبَته بطريق غير رسمى».

ولاحَظَت الكونتيسة «دى سان فال» أنني أحتاج تَفصيلاً أكثر، فأضافت دون سؤال : «ابن عَمى مسئول كبير في الدولة وهو الكونت ألكسندر دى مارانش».

ووقتها كان هذا الاسم جديداً علىَ وغريباً تماماً، لكنني لم أجد في جِدَة الاسم وغُربته ما



يَدعونى إلى الاعتذار عن طَلَب اللقاء خصوصاً وقد جاءنى من صديقة عزيزة عرفتها من قبل زمنا طويلاً.

وصباح اليوم التالى - الساعة العاشرة صباحاً - كنت أنتظر زائرى فى القاعة الصغيرة الأخرى المواجهة لصالون «الدوق الماريشال دى كريون» - وكانت تلك القاعة الصغيرة ما تزال أيامها مكتبة أصيلة عتيقة، موحية - بكل محتوياتها وبينها الكتب صفوفاً على الرفوف - بنوع من الكبرياء والجلال (ومن سوء الحظ أنها تَحَوَّلَت فيما بَعد إلى دُكَّان لبيع التُحَف والتذكارات). ولاحَظْتُ من حيث كنت جالساً - أنْتَظِر ضَيفى - حَرَكة بَدَت لى غير عادية عند مَدخل الفندق، لكننى لم أتوقف مع ما لاحظتُ طويلاً، فالفندق هو: المقر الرسمى الذى تختاره الحكومة الفرنسية لضيوفها، ومن الطبيعى أن يكون نُزلاؤه ممن يُستَقبلون بحَرَكة غير عادية عند مَدخله. ثم وَصَلَ الرَجُل الذى كنت أنتظره، وقَدَّم لى نفسه: «ألكسندر دى مارانش، من مساعدى رئيس الدولة».

وبالمظهر والحَرَكة والإيماءة بدا لى الرَجُل أرستُقراطياً إنجليزياً أكثر منه أرستقراطيا فرنسيا. وكنت قَدَّرتُ للقائنا نصف ساعة، لكن زائرى كان عارفاً ومُطَّلعاً ومُشَوِّقاً إلى دَرَجة أننا جَلَسنا معاً ساعة ونصف الساعة ولم أنتبه إلى مرور الوقت. وحين خَرَجتُ بعد انتهاء اللقاء أوَدِّعه إلى باب الفندق، لم يكن فى مقدورى أن أتجاهَل حَجم «الضَجَّة» التى أثارها مَجيئه وانصرافه، فمدير الفندق نفسه كان واقفاً فى الانتظار ومعه مُساعده (الأستاذ «عزيز جرجس» وهو مُحاسِب مصرى كُفء هاجَرَ إلى فرنسا مُبَكِّراً)، كمَا أن هناك جماعة من الرجال كانوا مُتناثرين عند مَدخل الفندق وقد تَجَمَّعوا مع خروج «ألكسندر دى مارانش»، وأحاطوا بسيارته حتى انطلقت إلى زحام «الكونكورد».

والتفت إلى مدير الفندق وسألته عن داعى ذلك الاهتمام كله ؟ وسألنى الرَجُل باستغراب : «ألا تعرف مَن كان زائرك ؟» - قلت : «أعرف اسمه، وعَرَفتُ منه أنه من مساعدى الرئيس».

وهَمهَم مدير الفندق على الطريقة الفرنسية: «آ... هـم» - ثم تَرَدَّدَ قبل أن يقول :

«سيدى .. هذا أقوى رَجُل فى فرنسا. ومع ضَعف الأحزاب السياسية، ومع تَرَدِّى الإدارة الحكومية كما هو الواقع الآن - فإن الكونت ألكسندر دى مارانش «أهَم رَجُل» فى الدولة الفرنسية، هو مدير «المخابرات الخارجية» لفرنسا».

ثم أضاف بعد وَقفة قصيرة : «المخابرات الخارجية لفرنسا - والداخلية أيضاً .. إذ كيف يمكن - يا سيدى - أن تفصل الخارج عن الداخل؟»



وفى السفارة المصرية فى باريس ذات اليوم سمعتُ تأكيداً لوَضع «ألكسندر دى مارانش» على هَرَم السُلطة فى باريس عند الذروة أو قربها. ومَرَّ علىَّ فى الفندق مسئول مصرى كنت أعرف أنه حلقة اتصال لها دورها فى علاقات أجهزة المخابرات المصرية مع غيرها من أجهزة المخابرات فى فرنسا وحولها، وكان بوسائله قد عَرَف بزيارة «دى مارانش» لى، وزادَ بما لديه فى تعريفى بأهمية زائرى!

□

مساء نفس اليوم عادَت الكونتيسة «تيريز دى سان فال» تتصل بى تليفونياً لتقول أن «ابن عَمِّها» يريد دَعوَتى فى مكتبه لأن لديه ما يَوَدُّ إطلاعي عليه والحديث معى فى شأنه، وقد طَلَبَ إليها أن «تجس النبض» لتتأكَّد من قبولى قبل أن يُجازف بالاتصال ليُوَجِّه الدعوة، وعَلَّقت «تيريز» : «الحقيقة أنك قد ترى مناسباً أن تَرُدَّ له الزيارة».

ومساء اليوم التالى - ١٤ سبتمبر - كنت «أرُدُّ الزيارة» للكونت «ألكسندر دى مارانش» فى مكتبه.

وأترك وَصف إجراءات الزيارة - ووَصف مَقر إدارة المخابرات الخارجية الفرنسية S.D.E.C.E - ووَصف مكتب مديرها القَوى - لأن ذلك مما يَطول شرحه، ويَخرج عن سياق الموضوع - لأرَكِّز أكثر على كلام «ألكسندر دى مارانش».

....

....

بعد دقائق من بدء اللقاء لَمَسَ الرَجُل زرًا أمامه، وأضاءت ورائى خريطة بالألوان استدرت لأراها بناء على طلبه. وكانت الخريطة لمواقع إنتاج البترول فى أفريقيا وآسيا على عَرض المسافة من أنجولا على المحيط الأطلنطى وحتى الملايو على بحر الصين. وكان أهم ما فى الخريطة تلك الخطوط العريضة والأقل عَرضاً للطُرُق الرئيسية والفرعية لمواصلات البترول من منابعه إلى موانئ أوروبا، وخصوصاً «روتردام».

وقال لى «دى مارانش» وهو يُلفِت نظرى إلى هذه الطُرُق لشَبَكَة نَقل البترول - أو حَرَكة الدَورة الدَموية لاقتصاد الغرب - كما سَمَّاها - ما مُلَخَّصه : «سوف أطبع لك نُسخة من هذه الخريطة، خُذها معك وادرسها على مهل، ودَقِّق فى مفاتيح الخريطة وأرقامها، وستَشعُر بخطورة ما أريد أن أشرحه لك».



اللغـــة الفرنســية ـ رغـم ثرائهـا ـ تقــع فى المرتبــة التاســعة بمقيــاس الإنتشــــار، لأنــه فى اتســـاع التــداول العـــالمى قــبلهــا، ثمــانى لغــات غــيــرها هى: الصينيــة، والإنجليــزية، والهنــديــة، والأســبانية، والروســية، والعربيــة، والبنغــالية، والبرتغــالية



وقلتُ لـ«ألكسندر دى مارانش»: «ثم ماذا؟»

وكانت تلك دَعوة له يَشرَح ويَستَفيض، ولم يَتَرَدَّد، فقد كان ذلك قصده ومَطلبه من دَعوَتى إلى مكتبه، وكان مُلَخَّص ما قاله :

١ - أن العالَم العَرَبى - بتروله ومَوقعه - قَضيَّة كبرى بالنسبة للغرب : أمنه واقتصاده.

٢ - أن البترول فى الواقع - وبسبب إغلاق قناة السويس منذ سنة ١٩٦٧ - يَدور حول أفريقيا على خطين : من الجزائر - إلى سيراليون - إلى نيجيريا - إلى أنجولا - ثم يَلف حول «رأس الرجاء الصالح»، وهناك يَلتَقى بالمحيط الهندى ذاهباً وعائداً - هذا خط. وخط ثان أهم وهو من الخليج العَرَبى وإليه طالعاً على البَر من البَصرة إلى الموصل، ومن الموصل إلى القوقاز. ورأى «دى مارانش» فى النهاية أن هذه الدائرة نزولاً فى الأطلنطى إلى «رأس الرجاء الصالح»، وصعوداً من هناك إلى المحيط الهندى، ونفاذاً من البصرة إلى القوقاز - هى الدائرة التى يَتَعَلَّق بها مصير العالَم وتَجرى من حولها صراعاته، وأنه فى داخلها ومن حولها تَتَرامى كل المواقع الحسَّاسة والمكشوفة والمعَرَّضة للخطر.

٣ - وحماية البترول وتأمين مواصلاته يمكن فى أحوال عادية أن تكون مسئولية أمريكية - أوروبية، لكن المشكلة أن أمريكا غارقة فى المستنقعات الدَموية لفيتنام. ثم إن أوروبا ليست واعية بما فيه الكفاية. قُوَّة بريطانيا شاخَت. وقوة ألمانيا فى طفولتها. وهذا يُعطى مسئولية أوروبا لفرنسا بالدَرَجة الأولى.

٤ - وفرنسا لا تستطيع أن تقوم بالمهِمَّة وحدها، ولا تريد أن تقوم بالمهِمَّة وحدها، وإنما تريد شراكة مع العالَم العَرَبى تَقودها مصر وهى أكبر الدُوَل العَرَبية. واعتقاده - وهو يريد أن يَسمَع تأكيداً له - أن مصر مُهَيَّأة للتعاون مع فرنسا أكثر من أى دَولة عَرَبية أخرى - كما أن فرنسا أكثر من جاهزة للتعاون مع مصر بحكم علاقات مُتَوَسِّطية زادت قرباً بصلات ثقافية بَدَأت من «نابليون» وقُدومه - ! - إلَى الموقع الذى اعتبره وبحَق - بتأكيد «دى مارانش» من جديد - «أهم موقع على خريطة الدُنيا» !»



وكنت أريد أن أسمع «ألكسندر دى مارانش»، وقد ألزمتُ نفسى بحزم أن لا أتَدَخَّل فى مَجرى حديثه إلا بالقدر اللازم لاستمرار تَدَفُّقه. ولم يكن غافلاً عن قصدى، فقد أدرك بحاسته أننى أريد أن أسمع فقط، ولم يكن يمانع. ومرة أخرى كان ذلك ما يُريده وما يَطلبه من لقائنا. وكذلك كَرَّرتُ له نفس ما سمعه منى سابقاً: «ثم ماذا؟»

واســتطرد «دى مــارانش» يســألنى بما مُلخَّصه:

«هل تظـن أن الرئيس الســادات على استـعداد لأن يَتـعاوَن مع فرنسـا ؟ نريده أن يَثِـق أننا معه بأكثر مما قد يَظُـن».

ثم واصَـلَ حديثه يَعـدُّ أسبابـه :

أوَّلاً ـ «نحن وأنتم مُتَّفقـون على أن الاتحاد السوفيتى موجـود فى المنطقة ويُؤيِّـد العَـرَب ليس حُبّاً فيهم أو كراهية فى إسرائيل ـ وإنما هو هناك يُساعد لأنه يَطلُـب الموقع ـ وثرواته (مَنابع البترول) ـ وخطوط مواصلاته من حول أفريقيـا وحتى المحيط الهندى. والمياه الدافئة كما تَذكُر كانت حُلـم «بطرس الأكبر» ـ وهى أحلام كل قَيصَـر روسـى من يومها وحتى الآن.

ونحن لدينا معلومات كافية عن طلبات الرئيس «السادات» من أصدقائه السوفييت (قـالها وابتسم) ـ نعـرف أنه يَطلُب وأنهم لا يُلبُّون طلباته، ونعرف أنه مُتضايق».

ثانيـاً ـ «نحن سـاعـدناكم فى السـلاح بأكثر مما تَتصَوَّرون. وإذا كنتم تتصورون أننا تَعـاقَدنا على أكثـر من مـائة طائرة من طراز «ميراج» لليبيـا دون أن نعـرف أنها فى الحقيقة لكم (لمصـر) ـ فإنكم تَقَعون فى خطأ كبير. لقد كنا نعرف، وعندما جاءتنا بعثـة المشتروات الليبيـة الأولى كنا مُتـأكِّدين أن رئيسـهـا البريجادير «حسن مطاوع» ضابطٌ رفيع الرتبة فى سلاح الطيران المصـرى، ومع أنه جـاء إلى باريس هو ووفـده بجوازات سفر ليبيـة، فقد كنا على عِلـم ـ حتى قبل أن يلفت الأمـريكان والإسرائيليون نظرنا ـ بأنها جوازات مصنوعة لهذه المهِمَّـة ـ وقد استطعنا الحصـول على الجوازات الأصلية المصرية. كنا على عِلـم ـ على يَقـين. لم يَخـدَعنا أحـد وإنما عـرفنا الحقيقة من اللحظة الأولى، ومشينا فى اللعبة حتى نبيع لليبيـا ـ أو لكم ـ مُقاتلة قاذفة حديثـة طلبتـموها من مـوسكـو وبَخلَت بها عليكم».

....

....

استطرد الكونت «ألكسندر دى مـارانش» وكأنه يَـرُدُّ على تَساؤلات طَرَحَت نفسها على خَواطرى، واستشعرها بحَواسه ـ فقـال :

«لا أريد أن أخدَعَك وأصَوِّر لك المسـألة لتبدو مساعدة لكم فى الحرب ضدَّ إسرائيل. ذلك أبعد ما يكون عن تفكيرنا.

لقد قبلنا بالصفقة مع ليبيـا ونحن نعرف أنها فى الحقيقة لكم ـ قبلنا لأربعة أسباب :

● أن الصفـقة من الناحيـة الاقتـصادية مُجزية ونحن نريدها.

● وأن الصفقة تَفتَح للصناعة الفرنسية فُرَصاً فى سوق المنطقة، ونحن نسعى إليه.

● أن دخول السلاح الفرنسى إلى المنطقة يُعطينا على مائدة «التسوية» مقعَـداً.

● ثم إننا شبـه مُتَـأكِّدين أن المخاطرة مَحسوبة لأن طائراتنا لن تُشارك فى معركة، لأننا نعتقد أن الأزمـة لا تَحلها الحَـرب».

....

....

ومَـضَـت لحظة صَـمـت، وواصَـل «دى مارانش» عَـرض أسبابه :

«ثالثاً ـ إن فرنسا اتخذت موقفاً حيال إزاء أزمـة الشرق الأوسط يَختلف عن موقف أمريكا وبريطانيا، وأنتم فَتحتُم صفحة جديدة معنا من أيام «ناصر»، وأنت بنفسك جـئت وقـابلت الجنرال «ديجـول»، ولم أجـد فى سـجـلات «الإليزيه مَحضَـراً تَفصيلياً للمقابلة، ولكنى وَجَدتُ مُلَخَّصاً لها واضحاً فيما يَعنيه ـ مُؤدَّاه: «إنكم تريدون فتـح صفحة جديدة مع فرنسـا».

رابعـاً ـ سواء تَوَصَّلتم إلى حَـلٍّ سلمى مع إسرائيل أو لم تَتَوَصَّلوا فإن هذه الأزمـة سوف تَجِـدُ حَـلاً لنفسها قريبا ـ سنـة ـ سنتان ـ لا أستطيع أن أقـدِّر تماماً ـ لكنه بعد هذه الأزمـة يَتَعَيَّن على مصـر أن تمارس دورها إيجابياً فى المنطقة وفى العالَم. ظروف سنة ١٩٦٧ ألزمَتكم سيـاسيـاً بموقف دفـاعى ـ سَلبى ـ لكنه بعد انتهاء هذه الأزمـة عليكم أن تَستـأنفوا دَوركم، ولكن دَعنى أقـول لك بصـراحـة أن دَوركم فى المستقبل لا بد أن يَختَلف عن دَوركم فى الماضى، والسـبب بسـيـط وهو أن «السـادات» غـيـر «نـاصـر»، ثـم إن الزمَـن القـادم يَخـتلف عن الزمَـن الماضـى».

□

قلت للكونت «دى مـارانش» : «مـا زال سؤالـى المتَكَرِّر فى هذا اللقـاء قـائمـاً مُعلَّقـاً فى الهواء : ثم ماذا؟»

وقال الرَجُل بأمانة احترمتها فيه :

«أفهمك جيداً .. أنت لا تريد أن تُلزم نفسك بـرَدٍّ على مـا أقوله لـك .. ولا حتى برَدِّ فِـعل لما تَسمعه منى. تريد أن تَحتَفظ لنفسك بموقفك. حسناً . (Bon) ذلك حقـك !»

واستأنف حديثه طارحاً مُقتَرَحات على شكل أسئلـة :

ــ «ما رأيك مثلاً فى فِكـرة «عَمَـل مُشتَرَك» نقوم به معاً (فرنسا ومصـر) فى أفريقيا، قد نرى أن ندعـو معنـا بعض الأصدقـاء المهتـمين الذين يمكن إقناعـهم بالمشـارَكـة. مـا رأيك فى مُشارَكة المغرب ؟ فى مُشارَكة إيران ؟ كنا نَتمَنى لو استطعنا أن نعرض على «سوريا» أن تُشارك، لكن «سوريا» فيما يَظهَر لنا «مَقفولـة».

الـروس يَنفُذون بسرعـة فى وَسَـط القـارة الرَخـو من غـانـا إلى الصومـال، ومن مصلحـتنا جميعاً إيقافهـم !

ـ ما رأيك مثلاً فى فكـرة حـوار بين المسيحية والإسلام ؟ ـ الإسلام تَيَّار سياسى صاعد فى المنطقة، وإذا لم نستطع تَرويض هذا التيَّار فقد يَتَحَوَّل إلى تهديد. المعهد الفرنسى كان لديه مشروع حوار بين الغرب والإسلام ـ الحوار بين الاثنين طويل ـ وعَميق، وفى بعض الأحيان «لم يَكن وِدِّياً». فى الظروف المستَجَدَّة نستطيع أن نُحَـوِّله من عَـداء نـاطق أو صـامت إلى حِـوار مُتَفَهِّـم وَدُود.

ــ ما رأيـك مثلاً فى فكـرة اشتراك مصـر فى مُنَظَّمـة الفـرانكوفـون ؟ ـ فى وقت من الأوقات كانت اللغـة الفرنسيـة لغـة الصَفـوَة عندكم، ونعـرف أنهـا لـم تَعُـد كـذلك الآن لأن اللغـة الإنجليزية طَغَت عليها. لكن الثقافة الفرنسية فى مصـر لهـا جـذور عـميـقـة، ومُنَظَّمـة الفرانكوفـون بالدرجة الأولى تَجَمُّـعٌ «ثقافىٌ» وهى لمصلحتكم. وأنتم تريدون مَدخلاً أوروبياً إلى الغـرب. وفرنسا قلب أوروبا، وهى المرشَّحَة أن تكون مَدخلكم إلى الغـرب. مهما فعلتم فإن هـوى أمـريكا سـوف يَظَـل دائمـاً مع إسرائيل. وإسرائيل صديق لفرنسا، لكنهـا صديق يَلزَم حَـدَّه ولا يَتَـجـاوَزه. ليس عندنا لوبـى يهودى يُؤثـر على سيـاسـة فرنسا. بالـعكس عندنا فى فرنسـا حسـاسـيـة شديدة من اليـهـود. لسنا مُعادين للسامية طبعاً، لكننا نَكـرَه نفوذاً نراه عابـراً للحدود، نافِذاً إلى بعيـد ـ إلى أبعَـد مما نَـرى ؟!»

ومَـضـى الكونت «دى مـارانش» إلى اقتراحات أخرى عَـرَضَ لها بسرعـة ـ ولم يكن فيها ما يَستَوقـف النَظَـر، أو يلفت ويُثـير !

ونَظرتُ إلَى ساعتى. وتَنَبَّهتُ إلى أننى فى هذا المكتب منذ ساعتين وثلث الساعة. وقد كان ما سمعته شديد الأهَمِّية ـ لكن الوقت الآن أزِف، ولدَىَّ مَوعِد للعَشاء مع وزير الخارجية «ميشيل جـوبيـر»، وقلت للكونت «دى مـارانش» مـا مُلَخَّصه :

«إنه أدرَك بذكائه وكَرَمه أننى أريد أن أسمـع دون تعليق، ليس لأنى لا أريد أن ألـزم نفسـى بشـىء، وإنما لأنى أعتـبر أن ما قاله لى رسالة إلى الرئيس «السـادات»، وسـوف أنقلهـا إليـه بأمـانة. لكنه فى هذا الشـأن سـوف يَسـمَع رَدَّ الرئيس من غيرى لأنى ـ حتى إذا لـم يُصَدِّق هو ولم يُصَدِّق غيره ـ أريد أن أظَـلَّ باستمرار داخل حـدود رَسَمتها لدَورى، وتَعَهَّدتُ فيما بينى وبين نفسـى أن لا أتخطاها. وأحسب أنه يستطيع أن يَفهمنى فيما أقـول».

وكـان الرَجُـل رقـيـقـاً حين رَدَّ علىَّ «بأنه لا يَتَفـهَّم مـا أقول فقط ولكنه يُصَدِّقه أيضاً، فقد سَمَعَ حتى قبل أن يَلقانى نصيحة من «كوف دى مـورفيل» ـ وكـان من قبل سفـيراً لبلاده فى القاهـرة (وفيما بعد أصبح رئيساً للوزراء) ـ ما يُؤكِّد له هذا الموقف الذى ألزمـتُ نفسى به».

ثم أضـاف : «أنه واثـق أننى أسـتطيع أن أنقـل للرئيس «السادات» صـورة كـاملة مُقنعـة لما سَمعتُه منه».

وقلـتُ بسـرعـة : «صـورة كـاملة نَـعَـم ـ ولكن مُقنعَة .. هذه مسألة أخرى؟!»

وكـانَ الرَجُل مُتَـحَـضِّراً حـين قـال : «معـك حَـق .. هناك فـارقٌ بين الحالتَين» !

أقوى رجل فى فرنسا يسأل:

ـ ما رأيك مثلا فى فكرة «عمل مشترك» نقوم به معا (فرنسا ومصر) فى أفريقيا؟

ـ ما رأيك مثلا فى فكرة حوار بين المسيحية والإسلام؟ ـ الإسلام تيار سياسى صاعد فى المنطقة، وإذا لم نستطع ترويض هذا التيار، فقد يتحول إلى تهديد.

ـ ما رأيك مثلا فى فكرة اشتراك مصر فى منظمة الفرانكفون؟







مُـــغـــامَــــرات نـادى «الســـافـــارى» فـى أفـــريقـــيـــا

■ ومَـرّت سنوات ـ تَجُرُّ وراءها سنوات ـ وغابَت عن فكرى واهتماماتي مشروعات الكونت «ألكسندر دى مارانش» رئيس إدارة أمن الدولة ومكافحة التَجَسُّس «.S.D.E.C.E» ـ بخصوص أفريقيا ـ والإسلام ـ والفرانكوفونية ـ وماذا يستطيع العَرَب أن يَفعلوا ؟ وكيف يكون دورهم إذا قرروا «المشارَكة» فعلاً في سياسات «دى مارانش» مُحَقِّقة لصالح وأمن فرنسا و«أوروبا والعالَم الحُر»، وفي نفس الوقت للعَرَب (كذلك في شرحه).

ثم حَدَث في طهران بداية سنة ١٩٨١ أنني وَجَدتُ أول مشروعات «ألكسندر دى مارانش» أمامي حَيَّة صاخبة بالحَرَكة ـ ورأيتُ الدليل عليها أمامي ناطقًا بالتفاصيل في مجموعة الوثائق التي تَركها شاه إيران ـ «محمد رضا بهلوى» ـ وراءه عندما غادَرَ قصره الشاهنشاهي «نيافاران» قاصداً إلى مَنفى ـ مصرى ـ كُتبَ عليه أن يَموت فيه !

وكان ضمن هذه الوثائق التي اطلعت عليها بتصريح من «آية الله الخميني» قائد الثورة الإسلامية في إيران ـ نَص معاهدة من أغرب النصوص السياسية التي صادَفتُها في عَمَلي. وكانت المعاهدة تحمل عِدَّة توقيعات أوَّلها وأبرزها توقيع «ألكسندر دى مارانش» !

ثم كانت هناك مع نَص هذه المعاهدة ـ وثائق وأوراق أخرى تَروى تفاصيل واحدة من أهَمِّ العمليات السرية في عصر الحرب الباردة ـ وكان مما يُضيف إلى أهميتها أن هذه العملية سَجَّلها اتفاق مكتوب وَقَّعَ عليه الأطراف ـ خلافاً لكل المتعارف عليه في التَجَمُّع وراء عملية سرية.

....

....

[وربما أن اتفاقية «سيفر» المشهورة في تَواطُؤ العُدوان الثلاثي بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على السويس سنة ١٩٥٦ ـ كانت المثل الوحيد الذى سَبَق في عصر الحرب الباردة. وعلى أية حال فإنه في ذلك الوقت لم يكن نَص اتفاقية «سيفر» التي وَقَّعَ عليها رؤساء حكومات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل قد أذيع بنَصّه وتأكّد وجود الاتفاقية بيقين لا يُداخله شك، ومع ذلك فإن «سيفر» كانت اتفاقية وَقَّعها ساسة ـ لكن المذهل في تلك الاتفاقية التي تركها شاه إيران وراءه في مكتبه وخرج ـ لم تكن بتوقيع ساسة وإنما كانت بتوقيع مسئولي أجهزة مُخابرات مَثّلوا رؤساء دُوَلهم مباشرة وفُوِّضوا في التوقيع، وهي ـ فيما أعلم ـ سابقة ليس لها مثيل في العَمَل السِرِّى.]

□

كانت مُلابَسات المعاهدة كما تُظهِر الأوراق التي تركها الشاه وراءه ـ كما يلي :

١ ـ أن الكونت «ألكسندر دى مارانش» زارَ طهران سِرًا في وقت ما ـ بين يناير ومارس سنة ١٩٧٤ ـ وعَرَض على الشاه خطة عَمَل مُشتَرَك «ضدَّ النشاط الثورى الشيوعي في أفريقيا»، وهو ـ حَسَب قوله ـ نشاط يُهَدِّد القارة كما يُهَدِّد الطُرُق الملاحية المحيطة بها، وهذه الطُرُق أصبحت لها أهمية حَيَوية بحقيقة أن إغلاق قناة السويس (نتيجة معارك ١٩٦٧) جَعَلَ الدَوَران حول أفريقيا هو الطريق الدائرى الوحيد لمرور ناقلات البترول من كافة المنابع (الشرق الأوسط، والخليج، والقوقاز، وجنوب شرق آسيا، وسَواحل أفريقيا الغربية (نيجيريا وأنجولا)).

٢ ـ وكان «دى مارانش» يعرف اهتمام الشاه «محمد رضا بهلوى» بأفريقيا سواء لأسباب عاطفية إنسانية، أو لأسباب اقتصادية مالية. فمن الناحية العاطفية الإنسانية فإن والده «رضا خان» الذى خُلِعَ عن العرش سنة ١٩٤١ وتَقَرَّر نَفيُه ـ اختار مَنفاه في جنوب أفريقيا (أبعد ما يكون عن إيران وعن الألمان الذين اتهم بالتَواطُؤ معهم). وقد بقي «رضا خان» في جنوب أفريقيا حتى مات. لكنه أثناء وجوده في المنفى اقتنع باستثمار جزء كبير من أمواله في شركة «الترنسفال للتنمية»، وهي شركة كانت تعمل بالتعاون مع مجموعة شركات «دى بير» للتنقيب عن الماس في مناجم جنوب أفريقيا ـ وكذلك في صَقله وتسويقه. وكانت الشركة في ذلك الوقت تُنتج وتَحتفظ بإنتاجها في خزائنها تَستَعِد به لعالَم ما بعد الحرب وأسواقه المتَشَوِّقة للاستهلاك بعد سنوات من القيود والضغوط ـ وكانت تَوَقُّعاتها أن «أمريكا» سوف تكون السوق الأعظم حينئذ ـ ثم تليها أوروبا عندما تَستَعيد عافيتها بعد سنوات قَدَّرَتها شركات الماس بما بين عشر إلى خمس عشرة سنة.

وفي ذلك الوقت ـ وحين كان «دى مارانش» يُفضي إلى الشاه بمشروعاته ـ كانت استثمارات أسرة «بهلوى» في جنوب أفريقيا قد بلغت ذروتها، وزادَ عليها أن ارتفاع أسعار البترول (١٩٧٤) مَكَّن أسرة «بهلوى» من زيادة استثماراتها الأفريقية، التي أصبحت أكثر إغراء لسبب مُستَجَد وهو أن العَرَب دخلوا مُشترين بشدة في أسواق الماس وأسواق غيره من الأحجار الكريمة (ولم يكن العَرَب يعرفون هذه الأحجار من قبل، لأنهم استغنوا باللؤلؤ المتاح لهم في الخليج عن الماس الذى خطف بريقه أنظارهم من بعيد، ثم أصبح البعيد قريباً بثورة أسعار النفط بعد حَرب أكتوبر ١٩٧٣ !)

٣ ـ أن «دى مارانش» أيضا كان يَعرف عند الشاه «نزعات إمبراطورية» تبحث عن ميادين تُحَقِّق عليها طموحها ـ وهكذا عَرَضَ عليه أفريقيا.

وكانت حُجَج «دى مارانش» كما هي ظاهرة في الأوراق :

ـــ أن أفريقيا هي المجال الإستراتيجي الأكبر والأغنى، والأكثر تَعَرُّضاً للخطر والطمَع من جانب «قوى الثورة العالمية» ـ الاتحاد السوفيتي ـ والصين.

ـــ وأفريقيا هي العُمق الإستراتيجي الطبيعي والمفتوح للشرق الأوسط، وإذا كان العُمق الأوروبي في الشمال مُزدَحماً بما فيه من القوى ـ فإن العُمق الأفريقي فَراغ تماماً من أي قوة، لأن القوى الإمبراطورية التي كانت تملأ الفراغ إما غير قادرة وإما غير راغبة.

■ وبريطانيا مثلاً غير قادرة وغير راغبة (في تقدير الكونت «دى مارانش»).





عندما جاء وقت الغنائم
لم تكن الأطراف العربية هناك،
وإنما كانت هناك إسرائيل تقيم شراكة مع
«اتحاد معادن كونسوليديتد المحدود» الذى تملكه
«دى بيرز»، ثم تحصل شركة إسرائيلية تعمل في
«أنجولا» على ثلاثين موقعا للبحث عن الماس
مع الحق في ثلاثمائة أخرى

■ وأمريكا قادرة وراغبة، لكن فعلها مُقَيَّد الآن (سنة ١٩٧٤) بسبب ضعف الرئاسة الأمريكية الذى نشبت فيه وَرطة الحرب فى فيتنام من أيام «جونسون»، ثم فضيحة «ووترجيت» التى انزلق إليها الرئيس الحالى «ريتشارد نيكسون». وقد تفاقم العجز الأمريكي بالقيود التى وَضَعَها الكونجرس مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

ـــ وأنه فيما يتعلق بفرنسا فاهتمامها بأفريقيا له أسباب إستراتيجية، وتاريخية، وثقافية. لأن فرنسا ـ كذلك يقول الكونت ـ قادرة وراغبة، لكن العبء كبير وهى لا تستطيع احتماله وحدها. وقد فكَّرت فى العَرَب، وجَسَّت نبض أصدقاء لها بينهم وأهمهم «السعودية»، ووَجَدَت لديهم استعدادا، لكنهم أرادوا أن يستوثقوا من أن الولايات المتحدة لا تعترض. فهم يعرفون حساسية واشنطن من «تعامُل أوروبى عَرَبى» يجرى وراء ظهرها ـ وقد تفَهَّمَت فرنسا هذا الحَذر السعودى وفتحت له الطريق. وتَكَفَّل الكونت «دى مارانش» نفسه بمفاتحة مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض («هنرى كيسنجر»)، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية ورئيسها («ريتشارد هيلمز»)، وحصل بالفعل على إشارة ضوء أخضر وَصَلَت إلى السعوديين وهُم الآن جاهزون.

«لكن العَرَب يَحتاجون تَشجيعاً يُطمئنهم ويَقودهم» ـ كذلك قال الكونت «ألكسندر دى مارانش»، وهكذا تَحَمَّسَ الشاه «محمد رضا بهلوى».

وقد تَعَدَّدَت اللقاءات بين الاثنين ـ الشاه والكونت (ستة لقاءات فى ظرف شهرين) وعَرَض الشاه استعداده لمفاتحة الرئيس «أنور السادات» فى الأمر واثقاً أنه سوف يَشترك. كذلك عَرَض الشاه استعداده لإقناع الملك «الحسن» مَلك المغرب. وأبدى الكونت «ألكسندر دى مَارانش» «أنهم اتصلوا» بالملك «الحسن» وهو «مُعجَب» بالفكرة، مُعتَقِد بإمكان تحقيقها، مُقتَنِع بجدواها.

٤ ـ وأبدى شاه إيران ملاحظة عما إذا كان مفيداً دعوة الجزائر للاشتراك فى هذا «المجهود الطيِّب» لإنقاذ أفريقيا، ولكن «دى مارانش» عارَض مُفاتَحَة الجزائر لأن الرئيس الجزائرى (هوارى) «بومدين» ما زال يعيش «أوهامه الثورية» وله صداقات قوية مع الشيوعيين فى موسكو وبكين ـ وزيادة على ذلك فإن الجزائر لديها «حلم أفريقى» يخصها، وهو يشك أنها تريد أن تَتَعاوَن مع أحد فى مشروع هو أكبر من اختصاص دولة واحدة، وأوسع من أحلام (جزائرية) لا تَسندها إمكانيات حقيقية أو كافية!

٥ ـ أضاف «دى مارانش» أن المشروع لا يَجب أن يكون مشروع دُوَل فقط، وإنما من الأفضل أن تَقتَرب منه مجموعة الشركات الدولية المهتَمَّة بأفريقيا ومواردها، وسَمَّى بالفعل، وعلى سبيل المثال لا الحصر، مجموعة شركات «الأنجلو أمريكان» التى تملكها عائلة «أوبنهايمر» فى جنوب أفريقيا (وهى أهم مُحتكِر لأسواق الماس) ـ كما سَمَّى بنك «تشيز مانهاتن» الذى استثمر بكثافة فى أفريقيا ـ وأضاف أنه تَحادَث فى «هذه الفكرة» مع «دافيد روكفللر» رئيس مجلس إدارة «تشيز»!

وربما أن «دى مارانش» أشار فى حديثه مع الشاه إلى أسرة «روكفللر» وهو يَعلَم أن الأسرة «مُتَعامِل نشيط» فى «سوق البترول الإيرانى»، ثم إنَ الأسرة أيضاً على علاقة وثيقة بعَرش الطاووس الإيرانى من قبل ثورة الدكتور «محمد مصدق» (تأميم البترول الإيرانى)، وبعد سقوط «مصدق» (بانقلاب مَوَّلَته شركات البترول العالمية ونَفَّذته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية!

□

وبعد اتصالات مكثفة وسرية التقت فى مدينة «جَدة» (فى أواخر سنة ١٩٧٤ أو أوائل ١٩٧٥) مجموعة من خمسة رجال مُفَوَّضين من رؤسائهم بالتوقيع على معاهدة للعَمَل السرى المشترك فى أفريقيا. وكان الاجتماع فى بيت الشيخ «كمال أدهم» رئيس المخابرات السعودية (فى ذلك الوقت).

وطبقاً لنص المعاهدة الذى وُجِدَ ضمن أوراق الشاه ـ بدأت المعاهدة بمقدمة جاء فيها:

«إن الحوادث الأخيرة فى أنجولا وفى أجزاء أخرى من أفريقيا أظهرت أن القارة الأفريقية الآن وأكثر فى المستقبل مسرحٌ لنشاط ثورى يُؤدى إلى حروب يغذيها الاتحاد السوفيتى ويستعمل فيها أفراداً ومُنظمات موالين له، والهَدَف هو التمكين للعقيدة الماركسية إلى جانب تحقيق الأهداف الإستراتيجية التى تطلب هَيمَنة الاتحاد السوفيتى على القارة وعلى مَواردها الكامنة، مما يعطى السوفييت سيطرة مؤثرة على الموارد الخام المطلوبة للمؤسسات الصناعية والتجارية والمالية لأوروبا وللعالَم الثالث، ونتيجة ذلك أن حياة أوروبا والعالم الثالث سوف تكون تحت سيطرة الشيوعية، كما أن الممرات البحرية حول القارة سوف تُصبح مُهَدَّدة، وكذلك مستقبلها السياسى الذى سوف تَتَحَكَّم فيه نُظُم عميلة للشيوعية».

وتَخلُص مُقَدِّمة المعاهَدة إلى أن «تلك المخاطر كلها لا بد من التَصَدِّى لها وإفشالها».



بشكل ما وعلى نحو ما ظهرت
فى باريس دعوة إلى «حوار بين الأديان»،
ونشأ ظن بأنه المشروع القديم لـ«دى مارانش»
يطرح نفسه من جديد ـ وأنه على حسب
تعبير سفير فرنسى سابق:
«نفس النبيذ القديم معبأ
فى قوارير جديدة»!



وتمضى نصوص المعاهدة من هذا المدخل العام إلى التفاصيل المحَدَّدة فتقول:

«ـــ إن الاتفاقية لها مفهوم عالمى واسع تُسانده الدُوَل الموَقِّعة عليها وأطراف آخرون يَتَعاطفون مع أهدافها.

ـــ إن مسئولية تنفيذ الاتفاقية مَنوطة بـ«مركز عمليات خاص» مقره القاهرة لسَبَب واضِح هو مَوقع العاصمة المصرية فى مركز يَتَوَسَّط أفريقيا والمهتمين بشأنها من الدُوَل المشاركة فى الاتفاقية (فرنسا وإيران مثلاً) ـ ومُهمَّة هذا المركز أن يقوم «بتحديد أولَويات العَمَل والميادين المستَحِقَّة للاهتمام العاجل»، و«تخطيط العمليات المَطلوب تنفيذها فيه»، و«تكليف من يديرها ويشرف عليها».»

[وبالفعل تَمَّ اتخاذ مقر لمركز العمليات فى «مصر الجديدة» أصبح جاهزاً يوم ١ سبتمبر ١٩٧٦، ودَخَلَته مجموعة سكرتارية فنية، وانعقد فيه أول اجتماع لمركز العمليات بعد ذلك بأسبوعين.]

وبنصوص الاتفاقية:

ـــ كان على فرنسا أن تتولى تزويد «المجهود المشترَك» بكل ما يلزمه من معدات فنية ووسائل تكنولوجية، ومعلومات كافية تُمَكِّن من تَخطيط دَقيق لهذا المجهود.

ـــ وكان على المغرب أن تُقَدِّم مجموعات مَيدانية، وقوات عمليات خاصة.

ـــ وكان على السعودية أن تُمَوِّل.

ـــ وكانت إيران شريكاً بالعرض: من التخطيط إلى التنفيذ إلى التمويل.

لكن القوة الحقيقية وراء الاتفاقية كانت فرنسا و«مدير أمن الدولة فيها» الكونت «ألكسندر دى مارانش» ـ مع أن نَصَّها حَمَل خمسة توقيعات:

ـــ الشيخ «كمال أدهم» ـ مدير المخابرات السعودية ممثلاً للملك «فيصل».

ـــ الجنرال «أحَمد الدليمى» ـ رئيس المخابرات المغربية ممثلا للملك «الحسن».

ـــ الجنرال «نعمة اللهَ ناصرى» ـ مدير المخابرات الإيرانية (السافاك) ـ ممثلاً للشاه «محمد رضا بهلوى».

ـــ الدكتور «أشرف مروان» ـ ممثلاً شخصياً للرئيس «أنور السادات» (وقد حضر الاجتماع التاسيسى ووَقَّعَ على المعاهدة، ثم تَغَيَّر منصبه فترك «مكتب الرئيس للمعلومات» ليُصبح مسئولاً عن إدارة الهيئة العَرَبية للتصنيع الحربى ـ وحَلَّ محله مسئول غيره مُكَلَّف من الرئيس «السادات»).

ـــ ثم ـ وهذا هو الأهَم ـ الكونت «ألكسندر دى مارانش» ـ مدير جهاز أمن الدولة ومكافحة الجاسوسية ـ ممثلاً لـ«الحكومة الفرنسية».

ومن المفارقات أنه فى نهاية الاجتماع التاسيسى نوقِش اقتراح بإطلاق اسم «رمزى» على «مجموعة الاتفاقية»، واقترح الشيخ «كمال أدهم» تسميتها «نادى السافارى» (و«السافارى» هو الوصف الذى يُستَعمَل لرحلات السياحة للصيد أو مشاهدة الوحوش فى أدغال أفريقيا ـ وقُبِلَ الاقتراح على الفور، وخرج إلى الوجود ذلك التنظيم السِرِّى للعمل فى أفريقيا ـ وفق تَصَوُّرات



وخطط الكونت «ألكسندر دى مارانش»، وتسمية الشيخ «كمال أدهم» !

□

ومَضَت السنون تَجُرُّ السنين، ووَجَدتُ نفسى مرة أخرى وجهاً لوجه أمام الكونت «ألكسندر دى مارانش»، وكانت المواجهة هذه المرة قضائية ـ فى محاكم باريس.

والحاصل أننى كنت عَرَفتُ أثناء زيارة إيران (يناير) سنة ١٩٨١ بسرِّ «مجموعة السافارى»، عندما وَجَدتُها فى أوراق الشاه ثم نَشرتُ تفاصيل عنها فى الطبعة الإنجليزية لكتاب «عودة آية الله» (الذى صَدَرَ باللغة العَرَبية تحت عنوان «مَدافع آية الله»، وكان ذلك فى حياة الرئيس «السادات» وقبل اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ بأسابيع قليلة).

وقد تَوَسَّعتُ فى النشر لأن ما قرأتُه هالنى بحَجم ما فيه من مُغامَرات وحَماقات قامَت بها مجموعة نادى «السافارى».

ــ وكان بينه على سبيل المثال :

ــ أن «مجموعة السافارى» كانت أهم العناصر المؤيِّدة للجنرال «بومبا» عندما استولى على إقليم «كاتانجا» فى الكونجو بقصد تأمين مناجم الماس والنحاس الغنية فى هذا الإقليم لصالح الشركات الغربية الكبرى.

ــ وأن «مجموعة السافارى» تَعاوَنَت بكل قوة مع «موبوتو» ديكتاتور الكونجو وجَزَّاره الشهير. وعندما احتاج «موبوتو» قوات لتأمين قَصره فى تلك الأيام، إذا مصر والمغرب تقرران إرسال قوات إلى الكونجو قامَت السعودية بتكاليفها.

ــ وأن «مجموعة السافارى» غاصَت بعيداً فى القرن الأفريقى بحُجَّة مساعدة «سياد برى» فى محاولته العسكرية اليائسة ضدَّ أثيوبيا ونظام الحُكم الشيوعى الذى قام فيها بزعامة «منجستو هيلا مريم». ويشير مُلَخَّص وثائق فى أوراق «مجموعة السافارى» إلى لقاء بين الرئيس الصومالى «سياد برى» وبين السفير المصرى فى «مقديشيو»، وفى هذا اللقاء يَرِدُ ـ منسوباً إلى السفير المصرى ـ قول الرئيس الصومالى له «إن رَقَبَتى فى خطر». ثم تَذكُر الأوراق بعد ذلك أن الرئيس «السادات» قَرَّرَ أن تبيع مصر للصومال أسلحة سوفيتية (لا تريدها) بما قيمته ٧٥ مليون دولار (تدفعها السعودية).

وفى الأوراق (التى تركها الإمبراطور «محمد رضا بهلوى» فى مكتبه) أن «الولايات المتحدة تَدَخَّلَت مرة لوقف نشاط «مجموعة السافارى» عند حَدِّه المأمون الذى تقبله، وحَدَث ذلك عندما تمكن الجيش الصومالى بأسلحة وَصَلَته حديثاً أن يُغَيِّر الموقف فى ميدان القتال، وأن يُهَدِّد إقليم «الأوجادين» الأثيوبى. وكان أن وزير الخارجية الأمريكى «سايروس فانس» وَجَّه بنفسه تحذيرات إلى بعض الدُوَل المشاركة فى «مجموعة السافارى» يلفت نظرها إلى أن دخول الجيش الصومالى إلى منطقة «الأوجادين» ليس شأناً محلياً بين أثيوبيا والصومال (أو غيرهما من الدُوَل المهتَمَّة) ـ «لكنه الآن تَدَخُّل غير مَسئول من «المجموعة الفرنسية» قد يُؤدِّى إلى انقلاب الموازين فى القرن الأفريقى بما لا تقبل به الولايات المتحدة.

....

....

[وظَهَرَ فى الأوراق أنه كان هناك اتفاق على أن تكون الولايات المتحدة وإسرائيل على عِلم بنشاط «نادى السافارى» ـ فقد كان فى مسئولية المخابرات السعودية أن تُبلغ المخابرات الأمريكية ـ وكان فى مسئولية المخابرات الإيرانية أن تُبلغ المخابرات الإسرائيلية.

....

....

ومن المفارقات الداعية إلى مزيج من الأسى والغَضَب أن ثلاث دُوَل عَرَبية (مصر والسعودية والمغرب) اشتركت بهِمَّة فى عَمَليات «نادى السافارى» فى أفريقيا ـ تحت تَوجيه وإدارة الكونت «دى مارانش» ـ لكنه عندما جاء وقت الغنائم لم تكن الأطراف العَرَبية هناك، وإنما كانت هناك إسرائيل تُقيم شراكة مع «اتحاد مَعادن كونسوليديتد المحدود» الذى تملكه «دى بيرز»، ثم تَحصُل شركة إسرائيلية تَعمَل فى «أنجولا» وهى شركة «أفريقيا ـ إسرائيل» (التى يرأس مجلس إدارتها «شموئيل شنتندر») على ثلاثين موقعاً للبحث عن الماس مع الحَقِّ فى ثلاثمائة أخرى. والآن يَصِل حَجم الاستثمارات الإسرائيلية فى «أنجولا» إلى بليون دولار.]

....

....

(وفى الأوراق التى تَرَكَها الشاه فى مكتبه أيضاً) أنه عندما تَدَخَّل «سيروس فانس» بحَسم فى الموضوع فإن «نادى السافارى» اضطر إلى تهدئة أعصابه.

ثم تَحَوَّلَت التهدئة إلى خمول عندما تأكَّد أن السوفيت حصلوا على وثائق حسَّاسة عن نشاط «المجموعة» فى أفريقيا، وذلك بعد مؤتمر سِرِّى «لها» انعقد فى الدار البيضاء (المغرب).

والذى جَرى وقتها هو أن عميلاً سوفيتياً سَرَق حقيبة أوراق الجنرال «نعمة الله ناصرى» وكانت على مقعَد بجواره وهو ينتظر فى مَطار الدار البيضاء قاصداً إلى «كان» حيث كانت تنتظره زوجته لإجازة فى «الريفييرا» الفرنسية. وشاعَ فى ذلك الوقت أن أحد مساعدى الكونت «دى مارانش» كان مَصدَراً ثانياً حصل منه السوفييت على وثائق «نادى السافارى» ـ وظَهَرَ هذا المساعد وهو برُتبة «كولونيل» فى المخابرات الفرنسية ـ كان عميلاً مباشراً للسوفييت، وحين انكشف أمره انتحر أو قُتِل.

وهنا وَقَعَت المواجهة القضائية بين الكونت «دى مارانش» وبينى.

□

أثناء عَمَلى فى كتاب «عودة آية الله» كنت قد عَرَفتُ ونَشَرتُ واقعة سرقة حقيبة أوراق الجنرال الإيرانى «نعمة الله ناصرى» فى مطار «كازا بلانكا». وكنت قد عَرَفتُ وكَتَبتُ إشارة إلى قَتل أو انتحار أحد مُساعدى «دى مارانش»، بعد الشك فى عِمالة السوفييت.

....

....

وكان مقرراً أن الطبعة الفرنسية من الكتاب سوف تظهر بعد الطبعة الأصلية الإنجليزية بشهر واحد، وحقوق الطبعات بكل اللغات عند مؤسسة «أندريه دويتش» الإنجليزية العريقة.

وفوجئتُ ذات صباح فى القاهرة بتليفون من لندن و«أندريه دويتش» رئيس مجلس إدارة شركة النشر العريقة فى لندن يقول لى : «إن الكونت «ألكسندر دى مارانش» رَفَع قَضيَّة يطلب فيها وقف نشر الطبعة الفرنسية من الكتاب، ويطلب أيضا إعطاءه الحق فى مُلاحَقة الكتاب فى كل طبعاته لأنه وَجَدَ فى النص المكتوب عن حادثة انتحار أو قتل مساعده المتَّهَم بأنه عميل سوفيتى ـ ما يوحى بأن قتل الرَجُل أو انتحاره كان بأمرٍ ـ أو بضغطٍ ـ منه قِصاصاً وعِقاباً على خيانته.

وقلتُ على الفور لـ«أندريه دويتش» أننى فيما كتبتُ لم أتَّهِم «دى مارانش» بالقتل على الإطلاق. وعلى التليفون عَرَضنا ـ «أندريه دويتش» وأنا ـ للنَصِّ الإنجليزي كما كتبتُه. وطلبتُ إليه أن يبعَث لى بالترجَمة الفرنسية التى أعِدَّت له فى باريس.

وفى اليوم التالى عاد «أندريه دويتش» للاتصال بى فى القاهرة يقول «أن محامى الكونت دى مارانش اتصل يسأله عما إذا كان فى الإمكان ترتيب لقاء بين مُوَكِّله وبينى يَتم به تعديل النص الذى اعتبره الكونت مُسيئاً له ؟» ـ وقلت بوضوح «إننى فيما نَشرتُ رَوَيتُ واقعة لم يَرد فيها اتهام بالقتل للكونت أو لغيره، وقد كان هَدَفى هو «سر نادى السافارى» وليس «سِر قتل كولونيل فرنسى»».

وقَبلتُ فِكرة اللقاء المباشر ـ كما عَرَضَ محامى «دى مارانش».

وعندما تقابلنا من جديد ـ وهذه المرة فى فندق «بلازا أتينيه» ـ كان «الكونت «دى مارانش» رَجُلاً مُختلفاً. (تَرَكَ مَنصبه، وفَقَدَ قُوَّته، وسَقَط مشروعه «نادى السافارى»). ولم تَمض عدة

بالتجربة العملية ظهر أن الحوار «المستجد» يقترب أكثر من اليهودية.
ثم إن إسرائيل تحاول أن تأخذ الناحية اليهودية فى الحوار لحسابها. وكان ذلك هو الإطار الذى جاء فيه حاخامات إسرائيل.
وأولهم الحاخام «لاو»،
ودخلوا إلى رحاب «الأزهر»



دقائق حتى حُلَّت المشكلة. فقد قرأتُ النص الفرنسي ووَجَدتُ أن ما تُرجم عن الأصل الإنجليزي الذى كتبته كان تعبيراً يَحتمل التأويل. ومساء ذلك اليوم فى فندق «بلازا» وفى حضور «أندريه دويتش» واثنين من المحامين أعَدتُ قراءة النص المترجَم إلى الفرنسية عن الإنجليزية. وامسَكتُ قَلَماً وغيَّرتُ ثلاث كلمات بالعَدَد وأعطيت النص الجديد للكونت «دى مارانش» أسأله «إذا كان ذلك يَكفيه؟» - وكان تعليق الرَجُل رقيقاً باللغة الإنجليزية « fair enough » عادل بما فيه الكفاية».

وبدا مرتاحاً. وكذلك كنتُ.

ثم ذَهَبَ الجميع وبقى هو. وقد أحسستُ أن لديه ما يقوله. وكنت مثله لدىَّ أنا الآخر ما أقوله.

كانت قصَّة «نادى السافارى» كلها قد انقضى زَمَنها : سَقط عرش الشاه فى طهران، ثم مات «محمد رضا بهلوى» فى القاهرة - ثم انتهت حياة الرئيس «السادات» فى مَشهَد مُرَوِّع على منصة عرض عسكرى - وتَرَك «كمال أدهم» مَوقعه مَسئولاً عن المخابرات السعودية - كما أن الكونت «دى مارانش» نفسه أصبح على التَقاعُد !

وبدأتُ الحديث فقلت لرَجُل فرنسا القوى ذات يوم :

«إننى استغربت أنك لم تَعتَرض فيما نَشَرتُه إلا على واقعة الكولونيل - تَصَوَّرتُ أن نشر قصَّة «مجموعة السافارى» من الأصل سوف يُضايقك ؟..»

ورَدَّ بتُؤدة رَجُل عَرَف الدنيا وخبرها قائلاً ما مؤدَّاه : «ذلك حقك ما دامت التفاصيل قد أتيحت لك».

واستطرد :

«وبالنسبة لى فليس هناك فى الموضوع كله ما أخجل منه : كان هَدَفى ولا يزال مصلحة فرنسا، ونفوذها، ودَورها فى العالَم. الأوضاع فى أفريقيا تهمنا، وسوف تَظَل تهمنا لأن نصف أفريقيا فرنسى أو كان فرنسياً فى يوم من الأيام، وهذا استثمار لا يستحق الإهمال، وميراث لابد من حمايته من وجهة نظر فرنسا ولضروراتها».

ثم أضاف الكونت «دى مارانش» :

«أتذكر أننى تحدثت معك فى هذا الموضوع عندما التقينا فى باريس قبل سنوات».

وقلت : «إننى أتذكر ولكنى لا أفهم». ولم أكمل بقية عبارتى، فلم أقل له إننى على استعداد لأن أرى قوى عظمى تَعمَل بكل طاقتها «لتَعويض إمبراطورياتها الضائعة» بوسائل مُستَجَدَّة - لكن الذى لا أفهمه هو ما الذى تفعله «قوى محلِّية» فى مشروعات إمبراطورية لا شأن لها بها - لا مَصلحَة ولا أمن ولا هَدَف من أصله ؟»!

....

....

وتَشعَّب الحديث مع الكونت «ألكسندر دى مارانش» لأكثر من ساعة، ثم خرج الكونت «دى مارانش» وخرجت معه من صالون «البلازا أتينيه» إلى باب الفندق، وكان خروجه عادياً، لا إجراءات، ولا حراسة ظاهرة أو خَفِيَّة، ولا وجوه يَمتزج فيها الاهتمام بالرَهبة كما حَدَث قبل سنوات فى فندق «الكريون».

كانت الدنيا قد تَغَيَّرَت، وتَغَيَّرَت الحظوظ.

لكن مصالح الدُوَل ومطالبها الضامنة لهذه المصالح - لا تَتَغَيَّر !

«٥»

الـــدور الآن عـــلـــى الإســـلام ؟!

عندما قابَلتُ الكونت «دى مارانش» فى مكتبه (سبتمبر ١٩٧١) كان لديه جَدوَل أعمال كامل :

- البند الأول فيه (وقتها) هو العَمَل فى أفريقيا، وكان أمَله أن يَقتَنع الرئيس «السادات» وأن يَتقَدَّم ومعه السعودية والمغرب وإيران، وشاه إيران المتَحَمِّس، ومَوارد بلاده الطائلة.
- والبند الثانى فى جَدوَل أعمال «دى مارانش» «التَعاوُن» مع الإسلام الذى رآه قوة صاعدة ومؤثرة مع تراجع الفكر القومى بعد ١٩٦٧، وكان اقتراب الكونت من هذا الهَدَف - وقتها - باقتراح حوار بين «المسيحية والإسلام»، والدولة الإسلامية المهيَّأة لهذا الدور فى رأيه - مظهراً وجوهراً - هى المملكة العربية السعودية.
- والبند الثالث - على جَدوَل أعمال الكونت - دَعوة أكبر عَدَد من الدُوَل العَرَبية (وأوَّلها مصر) إلى مُنَظَّمة «الفرانكوفون»، وهى البديل الفرنسى للكومنولث البريطانى - والجامع لشتات مستعمرات فرنسا السابقة فى أفريقيا - والحارس للغة فرنسا وحُمولتها - وكان ظن الكونت أن هذا البند يمكن أن يُعهَد به إلى «المغرب»، وكان أمَله أن قاعدة فرانكوفونية فى المغرب تستطيع الوصول إلى الجزائر، وتستطيع أيضاً طمأنة المشرق (سوريا ولبنان) - خصوصاً إذا تصَرَّف الملك «الحسن» فى الموضوع برقَّة وكَياسَة لا تستثير الجزائر.

□

فى الوقت الذى بدأ فيه البند الأفريقى يتحرك - ويبدو تحَرُكه مشجعاً مليئاً بالاحتمالات بعد أن دَخل «نادى السافارى» رحلة التأسيس الجدِّى والتأهُّب للعَمَل - جاء الدور على البند الثانى : «الإسلام».

وكان «دى مارانش» مُتَشجِّعاً بانضمام السعودية إلى «تَجَمُّع العَمَل فى أفريقيا». ولعدة شهور بدا أن السعودية تَستَجيب، فقد وَصَلَت إلى باريس وفود عُلماء دين سعوديون، كما أن وفوداً علمية مقابلة - مسيحية - تَوَجَّهَت إلى جَدَة تحت عنوان ما أطلق عليه فى ذلك الوقت «الحِوار الإسلامى المسيحى» - وفجأة تباطأت الحَركة على خط باريس - جَدَّة، ثم تَوَقَّفت تماماً.

وذات مرة فى باريس خطر لى أن أسأل عما جرى فى ذلك الحِوار الإسلامى - المسيحى ؟ وكان مُؤدَّى ما فهِمته أن مُفتى السعودية فى ذلك الوقت (وأظنه الشيخ «عبد العزيز بن باز») اعترض على المشروع من أساسه. فقد كان حسبانه عندما سمح باللقاءات أن فرنسا تريد أن «تَتَعَرَّف على الإسلام»، لكنه عندما وَجَدَ الموضوع «حِواراً» تَغَيَّرَت فتواه - إلى الاعتراض والإنكار.

وبدا أن الفكرة ماتت فى مَهدها خصوصاً بعد أن تَرَك «دى مارانش» مَوقعه وسافر فى النسيان.

ثم تَبَيَّن فيما بعد أن الخطط لها عُمر يستبقيها على الساحة حتى بعد غياب آبائها الشرعيين. وذلك ما كان.

والذى جَرى أنه أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات كانت «باريس» ساحة نشاط شرق أوسطى مُتَعَدِّد الجبهات ساعَدَت عليه ملابسات :

- فيها معاهدة «كامب دافيد» التى عَجَزت عن جَذب دُوَل عَرَبية غير مصر تنضم إليها.
- وفيها أن مستقبل السلام فى الشرق الأوسط بَدا مُعَرَّضاً للخطر لأن الجهد الأمريكى الذى أوصَلَ إلى «كامب دافيد» قطع أنفاسه بَعدها رُسلاً إلى كل عاصمة عَرَبية بغير نتيجة.
- وفيها أن الثورة الإسلامية فى إيران بعد نجاحها راحَت تَعرض نفسها وكأنها شكل المستقبل.
- وفيها أن اغتيال الرئيس «السادات» (أكتوبر ١٩٨١) أحدَث صدمة فى العالَم كله خصوصاً والمدفع الرشاش الذى اغتاله «إسلامى».
- وفيها أن إسرائيل أصبَحَت شديدة القلق. تَخشى من تَداعيات نجاح الثورة الإسلامية، وتُوقف عَمَلية السلام. وكان يهود أمريكا فى حالةَ حَيرة مما حَدَث، وأما يهود أوروبا فقد زادَ نشاطهم خصوصاً فى باريس، وكانت أسرة «روتشيلد» رأس الحَربة فى نشاط يهود أوروبا، كما كانت أرملة الزعيم الاشتراكي الكبير «منديس فرانس» نجمة الجهد اليهودى من مقر إقامتها فى باريس.
- وفيها أنه ظَهَرَ فى أوروبا من يعتقدون أنهم الطَرَف الغربى الذى يستطيع أن يدخل إلى الشرق الأوسط ويقوم بمهمة تلطيف الأجواء على الأقل (وبينهم «كرايسكى» مُستشار النمسا وغيره).
- ثم إن هذا كله كان المناخ الذى تَقَدَّمَت فيه دُوَل أوروبية ظنت نفسها فوق الشبهات لاستحالة اتهامها بخطط إمبراطورية - بالنسبة إلى حجمها، وكانت الدُوَل الاسكندنافية «السويد» أوَّلاً، ثم «النرويج»، طليعة المتقدمين. وبالفعل فإن الجهد السويدى النرويجى هو الذى قاد بعد سنوات إلى اتفاقية «أوسلو».
- وكذلك وَصَل التأهُّب الفرنسى مَداه. ذلك أنه إذا كانت تَطوُّرات الحوادث قد عادَت إلى أوروبا بدور وضعته الحقائق المستجدة على عَتَبَة بابها، فإن فرنسا هى الأقدر وهى الأجدر. فلا بريطانيا مقبولة لقيادة دور أوروبى - شرق أوسطى - ولا ألمانيا جاهزة لمثل هذا الدور - وفى نفس الوقت من وجهة النظر الفرنسية - فإنه لا «ستوكهولم» ولا «أوسلو» لديها الجاذبية الغلابة لباريس وأنوارها الباهرة.

□

وبشكل ما وعلى نحو ما (والوقائع هنا غامضة والصلات مُلتبسة) ظهرت فى باريس دعوة إلى «حوار بين الأديان»، ونشأ ظن بأنه المشروع القديم لـ«دى مارانش» يطرح نفسه من جديد - وأنه على حَسَب تعبير سفير فرنسى سابق : «نفس النبيذ القديم مُعَبّأ فى قوارير جديدة» !

لكن طَعم «الجديد» بدأت تختلف فى بعض الملامح عن طَعم «القديم».

وفى حين أن المشروع «القديم» كان طرفه الإسلامى هو السعودية - فإن المشروع الجديد بدا وكان طرفه الإسلامى هو مصر.

وفى حين أن الراعى الإسلامى السابق هو



مُـفـتـى السـعـودية (الشـيخ «بن بـاز» الذى تَوَقَّف فى مُنتَصَف الطريق وانسحب) ـ فإن الراعى الإسلامى هذه المرة كان «الأزهر» (الذى لم يُعارض ولم يَرفض، ولعله انتظر إشارة من الدولة تَدُل على ما تراه صالحاً للأزهر وللبلد).

وأخيراً فإن عنوان المشروع السابق كان «الحوار الإسلامى المسيحى» ـ لكن العنوان فى المَشروع المستجد أشمل فهو «حِوار الأديان».

وبالتجربة العَمَلية فقد ظَهَر أن الحوار «المستَجَد» يقترب أكثر من اليهودية ـ ثَم إن إسرائيل تحاول أن تأخذ الناحية اليهودية فى الحوار لحسابها ـ وكان ذلك هو الإطار الذى جَاء فيه حاخامات إسرائيل، وأوَّلهم الحاخام «لاو»، ودخلوا إلى رحاب «الأزهر».

ولقد بدا الأمر فى ظاهره مثيراً للمشاعر، وانصرف الكثير من النقد لشيخ «الأزهر» دون مُراعاة لمقامه الجليل، مع أنه كان بادياً لكل من يريد أن يرى أن «الشيخ» يَتَصَرَّف بظن أنها «الدولة ومصالحها العُليا». وقد بدا «الشيخ» حائراً بين «ظنون ما هو مطلوب منه لمصالح أعلى» وبين هَجَمات عنيفة تَعَرَّض لها واعتقاده أن الصواب جانَبَها. وفى هذه الحيرة التى تنازعت «الشيخ» ظَهَرَت فى تصرفاته ـ وذلك طبيعى وإنسانى ـ ردود فعل عَصَبيَّة أدَّت بدورها إلى زيادة المساحة فى سوء الفهم بين «نوايا الشيخ» وبين «ظواهر» ما سَمَح به.

....

....

والشاهد أن المشروع كله فى هذه اللحظة يومئ إلى أشياء :

■ يومئ هذه اللحظة إلى أنه جزء من محاولة «تفويت نوع من السلام» لا يَصح إدخال «الأزهر» فيه ولا يَليق.

■ يومئ أيضاً إلى أنه «دخول فى رحاب الإسلام» بغرض سياسى لا يتفق بالضرورة لا مع رسالة الدين الإسلامى، ولا مع عالميته المفتوحة على الدنيا كلها.

■ يومئ أخيراً إلى أنها «ربما لا تكون فرنسا» و«نبيذها القديم فى قوارير جديدة». وإنما هو على الأرجح «نبيذ جديد فى قوارير قديمة» توحى بأنه لا اختلاف ـ بينما هو فى الواقع أكثر من مجرد اختلاف !

....

....

وربما أن الأمر هنا يحتاج إلى مُراجَعة، وربما أن شيخ «الأزهر» ومقامه الجليل له على الدَولة حَق أن توضح أمامه رؤيتها للمصالح العليا للبلد، ومقتضيات هذه الرؤية فيما هو مطلوب منه.

لكنه من غير المقبول أن يبقى الحال على حاله !

والشاهد أن العلاقة بين «الأديان» لا تحتاج إلى حوار وجَدَل، وإنما تحتاج إلى فهم متبادَل. والحوار فى مفهومه الطبيعى يُطالِب أطرافه أن يَتَوَصَّلوا إلى لقاء، وذلك يجوز فى الأفكار وليس فى الأديان. فالأديان مسالة «إيمان» لا يَعرف حَلاً وَسَطاً. بل إن الحَلَّ الوَسَط يحرج اليَقين ! ـ ولذلك فالمطلوب من كل «مؤمن» أن يَحتَرم «إيمان» غيره عن طريق الفَهم وليس عن طريق الجَدَل. يَدخُل فى ذلك أنه حتى مقولة أن «الكل أبناء إبراهيم» مقولة تحتاج إلى تدقيق. فالدين ليس نَسَباً عائلياً، ولكنه اختلاف «مُعتَقَدات إلهية ورسولية» مُتجاوزة للنَسَب ـ البَشَرى ـ على فرض تَحَقُّقه.

وحتى إذا تَقَدَّم منطق «الحِوار» على منطق «الفهم» ـ فالأوْلى بأى «حِوار» دينى يقوم عليه «الأزهر» أن يكون إسلامياً ـ مسيحياً، وأن يَجرى أولاً بينه وبين الكنيسة القبطية، وهى واحد من أهم مُكَوِّنات الشخصية المصرية والثقافة الوطنية من قبل دخول الإسلام إلى مصر وبعده.

وهنا قد يُصبح الحوار ـ على قاعدة الوَطَن الواحد ـ مُجدِياً ونافِعاً لأنه على أرض وإلى هَدَف. ■



قِمَّة فرانكوفونية فى بيروت مع الخريف القادم

■■ مع أواخر الثمانينات وبداية التسعينات عادت فرنسا ـ وكأن بنود «دى مارانش» وَصايا ـ لها جَدوَل أعمال جاء الدَور فيه على «الفرانكوفونية»، والظن أنها وسيلة للنفاذ صالحة مع متغيرات شديدة الأهمية طرأت على الساحة العالمية.

والواقع أن الأفكار ـ الوَصايا ـ التى عَبَّرَ عنها الكونت «ألكسندر دى مارانش» عادَت تَطرَح نفسها فى عالَم مُتَغَيِّر :

١ ـ الاتحاد السوفيتى يَتَرَنَّح، وهو على وشك السقوط .

٢ ـ ودُوَل كانت تحت سيطرته تَنفلت الآن من قبضته (بولندا ـ تشيكوسلوفاكيا ـ بلغاريا ـ وغيرها) وتحاول البحث عن مكان لها يَصلها بأوروبا الغربية .

٣ ـ وفرنسا ـ والرئيس فيها فى ذلك الوقت «فرانسوا ميتران» ـ تَتَخَوَّف من انفراد الولايات المتحدة بأمور العالَم ومصائره .

٤ ـ واللغة الإنجليزية ـ وهى عِماد لغة العُلوم والتكنولوجيا والإنترنت ـ تَتَوَسَّع بشدة وتزيح غيرها من اللغات، ومع اللغات حمولاتها الثقافية .

٥ ـ ومن وجهة نظر رَجُل مثل «جاك لانج» (وزير الثقافة الفرنسى) فإن خطورة الاستيلاء على اللغة يمكن أن تكون مُقَدِّمة لإلغاء هَوِيَّة أصحابها. وإذن فإن اللغة الفرنسية ـ حاملة ثقافة فرنسا ـ ووعاء هَوِيَّتها الإنسانية والتاريخية ـ فى خطر .

٦ ـ إن أفريقيا تَتَحَوَّل بسرعة من ساحة حرب باردة بين الشرق والغرب، لتُصبح ساحة منافسة ساخنة بين الولايات المتحدة وبين فرنسا. وفى وقت الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى والغرب، كانت الولايات المتحدة وفرنسا «على نفس الجبهة إلى حَدٍّ ما» أمام عَدُوٍّ ماركسى مُشتَرَك ظَهَرَ فى غينيا وفى مالى، ثم الكونجو وأنجولا ـ لكنه بعد انتهاء الحرب الباردة تباعَدَت المواقف مع تَبايُن المصالح.

□

والواقع أن الذى يُتابع الخلافات الأمريكية ـ الفرنسية يستطيع أن يلمح كيف تَطَوَّرَت الأمور بحيث جَرى ـ ولا يزال يجرى ـ تَدعيم «الفرانكوفونية» لكى تَدخل المنافسة الساخنة مع الولايات المتحدة الأمريكية ـ فى أفريقيا وخارجها أيضاً.

ومن المفيد ـ مثلاً ـ مُلاحَظة ما كَتَبَه «جورج بول» مساعد وزير الخارجية الأمريكى (مع «دين راسك» ـ على عهد «كنيدى» و«جونسون») فى مذكراته ـ وقوله فيها أنه : «طوال السبعينات والثمانينات لم يكن لدى الولايات المتحدة مانع من تنشيط «الفرانكوفونية» لأنها كانت فى خندق قريب من خنادقنا فى أفريقيا !»

ومن المفيد أيضاً مُلاحَظة ما رَواه «كلود ووتيير» فى كتابه «أفريقيا و ٤ رؤساء من فرنسا» (هُم «ديجول» ـ و«بومبيدو» ـ و«جيسكار ديستان» ـ و«ميتران») ـ ومُؤَدَّاه «أن الخلافات بين الولايات المتحدة وفرنسا ـ بعد انتهاء الحَرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى ـ احتدمت فى أفريقيا بسبب الرفض الأمريكى لدور فرنسى خاص فى القارة السوداء مع ظروف مُتَغَيِّرة».

وكَشَفَ «ووتيير» أنه أثناء محادثات على أعلى المستويات بين الولايات المتحدة وفرنسا وَرَدَت عدة مَطالب فرنسية لم تقبل بها واشنطن :

ـ أحد المطالب الفرنسية أنه بسبب القرب الجغرافى عبر البحر الأبيض، وبسبب العلاقة القديمة (الاستعمارية)، وبسبب سيادة اللغة الفرنسية ـ فإن فرنسا لا بد أن يُعتَرَف لها فى القارة الأفريقية بنوعٍ مما يُعتَرَف به للولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية طبقاً لـ«مَبدأ مونرو» الذى يَقبَل العالَم به أن أمريكا اللاتينية اختصاص للولايات المتحدة أصيل ـ لا يَدخل فيه طَرَف أجنبى، وإذا دَخَل فبحساب وبعد إذن.

ـ مَطلَب آخر عَبَّرَ عن نفسه ـ على مائدة المفاوضات ـ بطريقة فَجَّة تَرى ضرورة الاعتراف بأن أفريقيا هى منطقة «صيد محفوظ» chasse guardée لفرنسا، ومَفهوم العبارة أنها عَودة إلى أيام كانت مَوارد القارة فيها نَهباً بالقِسمَة بين الدُوَل الكبرى وشركاتها !

ـ وفيما كَتَبَه «ووتيير» وغيره ـ مثلاً ـ إن كلا من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية اتخذت لها فى القارة الأفريقية رجالاً مَحسوبين عليها، ترعاهم وتدعمهم. ولسنوات طويلة كانت فرنسا حامية رَجُل مثل «جان بيدل بوكاسا» الذى قام بانقلاب فى جمهورية أفريقيا الوسطى وأعلن نفسه إمبراطوراً، وأمَرَ بصُنع «تاج» فى محل «كارتييه» فى باريس يقوم هو بوضعه فوق رأسه «على طريقة نابليون» ـ وكانت فرنسا توافق، وكان رؤساؤها وبينهم «جيسكار ديستان» يَقبلون هدايا «بوكاسا» من قطع الماس والزُمُرُّد (وسَبَّبَ ذلك ضجَّة كبيرة فى فرنسا).

وفى مقابل ذلك فإن «جوزيف ديزيريه موبوتو» أصبح لأكثر من عشرين سنة رَجُل الولايات المتحدة القوى فى الكونجو، وقد سَمَحَت له الولايات المتحدة وساعَدَته بالتخطيط كى يأسر منافسه الوَطنى «لومومبا» زعيم استقلال الكونجو، ثم يقتله وهو أسير، ثم يَعتَرف أحد عُملاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أن جثة «لومومبا» لم يُعثر عليها لأن الأوامر قَضَت باستعمال «منشار كهربائي !» يُحَوِّلها إلى «شرائح» تُبَعثر فى بُقَع مختلفة من الأرض، أو مواقع مُتَباعدة من الماء فى نهر الكونجو المتَدَفِّق بسرعة نَحو المحيط.

ـ وكان الصراع على المواد الخام، والبترول ـ كالعادة أولها



- حرباً مستمرة بين عملاقين أحدهما أمريكي والآخر فرنسي. الأمريكي هو شركة «أوكسيدنتال» والفرنسي هو شركة «إلف أكويتين» - والموقعة بينهما كانت - ولا تزال حتى الآن - شبه حرب في جمهورية «الكونجو برازافيل» !

وقد وَصلَت الصراعات بين القوتين - بوكالة الشركات الدولية الكبرى - إلى حَدّ استباحة منطقة البحيرات العُظمى باستغلال الأجناس والأعراق والقبائل، وتحويل قلب أفريقيا («رواندا») إلى فَيَضان دَمَوى يُعيد تلوين البحيرات باللون الأحمر.

وخلال هذه المنافسة الساخنة فإن القوة الأمريكية في أفريقيا دَخَلَت إلى الساحة بنفسها وباسمها وتحت عَلَمها مُعتَمِدة على غَلَبة لها في العصر كاسحة - وأما فرنسا فقد حاوَلَت وراء واجهة «الفرانكوفونية»، وبمنطق تَرَدَّدَ كثيراً في الأدبيات الأساسية «للفرانكوفونية» مُؤدّاه أنه في «مجال السياسة الخارجية فإن المصالح تمشي على خطٍّ متوازٍ مع الثقافة، وأنه في حالة فرنسا بالتحديد فإن هذه المقولة أصدق ما يكون !»

□

كان الصراع الثقافي - مُتوازياً مع الصراع الاقتصادي - عنيفاً على «روح» أفريقيا بمقدار عنفه على «موارد» أفريقيا.

وكانت الولايات المتحدة تُقدِّم أسلوبها في الحياة إغراءً، وتُقدِّم تكنولوجيا التَّقدُّم إقناعاً - وفي نفس الوقت فإن فرنسا اعتمدت على «اللغة» وعلى «الثقافة» قاطرات تَجُر المصالح وراءها.

وفي خضم هذا الصراع أصبح للوجه الأمريكي في القارة رجال - وللوجه الفرنسي رجال.

وكان أبرز الوجوه الفرنسية - رجال من أمثال «ليوبولد سنجور» (السنغال)، و«هوفيه بوانييه» (ساحل العاج).

ومن المفارقات أنه في خضم الصراع انتزعت فرنسا واحداً من رجال أمريكا هو «سانا أباتشي» الذي استولى على الحُكم في نيجيريا، ونَهَبَ مليارات من مواردها. وقد قَرَّرَ الانضمام إلى مجموعة «الفرانكوفون» طلباً للنجاة، لكن الولايات المتحدة طارَدَته بانقلاب من داخل جيشه فَتَح الباب لحُكم مَدَني - صَديق لأمريكا - يَرأسه جنرال سابق هو «أوباسنجو» الرئيس الحالي لأكبر بَلَد أفريقي في تعداد السكان.

وفي هذا الإطار وليس في غيره يَتَغَيَّر النظر إلى عملية إحياء «الفرانكوفونية» التي أخذت مع بداية التسعينات تَتَّجه بنشاط ظاهر إلى العالَم العَرَبي.

....

....

[وبرغم أنني واحد من الذين يَتَحَمَّسون لأي محاولة لوقف الهيمنة الأمريكية على العالم حتى لو كانت في إطار مُنافسة - فإن الحالة هنا أكثر تَعقيداً، بمعنى أن المنافسة الساخنة أمريكية وفرنسية يمكن متابعتها باهتمام والاستمتاع بمشاهدتها وعن بُعد، لكنها في البداية والنهاية صراعٌ لا شأن للعَرَب فيه - لا في مجال المصالح - ولا في مجال اللغة وحمولاتها الثقافية.]

....

....

ولم يلتفت كثيرون من العَرَب إلى معنى اختيار الدكتور «بطرس غالي» أميناً عاماً للأمَم المتحدة في أوائل التسعينات، ومع «لحظة توفيقية» بين الولايات المتحدة وفرنسا.

ولم يلتفت كثيرون إلى معنى اعتراض الولايات المتحدة على تجديد خدمة الدكتور «بطرس غالي» لمدَّة ثانية كانت من حَقِّه تقليدياً - لأن رَغبات التوفيق تَعَثَّرَت، وحَلَّت محلَّها تلك المنافسة الساخنة، مما اقتضى اختيار «كوفي عنان»، وتجديد اختياره هذه الأيام لمدَّة خدمة ثانية.

....

....

[وقد سمعتُ أحد وزراء الخارجية الأوروبيين يقول في مَعرَض محاولة لشرح ما جَرى ويَجرى في الأمانة العامة للأمم المتحدة - وقوله بالنص :

«قَضى بطرس غالي طول المدَّة التي قضاها في منصب السكرتير العام للأمم المتحدة وهو يحاول إقناع أمريكا أنه ليس مُرَشَّح فرنسا - لكن «مادلين أولبرايت» كانت تَعرف أكثر.

وقَضى كوفي (عنان) الشهر الأوَّل من عَمَله سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة يُحاول إقناع أوروبا أنه ليس مُرَشَّح أمريكا - ثم تَمالك نفسه وكَفَّ عن المحاوَلة، وتَرَك للأطراف أن يأخذوه كما هو، وإذا حَسَبوه مُرَشَّح أمريكا فهذا حقهم، وأما هو فلم يَعُد مَشغولاً بإقناع أحد - بشيء !»]

....

....

وبحلول المنافسَة مَحَل اللحظة التوفيقية في العلاقات الفرنسية - الأمريكية - ومجيء «عَنان» - عُرِضَ على «غالي» وقَبِل أن يكون سكرتيراً عاماً «للفرانكوفونية».

(وربما أسَجِّل هنا أن رجالاً من طراز «كوفي عنان» و«بطرس غالي» - رجالٌ لهم قيمة في حَدّ ذاتهم - وكلٌّ منهما مُؤهَّلٌ للمَنصِب الذي وَصَلَ إليه - لكن هناك فارقاً بين القيمة في حَدِّ ذاتها - وبين الملابَسات التي تَحمِل القيمة إلى نقطة الوصول).

....

....

[وفي أواخر الثمانينات وبداية التسعينات بَدا أن مصر تَقتَرب دون داعٍ من «الفرانكوفونية».

وأتذكر أنني سألتُ، وفي السؤال استغراب يُقارب القلق، عن السبب - وقيل لي والقائل مسئول : «إن مصر لم تَقبَل بأكثر من وَضع المراقب».

وكان رَدّي أن مصر عندما تريد وضع المراقب - سواء في أفريقيا أو غيرها - عليها أن تطل إما من نافذة سياستها الأفريقية المستقلة، وإما من خلال عضويتها كمؤسِّس في منظمة الوحدة الأفريقية - وإما من موقعها الأهم من خلال جامعة الدُوَل العَرَبية.

لكنه يَبدو لي غير مَنطقي أن تُراقِب مصر من موقع «الفرانكوفونية» نفسه.]

....

....

على أن مصر راحَت تَقتَرب أكثر، وكانت المحاولة حثيثة تُشَجِّع اقترابها باعتقاد أنه إغراءٌ لغيرها، ونداءٌ أن الباب مفتوح.

□

ثم كان أن تَقَرَّر لأول مرة عقد مؤتمر «للفرانكوفونية» على مستوى القمَّة - في عاصمة عَرَبية - هي بيروت، والموعد أكتوبر القادم (٢٠٠١).

وذلك في أقل القليل وَضع غير مريح، بمعنى :

١ - أن الدُوَل العَرَبية كلها - وليس بعضها - من واجبها أن تُتابع ما يَجرى على الساحة العالمية وتَهتَم به وتاخذ حَرَكَته في علمها وفي حسابها. لكنها وهي تفعل ذلك عليها أن تَعرف أنها طَرَف مُستَقل له مجالاته الشرعية في العَمَل الجماعي الدولي وأولها الجامعة العَرَبية ومؤسساتها - والأمم المتحدة ونظامها - ومَجالات أخرى مُنسَّقة من العَمَل الجماعي تَهتَم بالمصالح وتحصيل العلوم والتكنولوجيا إلى آخره. أما معسكرات القوى العُظمى، أو مُنافساتها، أو تَحَيُّزاتها - فذلك ما لا شان لها به .

٢ - أنه إذا كانت الدُوَل العَرَبية - أو بعضها - تريد أن تكون حارسة لغة وحافظة ثقافة، فاللغة العَرَبية أوْلى بالرعاية خصوصاً وهي أكثر انتشارا من اللغة الفرنسية، وليست أقل غِنى، ثم إن هذه اللغة الآن في مأزق لا تجِد لنفسها فيه نصيراً إزاء غوائل عصور مُستَجَدَّة - تَستَشعرها فرنسا - وهذا حقها - ولا يَستَشعرها العَرَب، وإذا استشعروها تَرَكوا لغتهم إلى مُنظمة في مُهِمَّتها «حراسة اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية» .

٣ - أنه إذا كانت الدُوَل العَرَبية في حاجة إلى تاثير دَولي نافذ فإن إعادة تنظيم الجامعة العَرَبية - مع قادم جديد يُدير شئون أمانتها العامة - أوْلى منَ زيادة تاثير مُنَظَّمة فرنسية هَمُّها تعويض إمبراطورية مضى زَمَنها بدائرة أخرى للنفوذ على نحو ما فَعَلَت الإمبراطورية البريطانية : «الفرانكوفونية» - مثيل فرنسي «للكومنولث».

....

....

ولعله من المفيد هذه اللحظة أن تكون هناك مراجعة تطلب التَّثَبُّت واليقين :

ـــ نعم لفرنسا من قلب أوروبا.

ـــ ونعم لفرنسا صاحبة التاريخ وشريكة الحضارة.

ـــ ونعم للفكر الفرنسي والثقافة الفرنسية.

ـــ ونعم لفرنسا جواراً شمال البحر الأبيض.

لكن فرنسا التي تَقصد التعويض عن الإمبراطورية مَسألة أخرى !

....

....

ويقال - ضمن ما يُقال - أن هذه القمَّة «الفرانكوفونية» القادمة قَصد مَقصود لدَعم لبنان - البَلَد المضيف لها.

ثم إن ترتيبات القمَّة قاربت أن تكتمل ويَصعُب الرجوع عنها أو إلغاؤها.

لكنى أجازف وأتَجاسَر على سؤال :

«ألا يُمكن أن تكون القمَّة القادمة (في بيروت - أكتوبر ٢٠٠١) - تَجَمُّعاً لأصدقاء لبنان وأحبابه يَتَنادون إلى الإحاطة به عرفاناً بقيمته وفضله (حتى على اللغة العَرَبية والثقافة العَرَبية)؟ - وأليس واردا أن لبنان هذه اللحظة يحتاج عالما يحرسه بأكثر مما تحتاج اللغة الفرنسية إلى حارس أفريقي أو عربي؟- ثم ما الذي يمنع أن يتحول مؤتمر أكتوبر القادم في بيروت على مستوى القمة، إلى تجمع من أجل لبنان وحوله وتكون إدارته وتنظيمه - جهدا مشتركا بين منظمة «الفرانكوفون»، وجامعة الدول العربية، والأمم المتحدة، والمؤتمر الإسلامي، وحتى مجموعة دول الخليج ؟

هل يُمكن؟

ولِم لا؟»

....

....

لسوء الحَظ فإن ذلك السؤال سوف يَظَل بلا إجابة لأن العالَم العَرَبي الآن عَجَلة تَجرى مُسرعَة - ولا تَعرف إلى أين ؟ ■

إن المنافسة الساخنة
أمريكية وفرنسية يمكن متابعتها
باهتمام والاستمتاع بمشاهدتها وعن بُعد،
لكنها في البداية والنهاية صراع لا شأن
للعرب فيه - لا في مجال المصالح.
ولا في مجال اللغة
وحمولاتها الثقافية

من بـــدأ التحـــديـــث:

ماضى تركيا الدفين




كريستوفر دى بيليج

منذ تأسيس الجمهورية التركية على أنقاض الدولة العثمانية سنة ١٩٢٣، وهناك من يشجع مواطنى الدولة الجديدة على قبول رواية شديدة الانتقائية من التاريخ. وطبقاً لهذه الرواية، فإن الدولة العثمانية والجمهورية التركية على عداء متبادل - فالأولى نظام إقطاعى عسكرى يقوم على سياسة إسلامية رجعية، والثانية جمهورية علمانية استمدت مبادئها من مفكرى التنوير التقدميين. والدولة غير ماسوف عليها، بينما تحظى الجمهورية بالتمجيد. وأية صلة بين الاثنتين لا تعدو كونها مصادفة.

ولم يكن التاريخ مرناً فى شىء مرونته فى مقارنة خصال عبد الحميد الثانى، السلطان البارز فى نصف القرن الأخير من الدولة العثمانية، ومصطفى كمال أتاتورك، مؤسس الجمهورية. إذ يحلو للمؤرخين الأتراك وصف السلطان عبد الحميد بالدكتاتور الدموى - القاتل والمصاب بجنون العظمة والرجعى. وصحيح أنه ربما ألغى أبرز نظام دستورى مبكر للدولة، وأن فى عهده لقى آلاف الأناضوليين حتفهم فى ثورتهم ضد المسلمين العثمانيين فى تسعينيات القرن التاسع عشر. وقد وصف أتاتورك عبد الحميد بأنه «شخصية كريهة تدمن اللذة والتسلط»، وقد أسعده خلع السلطان ونفيه سنة ١٩٠٩.

ومنذ ذلك الحين والأتراك الجمهوريون - أو «الكماليون» الذين كان أتاتورك الأب المؤسس لهم - يتبنون الرأى ذاته فى السلطان. لقد ضخموا على سبيل المثال فشل محاولات السلطان عبد الحميد فى الترويج للوحدة الإسلامية. إذ أنشأ خط سكك حديد الحجاز الذى كان ينقل الحجاج الأتراك من اسطنبول إلى الأماكن المقدسة فى الجزيرة العربية التى كانت تخضع للسيطرة العثمانية، إلا أن هذا لم يؤد إلى توحيد المسلمين سياسياً. ومن ناحية أخرى فإن أتاتورك كان يحتقر أبناء دينه من العرب وكان له رأى يزدرى الدين بصفة عامة. وفى الوقت الذى يتهم فيه السلطان بتوجيه العائدات الآتية من ضريبة الإنتاج إلى دائنى الدولة الأجانب، فإنه يحمد لأتاتورك وضع نظام كفء للمحاسبة. وفى عهد السلطان عبد الحميد كان من الواضح أن الدولة تستحق لقب «رجل أوروبا المريض»، الذى جرى العرف على نسبه إلى القيصر الروسى نيقولا الأول فى وقت سابق من القرن، وإن كان هذا غير صحيح. ومن ناحية أخرى، زعمت جمهورية أتاتورك أنها بلد فتى قوى ينمو بسرعة.

ومن الطبيعى أن أكثر من يحتقرهم الكماليون هم الذين يحاولون تبرير أعمال السلطان «عبد الحميد». إن الكماليين يقولون إن الدفاع عن هذا الحاكم الرجعى يرقى إلى مهاجمة أتاتورك نفسه. ولذلك كان المتوقع عند نشر المؤرخ نسيب فضل كساكورك لكتابه «أولو خاقان الثانى: عبد الحميد خان»، وهو السيرة التى كتبها لعبد الحميد، أنه سوف يثير عليه هجوماً مريراً من جانب الصحفيين الكماليين. ووصف الكاتب الصحفى الإسلامى عبد الرحمن ديلبياك عبد الحميد بأنه «أحد أمهر السلاطين».




ومضى سليم ديرينجيل فى كتابه الذى صدر مؤخراً إلى أبعد من ذلك فى تكدير صفو الحكمة الكمالية التقليدية. وديرينجيل، الذى يعمل أستاذاً للتاريخ فى جامعة بوغاز اتشى، وهى أفضل الجامعات العامة سمعة فى تركيا، ليس إسلامياً. وهو يأمل فى أن تنضم تركيا إلى الاتحاد الأوروبى بعد أن منحت وضع المرشح سنة ١٩٩٩. إلا أنه لا يعتقد فقط أن عبد الحميد ومؤيديه بحاجة إلى أن «ينقذوا...من المهاجمين الكماليين»، بل إنه يرى أن عبد الحميد وأتاتورك «تجمع بينهما أمور كثيرة». وفى معرض البحث الواعى العليم غير المتعاطف الذى يتناول الدولة العثمانية خلال عهد عبد الحميد الذى دام ثلاثين سنة، ومحاولات النظام الحاكم للحفاظ على سلطته بين رعاياه اليائسين، يقدم ديرينجيل بديلاً لعالم التاريخ التركى الازدواجى.

ويؤدى كتاب أندرو مانجو الضخم الذى يحظى بالإعجاب Atatürk وظيفة مشابهة، وإن تمت بطريقة مختلفة. ومع أن أتاتورك نفسه لم يظهر بشحمه ولحمه فى كتاب مانجو، فمن المؤكد أن هذا الكتاب سيصبح السيرة المعيارية، لأنه يقدم رواية مفصلة ومقنعة للحياة داخل تركيا فى عهد أتاتورك وقبل مجيئه.

بل إنه رغم إعجاب مانجو بأتاتورك، فإن كتابه هو أكثر سير أتاتورك العلمية التى ظهرت حتى الآن انتقاداً له. ويصف مانجو بالتفصيل سمات أتاتورك التى تحاشى تناولها من سبقوه من كتّاب السير، مثل غطرسته الشديدة، وادعاءاته المبالغ فيها بشأن تغييره للتاريخ، والفظاظة والازدراء اللذين عامل بهما المرأة. ويقول مانجو إن أتاتورك لم يكن فوق شبهة «الحكم بإعدام الزملاء السابقين بما يتنافى مع مبادئ العدالة». وفى بعض الأحيان كان نظامه أقرب إلى الفاشية. واعتمدت آخر سيرة باللغة الإنجليزية لأتاتورك، وهى من تأليف باتريك كينروس، اعتماداً كبيراً على تذكر أتاتورك للأحداث. وهو ما لا يفعله مانجو، الذى سيكون لكتابه أثره على أسطورة أتاتورك.

[١]

فى أواخر القرن الثالث عشر، خرج عثمان غازى القائد التركمانى المسلم على رأس جيش لتوسيع إمارته عند الحدود الأناضولية على حساب الإمبراطورية البيزنطية، التى كانت فى سبيلها إلى الانهيار وكانت تحكم جزءاً كبيراً من تركيا واليونان الحاليتين من القسطنطينية. (كانت تربط عثمان قرابة بعيدة بالأتراك السلاجقة الذين كانوا يسيطرون على أجزاء من آسيا الصغرى منذ القرن الحادى عشر). وخلال ثلاثمائة سنة، قضى من خلفوا عثمان على البيزنطيين الأرثوذكس اليونانيين وحولوا القسطنطينية إلى أعظم مدينة مساجد فى العالم. فقد حولوا إقطاعية عثمان إلى دولة دينية رفيعة الثقافة ومتعددة الأعراق تتسم بالتسامح بصورة عامة مع رعاياها من غير المسلمين، إلا أنهم تعهدوا كذلك بالجهاد ضد الكفار الذين فشلوا حتى ذلك الوقت فى إخضاعهم. وامتد نفوذ الدولة العثمانية من الدانوب إلى الفرات، وعلى امتداد جزء كبير من ساحل البحر المتوسط الجنوبى.

كما سيطرت الدولة العثمانية على العالم الإسلامى. ولكى يعزز العثمانيون مطالبتهم بزعامة المسلمين، ادعوا سنة ١٥١٧ أن آخر الخلفاء العباسيين أوصى السلطان سليم الأول على الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة. ورغم الشك فى صحة هذه القصة، فقد اعترف ملايين المسلمين فى الشرق الأوسط وفى غيره بالسلطان خليفةً للمسلمين. وأعلن السلطان سليمان القانونى - الذى وسع حدود الدولة إلى أقصى مدى لها:

أنا زعيم أمة محمد. تصحبنى قدرة الله ومعجزات محمد. أنا سليمان الذى يرفع اسمه فى الخطبة فى مكة والمدينة. أنا الشاه فى بغداد، والقيصر فى الأراضى البيزنطية، والسلطان فى مصر.

وعلى العكس من الأملاك الاستعمارية فى غرب أوروبا، كانت الدولة العثمانية إمبراطورية قومية فى معناها الأوسع وحسب. ففى زمن محمد الفاتح، الذى استولت قواته على القسطنطينية سنة ١٤٥٣، كانت الأفكار الخاصة بالخلفية العرقية تطغى عليها الالتزامات العمومية المفروضة على الغازى (المقاتل فى سبيل الله). ويقول خليل انشنالك، وهو أشهر من يرجع إليهم بشأن الدولة العثمانية فى تركيا: «كان الجهاد والاستعمار هما الأساس الديناميكى فى الفتوحات العثمانية». وهناك القليل من الأدلة على أن محمداً كان يفكر فى نفسه باعتباره تركياً، ذلك أن هذه الكلمة كانت تستخدم فى ذلك الوقت استخداماً هجائياً، وكان استخدامها ضئيلاً جداً فيما يتصل بالناحية العرقية. وصارت الكلمة لدى مسيحيى أوروبا الذين لم تخضعهم الدولة العثمانية، مرادفة لكلمة مسلم. وعلى التراب العثمانى، كانت «تركى» تعنى شيئاً أشبه بالقرع.



وبالنسبة للغريب الذى يألف الطبيعة العنصرية للاستعمار الأوروبى، فإن ما

1- The Well-Protected Domain,
Ideology and legitimation of Power in Othoman Empire, 1876-1909
(الأيديولوجية وشرعية السلطة فى الامبراطورية العثمانية ١٨٧٦-١٩٠٩)
By Selim Deringil
IB Touris, 1999, 272pp.

2- Atuturk: The Biography of the Founder of Modern Turkey
(أتاتورك.. سيرة حياة مؤسس تركيا الحديثة)
By Andrew Mango
Overlook Press, 2000, 539pp.

3- A Middle East Mosaic
(فسيفساء الشرق الأوسط)
By Bernard Lewis
Random House, 2000, 512pp.

العثمانيون أم أتاتورك؟

كمال أتاتورك

السلطان عبدالحميد

يجذبه إلى تلك الدولة هو عدم اهتمام العثمانيين بالخلفية العرقية. وكان ذلك التسامح خروجاً عن الفصل العنصري للمسلمين غير العرب في ظل الخلافة العربية المبكرة، وكانت له منافعه العملية. فكثير من أطفال الرعايا المسيحيين، وخاصة من يعملون بالزراعة، جندتهم الدولة وكانوا بمثابة أشخاص متحمسين دخلوا في الإسلام في القصر وفي الحرملك، كما كانوا أفراداً في الإنكشارية - وهي أول جيش عامل في أوروبا. وحظيت هذه التركيبة، التي تجمع بين التحول الديني والتعاون من أجل الخدمة العامة، بولاء الشعوب التي فتحت بلادها. كما أنها حالت دون ظهور طبقة أرستقراطية راضية عن نفسها، وجددت طاقة الطبقة الحاكمة. وكان وزراء محمد الفاتح الخمسة من العبيد السابقين الذين جندوا لخدمة السلطان.

وبالإضافة إلى انفتاح الدولة العثمانية على الاختلاف العرقي، فقد كانت في الوقت ذاته متسامحة نسبياً مع الأقليات الدينية - وهو التسامح الذي يأمر به القرآن، وبات واقعاً عندما برز السلطان حامياً لملايين المسيحيين الأرثوذكس في أنحاء البلقان. وعندما فتح السلطان بايزيد الثاني حدود الإمبراطورية أمام اليهود المطرودين من أسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر، كانت تلك اللفتة منه تنم عن الحرص وبعد النظر، وإلى جانب كونها لفتة إنسانية؛ فإن ذريتهم ستساهم في يوم من الأيام مساهمة كبيرة في خزانة الدولة. وأظهر تعداد ١٨٩٣ للدولة (التي تقلص حجمها في ذلك الوقت) أن من بين السبعة عشر مليون عثماني المسجلين - وربما كان الرقم الحقيقي أعلى من ذلك بكثير - كان هناك حوالي خمسة ملايين ما بين مسيحي ويهودي. وفي اسطنبول نفسها، لم يكن عدد المسلمين يزيد على ٥٠ بالمائة من السكان.

وفي نهاية القرن السابع عشر، اجتمع التوسع التجاري الأوروبي والتقدم التكنولوجي مع سوء الإدارة الاقتصادية العثمانية والنكسات العسكرية والدبلوماسية لتحول جميعها دون المزيد من نمو النفوذ العثماني. وقد تداعت الدولة تحت عدم كفاءة إدارتها، وعدم أهلية الكثير من سلاطينها، وعدم مسايرة جيشها للعصر. وفي الوقت الذي تولى فيه عبد الحميد الحكم سنة ١٨٧٦، كان العثمانيون يعتمدون دبلوماسياً واقتصادياً على القوى الأوروبية الكبرى. وكانت الشعوب الخاضعة لهم تطالب بالاستقلال، متأثرة في ذلك بالحركات القومية التي ظهرت في أنحاء أوروبا. وعندما دخل أتاتورك في خدمة عبد الحميد ضابطاً صغيراً في الجيش، كان بقاء الدولة يعتمد على التلاعب بالخصوم داخل العالم المسيحي الأوروبي، حيث سعى السلطان إلى تأليب كل من الفرنسيين والبريطانيين والروس والألمان على بعضهم البعض. وكثيراً ما كان ينجح في مسعاه.



[٢]

ولد مصطفى كمال أتاتورك في سالونيكا الخاضعة للعثمانيين عام ١٨٨٠ أو ١٨٨١ في جو سياسي عقيم. وقد أمضى فترة تعليمه



اعترف ملايين المسلمين في الشرق الأوسط وفي غيره بالسلطان خليفة للمسلمين. وأعلن السلطان سليمان القانوني - الذي وسع حدود الدولة إلى أقصى مدى لها: أنا زعيم أمة محمد. تصحبني قدرة الله ومعجزات محمد. أنا سليمان الذي يرفع اسمه في الخطبة في مكة والمدينة. أنا الشاه في بغداد، والقيصر في الأراضي البيزنطية، والسلطان في مصر

العسكري وسط الكآبة والهزيمة. فقبل الحرب العالمية الأولى شكلت الجبل الأسود وصربيا وبلغاريا واليونان تحالفاً عسكرياً، لتنهي بذلك السيطرة العثمانية على البلقان إلى الأبد. وبعد أن تحالف العثمانيون مع الألمان أثناء الحرب، كانوا يأملون في وقف التوسع الروسي، واستعادة الأراضي التي فقدوها في البلقان. وأخيراً كان أملهم مع استمرار الحرب هو خلق إمبراطورية تركية جديدة في وسط آسيا. ولكن ما حدث هو أن المسئولين العثمانيين شاهدوا رعاياهم وهم يتواطأون مع عدوهم في طردهم من البلاد العربية. واحتلت قوات الحلفاء اسطنبول وشرقي تراقيا وميناء أزمير على بحر إيجة وموانئ جنوبي الأناضول. وما إن حل عام ١٩١٨ حتى لفظ «الرجل المريض» أنفاسه. وكانت القوى الكبرى على وشك اتخاذ قرار بشأن الطريقة التي يتم بها التخلص من رفاته، مع أن السلطة كانت لا تزال في يد الحكومة العثمانية من الناحية الرسمية.

وكان أتاتورك في ذلك الوقت ضابطاً غير معروف على نطاق واسع برتبة لواء سبق له الخدمة بإخلاص في ليبيا، وحارب بامتياز بشكل خاص في صده للهجوم الذي شنه الحلفاء على الدردنيل سنة ١٩١٥. إلا أن أتاتورك كان طموحاً ومتشبثاً بآرائه. وكان يكره تأييد تركيا لألمانيا في الحرب العالمية الأولى. وبدلاً من أن ينتظر نتيجة المفاوضات بين ممثلي الشقيق الأصغر للسلطان عبد الحميد، السلطان محمد السادس وحيد الدين، والحلفاء، شرع في تنظيم المقاومة في الأناضول. ولم يكن تحدي أتاتورك في «حرب الاستقلال» التي شنها للمحتلين البريطانيين والفرنسيين واليونان والإيطاليين وحسب، بل تحدى كذلك النظام العثماني الذي استسلم استسلاماً مخزياً.

وأظهرت معاهدة ١٩٢٠ التي عقدت في سيفْر أن أتاتورك كان حكيماً في توجيهه ضربة إجهاضية. فقد أشار الحلفاء في سيفْر إلى أنهم سيقبلون إنشاء دولة كردية وأخرى أرمينية في الأناضول، على أن تستولي اليونان على أزمير وما حولها. ووقعت الحكومة التركية على المعاهدة، مما فتح ثغرة أمام أتاتورك يناشد من خلالها المسلمين الأتراك في الدولة، الذين وعدهم بألا يقسَّم وطنهم الأناضولي. ومن أنقرة، التي أقام فيها نظاماً حاكماً منافساً لذلك الذي في اسطنبول، رفض المجلس القومي الأعظم، وهو برلمان أتاتورك الجديد، معاهدة سيفْر وأعلن أن من وقعوا عليها من الأتراك خَونة. وبدعم من تركيبة غير محتملة تضم أشباه من القوميين الأتراك، والملكيين، والقتلة، شن أتاتورك حملة عسكرية لطرد الغزاة.

وبعد عامين من الكفاح ضد ما اعتبرها كثيرون صعاباً لا سبيل للتغلب عليها، حقق أتاتورك هدفه. فقد ألقى باليونانيين في البحر عند أزمير، ونصت شروط الهدنة على انسحابهم من تراقيا؛ كما سحب البريطانيون والفرنسيون والإيطاليون قواتهم كذلك. وكانت معاهدة لوزان في سنة ١٩٢٣ انتصاراً لأتاتورك. وإلى جانب محو مهانة سيفْر، قدمت المعاهدة اعترافاً دولياً بحكومته وبالجمهورية الجديدة التي ظلت حدودها قائمة حتى يومنا هذا، مع بعض التعديل الطفيف. ورفضت مطالب الأكراد والأرمن.



كان ما أنجزه أتاتورك عظيماً من النواحي العسكرية والسياسية والدبلوماسية؛ فقد نجح في القضاء على الإمبراطورية متعددة القوميات، حيث صورها على أنها تقوم على مفهوم عاطفي عفى عليه الزمن. وما إن انتهت حرب الاستقلال حتى بات واضحاً أنه لن يُسْمَح بعد ذلك بتنوع الأناضول الديني والعرقي. فقد برزت هوية تركية من الصراع العرقي، وخاصة الصراع بين الأتراك والأرمن، الذين لقي حوالي نصف مليون منهم مصرعهم أثناء الإبعاد والمذابح سنة ١٩١٥، وصار مسلمو الأناضول ينظرون إلى المسيحيين الأرمن والمسيحيين بشكل عام على أنهم خونة، واعتبر المسيحيون المسلمين طغاة. وعلى هذه الهوية التركية أقام أتاتورك جمهوريته.

وفي سنة ١٩٢٥ شرع أتاتورك في تبادل بالقوة للسكان بين تركيا واليونان. فقد أرسل ما يربو على المليون أناضولي أرثوذكسي يوناني إلى اليونان، وقطع الرحلة نفسها ٣٨٠ ألف تركي في الاتجاه المعاكس. وعانى كثيرون من المصاعب الجمة، إلا أن هذا التبادل أفضى بعملية التطهير الديني والعرقي إلى خاتمة إنسانية نسبياً. وكان قمع أتاتورك فيما بعد للنزعة القومية الكردية -في جزء منه- رد فعل للطابع الإسلامي الرجعي للثوار الأكراد الأوائل. إلا أنه كان كذلك جزءاً من عملية أكبر للمجانسة تعد حيوية لأمن تركيا. ويقول مانجو: «لم يأت أكبر تغيير في التاريخ الاجتماعي التركي مع إصلاحات أتاتورك، بل سبقها حين غادر المسيحيون البلاد».

وليس مستغرباً أن حرب الاستقلال صارت هي الفصل الأول من التاريخ الرسمي لتركيا الحديثة. فقد خلقت كل من بطولة أتاتورك وخيانة السلطان الظروف المواتية للثورة السياسية والاجتماعية التي تلت ذلك. حيث خرج السلطان من اسطنبول متسللاً على سفينة حربية بريطانية. ولا يمكن ألا يروق هذا لأتاتورك، لأنه زاد من قوة السلطة الأخلاقية التي كان بحاجة إليها كي يقنع الأتراك بقبول إلغاء حكمهم الملكي ثم الخلافة بعد ذلك بعام. وفي سنة ١٩٢٢ اتهم أتاتورك الأسرة العثمانية بالاستيلاء على «سيادة وسلطنة الأمة التركية»، وأضاف «أنهم أداموا هذا الاغتصاب طيلة ستة قرون». وفي وقت لاحق وُصفَ وحيد الدين بأنه «فاسد». وكانت تلك كلمات مريعة؛ وهي تصور ما آل إليه العثمانيون فجأة.

[٣]

وطبقاً لما يقوله سيفكت باموك، الذي شارك في تأليف كتاب مهم عن تاريخ الدولة العثمانية الاقتصادي والاجتماعي، فقد كان هناك «قرار سياسي اتخذه النظام الحاكم الجديد بأن لا تستمد شرعية من الشرعية القديمة... فعن طريق الإساءة إلى الدولة العثمانية وحده يمكنهم خلق جمهورية

جديدة». وأمضى أتاتورك فترة رئاسته في تشجيع شعبه على اعتبار الدولة القديمة استبداداً متخلفاً منعت أيديولوجيته المرشدة - وهي الإسلام - نخبته التركية من مجاراة التقدم التكنولوجي والاقتصادي الغربي - وهو الشلل الذي يمكن علاجه بإصلاحاته المحدِّثة والمعلمنة. وفي كتاب The Emergence of Modern Turkey أيد برنارد لويس أكثر المقولات الأكثر كمالية - وهي أن ثورة أتاتورك كانت تمثل «تحرير آخر الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية».

صحيح أن لويس متعاطف مع أهداف تلك الثورة وأساليبها. إلا أن كتابه The Emergence of Modern Turkey اعترف بأن الدولة الجديدة بدأت في الظهور حتى قبل أن يولد أتاتورك، وبأن أتاتورك أنهى عملية الإصلاحات التي كان العثمانيون يسعون لتحقيقها منذ بداية القرن التاسع عشر. وفي كتاب «أطول قرون الإمبراطورية»، وهو كتاب عن تاريخ الإصلاح العثماني في القرن التاسع عشر، يكرر اتشلبر أورتايل ويشير إشارة واضحة إلى تأثير الدولة العثمانية على النظام الجمهوري. وفي كتابه الأخير، يمضي ديرينجيل بمقولته خطوة إلى الأمام. فهو يقول إن «خيطاً مباشراً يمكن مده من القاعات المذهبة في الباب العالي إلى مبنى البرلمان الآيل للسقوط في أنقرة».

بدأ السلطان محمد الثاني الإصلاحات العثمانية بجد وإخلاص في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، وتم توسيعها بسلسلة من المراسيم الإصلاحية المعروفة باسم «تنظيمات». وشملت تلك الإصلاحات تحديث القوات العسكرية وتحسينات في التعليم. كما علمنت الإصلاحات النظام القانوني الإسلامي علمنة جزئية، وحدت من نفوذ علماء الدين. بل إن التغييرات التي ينظر إليها حالياً على أنها كمالية خالصة، مثل استبدال الأبجدية العربية بالأبجدية الرومانية لكتابة اللغة التركية، وتحديث الملابس، وتحرير المرأة، كانت قد اقترحت أو بدأ العمل بها في عصر الدولة العثمانية. كما أن صحافة الجمهورية وبرلمانها وتقليدها الخاص بالسياسة الحزبية تعود جذورها جميعاً إلى الدولة العثمانية.

ولا ينبغي أن نفزع من أن أتاتورك المصلح استمد أفكاره من نماذج عثمانية. فقد ولد عثمانياً وأمضى بداية حياته العملية في القتال باسمها - سواء أكان يدافع عن الإقليم العثماني في ليبيا ضد إيطاليا في عامي ١٩١١ و١٩١٢، أم كان يقود القوات في غاليبولي سنة ١٩١٥. وحقيقة أنه أمضى عامين في صوفيا ملحقاً عسكرياً وكان متحمساً للثقافة الفرنسية بشكل يعيد إلى الأذهان مهندسي التنظيمات الأساسيين - وجميعهم يتحدثون الفرنسية وخدموا في السفارات العثمانية في أوروبا. واستفاد أتاتورك نفسه في شبابه من استثمار عبد الحميد المفرط في التعليم. وعندما صار رئيساً، اتبع النموذج السلطاني في تجنب الحروب الخارجية غير الضرورية والمكلفة.

هذا كله يثير سؤالاً، وهو إذا كان أتاتورك تكوَّن بصفته عثمانياً، وكانت معظم السياسات التي نفذها من اقتراح من سبقوه من العثمانيين أو أنهم نفذوها تنفيذاً جزئياً، فما هو على وجه الدقة الذي يفصله عنهم؟ لكي نجيب عن هذا السؤال، يجدر بنا استعادة الحجة التي ساقها ديرينجيل بأن أتاتورك وعبد الحميد «كانا سيجدان أن هناك أموراً كثيرة تجمع بينهما». ويتسم تعليق ديرينجيل بأنه مبالغ فيه لوقوعه في خاتمة كتابه، ذلك أنه يدعونا لتخيل استحالة تاريخية مغرية.

لنتصور السلطان الملتحي في قاعة الاستقبال بأحد مقار إقامته في منتزه يلدز، الذي يدفعه خوفه من الاغتيال إلى ألا يغادره إلا نادراً. وكما هو سلوكه مع ضيوفه من غير رجال الدين المسلمين، لا ينهض السلطان العثماني لمقابلة رئيس الجمهورية التركية. ينحني أتاتورك ثم يجلس على مقعد يشير إليه أحد الياوران. إنه حليق الذقن وممتلئ من كثرة شرب الخمر. والواقع أنه يود لو يتناول كأساً من «العرقي» في تلك اللحظة، ولكنه يعلم أنه لا ينبغي له أن يطلبها. وهو يرتدي ملابس رسمية منمقة يتباهى بأن خطوطها جيدة مثل أية ملابس رآها في أوروبا. إلا أن السلطان لا يشعر بالراحة وهو يرتدي معطف الصباح. فالقفطان المطرز الذي كان أسلافه يرتدونه يناسبه أكثر.

غير أن هناك مشكلة وشيكة. فالتركية العثمانية التي يتكلمها السلطان لغة شديدة الرسمية، وزاخرة بالمفردات العربية والفارسية، ويكثر فيه ذكر الله والرسول، وتستخدم الكثير من الصنعة والتلميحات. الرئيس يفهم ما يقال تمام الفهم، بما أنه ولد وتعلم كعثماني، ولكن يبدو أنه يجيب بلغة مختلفة كل الاختلاف. وهناك في عاصمة الجمهورية التركية، أنقرة، يسعى أتاتورك وزملاؤه إلى تطهير التركية من كثير من التأثيرات الفارسية والعربية بقدر الإمكان، حيث يبحثون عن بدائل «تركية» للكلمات «الأجنبية». وعندما يشير السلطان إلى أنه لا يفهم هذه التركية «الأنقى»، يعرض عليه أتاتورك الحديث بالفرنسية أو الألمانية. ويصر السلطان على أي من العربية أو الفارسية. ويستدعي أحد المترجمين.

وبما أن مشكلة الاتصال قد حُلَّت، فبإمكان الرجلين أن يختبرا نظرية ديرينجيل. ورغم ذلك فهما يبدوان وكأنهما ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين. كتاب «روح القوانين» لمونتسكيو، وأوجست كونت، وإتش جي ويلز، والثورة الفرنسية، ومقال بعنوان «هل يمكنك إنكار وجود الإله؟» - يلاحظ عبد الحميد أن كل ما هو غير إسلامي ودنيوي وأوروبي يلفت نظر هذا الرئيس. حتى اسم الجمهورية، تركيا، مأخوذ من الفرنسية Turquie. ويمضي أتاتورك في كلامه ليصف بالتفصيل تمثالاً له مع العديد من زملائه في أنقرة، وقد أتمه منذ سنوات مثَّال نمساوي يدعى كريبل. يهز عبد الحميد كتفيه. فقد حظر السلطان عرض تماثيل له في أنحاء الدولة. ذلك أن هذا مناف للإسلام ويشجع المتآمرين.

ويحاول السلطان أن يعطي الرئيس انطباعاً عما يعتبره عفن أبحاثه الفكرية. وهو يقول إن مهمة المحدِّث الإسلامي هي أن يعيد اكتشاف جوهر الإسلام، الذي يمكن بالضرورة تطبيقه على الحياة الحديثة. كما يقول إن أفضل ما في أوروبا موجود بالفعل في الإسلام. على سبيل المثال، أليست «الديمقراطية» سوى تنويع على الآية القرآنية ﴿وشاورهم في الأمر﴾ - آل عمران ١٥٩»، التي يأمر فيها الله الرسول





بالإضافة إلى انفتاح الدولة العثمانية على الاختلاف العرقي، فقد كانت في الوقت ذاته متسامحة نسبياً مع الأقليات الدينية. وهو التسامح الذي يأمر به القرآن، وبات واقعاً عندما برز السلطان حامياً لملايين المسيحيين الأرثوذكس في أنحاء البلقان. وعندما فتح السلطان بايزيد الثاني حدود الإمبراطورية أمام اليهود المطرودين من أسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر

بمشاورة أصحابه؟ فلماذا نقلد الغرب برعونة، بينما لدى الإسلام الإجابة عن كل أسئلة الإنسان؟

ويقطع صوت الأذان المقابلة قبل أن تتدهور. وعند الباب يقود موظف الياوران الرئيس إلى غرفة صغيرة للصلاة خصصت للضيوف. يشير أتاتورك للرجل بأن يبتعد. إنه يريد العودة إلى مزرعته خارج أنقرة. وبينما يغادر المقر، يقتبس فقرة من إحدى خطبه الأثيرة: «أصدق مرشد لإنجاز كل شيء في هذه الدنيا، ولإقامة الحضارة، وتحقيق النجاح، والاستمتاع بالحياة، هو المعرفة والعلم. والتماس أي مرشد سوى المعرفة والعلم علامة من علامات الغفلة والجهل والانحراف».

إن الفصل بين أتاتورك ومن سبقوه من العثمانيين، حتى من عارض عبد الحميد منهم، يعد فصلاً بين المصلح الذي يدعو للتغيير لظنه أنه سوف يقوي النظام الحالي في آخر الأمر، والثوري الذي لا تعني التغييرات نفسها أي شيء بالنسبة له، ما لم تكن مصحوبة بتبديل لذلك النظام برمته. وأشار برنارد لويس برقة في كتابه The Emergence of Modern Turkey إلى أنه عندما اتجه أتاتورك إلى الحضارة الأوروبية، كان يفهم هذه البديهية أحسن من أي عثماني آخر، «لا يمكن أن يكون اقتراض حضارة ما لممارسات حضارة أخرى محدوداً أو معزولاً... فكل عنصر يؤتى به من الخارج يأتي معه بسلسلة من التبعات».

وكتاب لويس الأخير A Middle East Mosaic موجز لطيف، ولكن لا شكل له، للآراء الشرقية في الغرب والآراء الغربية في الشرق. وهو ينقسم إلى أقسام تحمل أسماء من قبيل «حزمة من الآراء المسبقة» و«الطعام والشراب» و«الفطنة والحكمة» و«النبوءة والإمبراطورية». ومن اللافت للانتباه والمفيد أن تكون بين أيدينا مقتطفات من مذكرات فلوبير بشأن إحدى قوافل الجمال، وملاحظة مارك توين الخاصة بـ«قرية المساكين» في القدس، إلى جانب برقية كارل ماركس المطولة التي بعث بها من لندن عن حرب القرم، وتوجيهات من العراقيين والإيرانيين والمصريين عن كيفية التعامل مع الجواسيس. ويبدو أن تعليقات آتشيسون على مُصَدَّق، رئيس الوزراء الإيراني، تأسف أسفاً ضمنياً على الدور الذي قامت به أمريكا في خلعه سنة ١٩٥٣:

ربما أبطأنا في إدراك أنه في المقام الأول إيراني ثري ورجعي ذو عقلية إقطاعية تحركه كراهية متعصبة للبريطانيين والرغبة في طردهم وطرد كل أعمالهم من البلاد، بغض النظر عن ثمن ذلك. لقد كان ممثلاً عظيماً ومقامراً كبيراً.

إلا أنه من الصعب أن نحدد ما الذي يود لويس أن يخرج به القارئ من هذه المجموعة. فقليل من الملاحظات التي ضمَّنها كتابه تبين أي إدراك كبير أو أصالة كبيرة بشأن الفروق بين الثقافات. والمجموعة التي انتقاها لويس، من محاضرات الرحلات والخطابات وغيرها، توضح أكثر

من أى شيء آخر الاحتقار المتبادل والجهل اللذين أوحيا - ومازالا يوحيان - بآراء كل من أبناء الشرق الأوسط والأوروبيين.

[٤]

يرى الزائر العابر أن فكرة فقدان الأب المؤسس لتركيا لسلطته تخالف المنطق والعقل إلى حد ما. فبعد ما يزيد على ستين سنة من وفاته، لم يكن أتاتورك أكثر بروزاً مما هو عليه الآن. فلا يكاد يمر أسبوع دون أن تقيم له إحدى البلديات تمثالاً ضخماً جديداً. كما يعلق موظفو الدولة والمحامون صورته على دبابيس أربطة أعناقهم. ويحيى الساسة، ومنهم أصحاب الآراء التى لا تتفق مع آرائه، ذكراه فى خطبهم. وفى الذكرى السنوية للأحداث المهمة فى حياته (وحياة الجمهورية بالتالى) تتنافس الصحف اليومية مع بعضها فى إبداء الإعجاب به. وتزيّن المبانى العامة بصور ضخمة لأتاتورك السياسى والجندى ومحب الأطفال.

ولا يزال ملايين الأتراك ينظرون إلى أتاتورك باحترام وتبجيل. فلو لم يطرد المحتلين الأوروبيين فى ١٩٢٢ و١٩٢٣، ويقنعهم بالاعتراف بحدود جمهوريته الجديدة فى لوزان، لربما لم يكن هناك وجود لتركيا التى يعرفونها. بل إن معظمهم يشارك أتاتورك طموحه من أجل شعبه - وهو بناء الدولة القومية الحديثة. ورغم قوة الصحوة الإسلامية الحديثة فى تركيا، والآثار المنهكة لمحاربة الثورة القومية الكردية طوال ست عشرة سنة فى الجنوب الشرقى، فإن معظم الأتراك يتبنون مبدأ كمالياً أساسياً، وهو أن بلدهم بلد علمانى يقوم على أسس قومية.

إلا أن اتفاق الأتراك المحدثين مع جوانب رسالة أتاتورك تصحبه كراهية متزايدة لجوها العام. فمن بين الستة «مبادئ الأساسية التى لا تتغير» التى أدخلها أتاتورك فى الدستور، لا يزال واحد منها فقط بلا تغيير - وهو الجمهورية. أما الخمسة الأخرى - وهى القومية والشعبية والدولية والعلمانية والثورية (الولع بالتغيير) - فقد جرى تعديلها. إذ أثارت الصحوة الإسلامية وقوة الوعى العرقى الكردى المستمرة الشكوك فى العلمانية والقومية، فى حين جعل تأثير اقتصاد السوق الخاص بأوروبا والولايات المتحدة - ناهيك عن صندوق النقد الدولى الذى وقّعت تركيا اتفاقية معه سنة ١٩٩٩ - سائر المبادئ غير متماشية مع العصر. والأمر الأكثر أهمية هو أن أعداداً متزايدة من الأتراك مستاءة من إشراف الجنرالات ومن السيطرة عليها بالقوانين الاستثنائية وبنود الدستور.

ولا شك فى أن أسلوب أتاتورك الدكتاتورى كان فى مصلحة تركيا أثناء حرب الاستقلال والفترة التالية لها مباشرة. فمن الصعب رؤية الطريقة التى كان يمكن بها لشخص يراعى المعايير الديمقراطية إقناع القادة والإداريين العثمانيين بتحدى سلطانهم وطرد المحتلين الأجانب. إن أى منهج تشاركى ما كان ليخدم أتاتورك فى مساعيه للسيطرة على الجهازين المدنى والعسكرى اللذين أقامهما فى أنقرة. لقد استغل تلك الهيمنة فى خلع سلطة السلطان، وقمع التمرد على الجبهات العديدة، وإعلان الدولة الجديدة، وطرد اليونانيين. ولم يكن بالإمكان إقامة الديمقراطية بين عشية وضحاها كى تتصدى للتحديات التى واجهها أتاتورك عندما كان يسعى لتولى السلطة.





أن فكرة فقدان الأب المؤسس لتركيا لسلطته تخالف المنطق والعقل إلى حد ما. فبعد ما يزيد على ستين سنة من وفاته، لم يكن أتاتورك أكثر بروزاً مما هو عليه الآن. فلا يكاد يمر أسبوع دون أن تقيم له إحدى البلديات تمثالاً ضخماً جديداً. كما يعلق موظفو الدولة والمحامون صورته على دبابيس أربطة أعناقهم



ومن ناحية أخرى، نجد أن الخمس عشرة سنة التى أمضاها رئيساً لجمهورية دستورية فى وقت السلم موضع قدر أكبر من الجدل. ويقول مانجو: «من الناحية النظرية، انتقلت السيادة من السلطان إلى الأمة، ...إلا أن أتاتورك هو الذى كان يمارسها باعتباره الرئيس. وكان رئيس الوزراء هو وزيره الأول فى كل شيء ما عدا الاسم». ويرى مانجو فى استنتاجه أن أتاتورك كان محقاً فى عدم تخليه عن القيود المفروضة على المعارضة السياسية فى حياته. وهو يقول إنه فيما بين الحربين «لم يكن بالإمكان المحافظة على الديمقراطية فى كثير من المجتمعات الأكثر ثراء والأفضل تعليماً». وللحق، فإن هذه المجتمعات نفسها - وهى فى أغلبها أوروبية - وضعت أنظمة ديمقراطية فعالة، فى حين فشلت تركيا فى ذلك.

بل إنه منذ الهزيمة التى مُنى بها حزب أتاتورك الشعبى الجمهورى فى انتخابات ١٩٥٠ وكانت بداية سياسة التعددية الحزبية، ذكَرت ثلاثة انقلابات عسكرية «تصحيحية» الأتراك باهتمام الجنرالات الخطير بالشئون اليومية. وحالت دون الديمقراطية ضغوط الحرب الباردة، حين كانت تركيا دولة مواجهة لحلف الناتو. وكان ينظر إلى معارضة اليسار على أنها مدمرة. وكان هناك قدر كبير من الفساد فى البرلمان والجهاز البيروقراطى. فقد جرى تعويد الأتراك العاديين على الركوع للسلطة مهما كانت. ولا بد أن أتاتورك يتحمل بعض الوزر فى ذلك. فربما وضع دستوره فى سنة ١٩٢٤، الذى يدعو إلى برلمان يتم انتخابه من خلال حق التصويت للذكور وحدهم، إطاراً للتحول الديمقراطى فيما بعد؛ إلا أن كمال حكم باعتباره دكتاتوراً فعلياً، وكان عدم سماحه للديمقراطية بالانتعاش فى فترة رئاسته بمثابة سابقة تنذر بالسوء. إنه تعليق سيئ على نوعية الحياة العامة التركية أن يظل أتاتورك أهم شخصية فى سياسة البلاد بعد ستين سنة من وفاته.

إن التلاعب بذكراه منظر يتسم بالبشاعة، ذلك أنه يجعله يبدو وكأنه رجل تافه ومنتقم، لا صاحب رؤية كما كان. ويتذكر الجنرالات وكبار الساسة مبدأه الخاص بتركيا الموحدة عندما يلقون القبض على الأكراد، الذين يعرضون مطالب خاصة بالحقوق الكردية، ويدينونهم. واستحضر الجنرالات ذكرى أتاتورك منذ ثلاث سنوات عندما أخرجوا أول حكومة إسلامية فى تركيا من السلطة.

وفى الوقت الذى يدرس فيه الأتراك احتمال أن يتخلوا طواعية عن قدر كبير من سيادة أتاتورك التى حصلوا عليها بشق الأنفس وينضموا إلى الاتحاد الأوروبى، فإنهم يعيدون تقييم التاريخ الكمالى ومعه مواقفهم من الدولة العثمانية. وطبقاً لما يقوله المؤرخ التركى اتشلبر أورتايل، فإن تزايد الاهتمام مؤخراً بالعصر العثمانى مرجعه إلى الرغبة فى اكتشاف «ما هو معنى الدولة العثمانية». وربما يعود بعض من هذا إلى الحنين إلى الماضى؛ فقد كانت الدولة العثمانية، حتى فى مرحلتها الأخيرة، قوة عظمى، بينما تركيا ليست كذلك. وهو فى جزء منه تسجيل نقاط من جانب الإسلاميين الأتراك الذين يحبون أن يثيروا حفيظة العلمانيين بثنائهم على حماس الدولة العثمانية الدينى. إلا أن النتيجة النهائية واضحة؛ فكما يمكن لنا أن نتوقع، سوف يميل التاريخ الكمالى لمصلحة الكمالية، وكلاهما قد أصابه التصدع.



وكانت الغلطة الكمالية الأساسية هى تجاهل المسألة التى يواجهها أى بلد إسلامى يسعى إلى التحول الاجتماعى والسياسى على النمط الأوروبى أو الأمريكى الشمالى. فإلى أى مدى يمكن التوفيق بين شعب من الشعوب، جزء كبير منه من المسلمين المؤمنين، وبين أساليب الحكم والتفكير الغربية؟ ويوحى النجاح النسبى لثورة أتاتورك بأن هذا ممكن، ولكنه شديد الصعوبة. وحتى الآن لم يتحقق الهدف إلا على حساب المُثُل الأوروبية القيمة الأخرى، كالحرية وحقوق الإنسان. وبما أن الأتراك يحلقون تحليقاً مشكوكاً فيه على أبواب الاتحاد الأوروبى، فلا بد أنهم يحاولون العثور على حل أكثر إرضاء لهذا التناقض. وفى إيران المجاورة، حيث الجدل أصعب من أن يتم، يحاول مصلحو الديمقراطية الشيء نفسه.

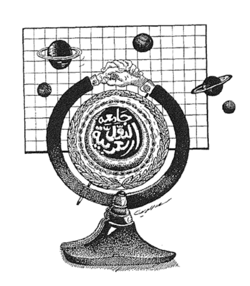
وإذا كان على تركيا أن توفق فى نهاية الأمر بين الجوانب الجمهورية والإمبراطورية وجوانب حكم رجال الدين الخاصة بهويتها، فحينئذ سيكون التاريخ مرشداً مهماً. ويبدو أن أعداداً متزايدة من عامة الأتراك توافق على ذلك. ففى سنة ١٩٩٨ شاركوا فى احتفال على مستوى الأمة بالذكرى الخامسة والسبعين لميلاد الجمهورية. وفى العام الماضى أحيوا ذكرى مرور سبعمائة سنة على ميلاد الدولة العثمانية التى خلعتها الجمهورية وشانت أيديولوجيتها، وإن كان الاحتفال على نطاق أضيق. وليس هذا خروجاً على القياس كما قد يبدو. فداخل معظم الأتراك هناك شيء من أتاتورك وشيء من عبد الحميد، بغض النظر عما تقوله لهم كتبهم المدرسية. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: أحمد محمود

لكى لا يطغى الوطــــنى علـى القـومى

أى مســـــتقبل للجــامعـــة العـــربيــة؟

ناصـــيف حـــتي



تصور الكثيرون أن النظام العربى الذى عـاش حـالة من الفوضى والتفكك والانكشاف الكلى فى التسعينيات قد دخل مرحلة الاحتضار وبقى فقط الإعلان الرسمى عن وفاته. فـأزمة الخليج الثانية كشفت العجز الذى كان يعيشه النظام العربى ودفعت تداعياتها إلى تعميق حـالة «اللانظام» والفوضى. وإذا كـانت للحرب فى الخليج تداعيات سلبية على هذا النظام فإن تداعيات السلام المنقوص فى الفضاء العربى الإسرائيلى قد سمحت ،لا بل شجعت البعض الإسرائيلى والخـارجى على التشكيك بقومية النظام مـعـتـبـرة إياها مسئولة عن التخلف وحاجزًا أمام التقدم وللتذكير فقط دعا شيمون بيريز إلى التخلى عن جـامعة الدول العربية باعتبارها تنتمى إلى الماضى الذى يجب إقفال صفحته والتفكير بصيغ تعاون جديدة. كل ذلك سمح بطرح مشـاريع إقليـمـيـة تقـوم على الجغرافيا الوظيفية بشرط نفى الهوية العربية، وكـانما، كما أشرنا فى مقال سابق، «شرط تحقيق السلام والتقدم والتحديث يتطلب من العرب وحدهم، دون غيرهم، فى عالم يتسم بانتـعـاش الهـويات وتجددها، التـخلى عن هويتهم» وكـانما أيضًا لا تستطيع الجـغرافيا القومية أن تحتضن الجغرافيا الوظيفية التعاونية. وتشكل بالتالى وعاء لهذه الأخيرة دون أن يكون ذلك الوعاء مقفلاً على الخارج فى عصر العولمة أو غير متصالح مع بيئته المباشرة ولكن بالشروط التى يحددها لهذه المصالحة.

إذا كـان السؤال القائم فى التسعـينيات من نوع هل من مستقبل لجامعة الدول العربية يحـمل نوعًـا من التشاؤم الحـتمى فإن بعض المعطيات تسمح بتحويل السؤال إلى: أى مستقبل لجامعة الدول العربية وهو سؤال يحـمل نوعًا من التـفـاؤل المشروط. وإذا رأى البـعض أن العرب عـاشوا لحظات قومية فى الماضى سرعـان مـا انتـهت إلا أن المعطيات الجديدة بما تحمله من تغيير قيمى ومؤسسى تسمح بالحديث عن نشوء نظام عـربى جديد يقترن بولادة جامعة عربية جديدة، ولابد من التذكير بإحدى المسلمات المعروفة على صعيد السياسة الدولية وقوامها التلازم الوثيق بين النظام الإقليمى، فبقدر مـا يكون الأول متطورًا بقدر ما تزداد فعالية الثانى، الأمر الذى يساهم بدوره فى تطوير النظام الإقليـــمى والـعكس صحيح.



المعطيات الثلاثة هى ـ أولاً ـ مأسسة القمة العربية ودوريتها بعد أن بقيت القمة موسمية وعرضة للتجاذبات السياسية وخارج إطار الجامعة منذ خمسين عامًا ونيف، الأمر الذى أضعف القمة من جهة وأبقى الجامعة ضعيفة من جـهة أخرى رغم كل الدعوات التى تمت فى الماضى لإدماج القمة فى الجامعة العربية ويعتبر القرار الصادر عن مؤتمر القمة العربى غير العادى المنعقد فى القاهرة فى ٢١ ـ ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٠، تحولاً نوعيًا وتاريخيًا على الصعيد المؤسسى. صحيح أن استقرار القمة كأعلى سلطة تقريرية لمجلس جامعة الدول العـربية لايعنى النجاح التلقائى فى حل الخلافات العربية لكنه يعنى توفير أفضل الفرص لاحتواء الخلافات أو تجميدها أو تسويتها كما أن دورية القمة تزيد من هذه الفرص وتمنع من تلافى تناول بعض الخـلافـات الرئيسية أو تجاهلها، زد على ذلك أن عنصرى الاستمرارية ومستوى صناعة القرار الجماعى خاصة بالنسبة لطبيعة صناعة القرار فى الدول النامية، تضفيان مزيدًا من المصداقية والجدية على القرارات العربية. كما يلحظ الملحق الخاص لميثاق جامعة الدول العربية بشأن القمة حق الدعوة لدورات غير عادية إذا ما استدعى الأمر ذلك مما يضفى مرونة على دور القمة ولا يجعلها أسيرة قوالب زمنية. ويعطى الملحق هذا الحق بطلب عقد دورات غير عادية يستدعى عقدها موافقة ثلثى الدول الأعضاء إلى الأمين العام وهو ما يعزز دور هذا الأخير فى رصد الأزمات العربية أو العربية الدولية وفى الدبلوماسية الوقائية، من المكاسب الجانبية أيضًا أن القمة توفر الإطار للقاءات تهدف إلى تسوية خلافات أو احتواء أخرى كان من الصعب عقدها خارج إطار هذه الآلية العربية نظرًا لاعتبارات عديدة معنوية وغيرها قد تحكم أطراف اللقاء فى حين توفر القمة المخرج الأمثل لهذه القمم المصغرة ذات الهندسات المختلفة.

وفى سياق تعزيز أجهزة الجامعة العربية، كان مجلس الجامعة قد أقر فى ٢٨ مارس ٢٠٠٠ إنشاء آلية جامعة الدول العربية للوقاية من النزاعات وإدارتها وتسويتها بين الدول العربية التى تعمل تحت إشراف مجلس الجامعة. وستعطى عملية مأسسة القمة دفعًا قويًا لتفعيل هذه الآلية الأساسية فى الدبلوماسية الوقائية.

ثانيًا: انتشار قيم ومفاهيم التعاون الاقتصادى واستقرارها فى اتفاقيات عربية ومن الأمثلة على ذلك إنشاء منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى والعديد من اتفاقيات التجارة الحرة الثنائية، إلى جانب التعاون القطاعى مثلاً فى مجالى الربط الكهربائى والغاز الذى يضم مصر وسوريا والأردن ولبنان وأخيرًا تبنى القمة عقد المؤتمر الاقتصادى العربى الأول فى القاهرة فى نوفمبر ٢٠٠١ بناء على مبادرة جمهورية مصر العربية وتكمن أهمية المؤتمر فى شموليته إذ أنها المرة الأولى التى يشارك فيها إلى جانب الأطراف الرسمية القطاع الخاص والعربى وكذلك الأجنبى والمؤسسات الاقتصادية الإقليمية والدولية، ومشاركة هذه الأطراف ضرورية فى ظل العولمة واقتصاد السوق لإنجاح أهداف هذا المؤتمر. وعلى صعيد آخر خص البيان الختامى للقمة العمل الاقتصادى العربى المشترك بفقرات عديدة وبشكل دقيق وتفصيلى ويعكس ذلك التوجه العربى «الجديد» نحو إيلاء «المسألة الاقتصادية» الأهمية التى تستحقها فى عملية تطوير التعاون العربى المتعدد الجوانب.

ثالثًا: الاهتمام الكبير الذى أولته القمة وبلغة واضحة أيضًا لعملية الإصلاح الشامل للأمانة العامة للجامعة والدعم والصلاحيات التى منحتها فى هذا الخصوص للأمين العام للانطلاق فى ورشة إعادة الهيكلة والإصلاح ويسمح ذلك ليس فقط بإعادة تنشيط دور الأمانة العامة ولكن بالعمل أيضًا على بلورة وظائف جديدة لها وتوسيع وظائف قائمة لتكون «دينامو» أساسيًا فى عمل جامعة الدول العربية. ويعبر هذا التوجه عن أهمية الدور المستقبلى الذى يوليه القادة العرب للأمانة العامة.



إن المعطيات السابقة تدفع باتجاه إحداث المصالحة المطلوبة بين «القومى» و«الوطنى» اللذين يشكلان ثنائية شديدة التعقيد فى النظام العربى وإحدى أهم خاصيات هذا النظام. وتبقى هذه الثنائية من مصادر التأثير الأساسية فى السياسات العربية وفى العلاقات بين المجتمع والدولة من المنظور العربى. فهى قد تكون مصدر توتر وتدخل من جهة كما أنها قادرة أن تكون مصدر تعبئة للإمكانات العربية، وقوة للنظام العربى ودوله من جهة أخرى فيما لو تم خلق تناغم بين طرفى هذه الثنائية.

فلم يعد من الجائز أن يبقى «القومى» غطاء انتقائياً، خاصًا ببعض القضايا أو موسميًا أو الاثنين معًا، لمصالح «وطنية» أو انعكاسًا لمشاعر أو عواطف جامعة، مهما كانت هذه مشروعة لكنها غير قابلة للتحول إلى سياسات عملية وقادرة أن تكون فقط مصدر اضطراب وإحباط وقلق. ولم يعد من الجائز أيضًا أن يبقى «الوطنى» ذا حساسية سلبية مفرطة تجاه الآخر العربى فى عصر لم تعد علاقات الاعتماد المتبادل فيه خياراً وطنيًا بل واقعًا موضوعيًا يزداد رسوخًا يومًا بعد يوم. فالتطلع إلى التقدم يفترض التطلع إلى الاندماج فى فضاء إقليمى أوسع من «الوطنى». يتطلب ذلك كله ونحن على مفترق طرق إحداث تطور ومراجعة فى ثلاثة مجالات رئيسية.

أولها: تفعيل مؤسسات العمل العربى المشترك، الأمر الذى يستدعى بداية البحث بطبيعة عمل القمة فالتنفيذ

(*) الأفكار الواردة فى المقال تعكس وجهة نظر الكاتب ولا تمثل بالضرورة رأى المنظمة التى يعمل بها

والمتابعة والمساءلة الجماعية من العناصر الضرورية لإعطاء مصداقية لمفهوم القمة الدورية ولقراراتها التى يجب أن تكون ذات قابلية للتنفيذ ضمن فترة زمنية محدودة هى المسافة التى تفصل بين القمتين. الأمر الذى يستدعى بداية إنشاء آلية خاصة لذلك: ترويكا وزارية هى فى حقيقة الأمر رباعية تضم وزراء خارجية الرئاسة السابقة والرئاسة الحالية والرئاسة اللاحقة مع الأمين العام للجامعة، تعمل بإشراف رئاسة القمة التى تتشاور دون شك مع الترويكا الرئاسية بشكل خاص فى هذا المجال، من أجل متابعة تنفيذ قرارات القمة على جميع الأصعدة.

وتكون هذه الترويكا بمثابة الجهاز الدبلوماسى والتنفيذى للقمة ولا ضير، تلافيًا لحساسيات قد تنشأ أو لتلافى الالتباس والازدواجية فى بعض المجالات، فى أن تنضم إلى هذا الجهاز رئاسة مجلس الجامعة على المستوى الوزارى وهى رئاسة نصف سنوية، وقد يكون من المفيد التفكير لاحقًا بأن يتولى وزير خارجية دولة رئاسة القمة رئاسة الدورتين الوزاريتين والإبقاء على الترويكا المذكورة سابقًا فى هذا الإطار تلافيًا للاضطراب المؤسسى وتبسيطًا للعمل العربى خاصة أننا أمام جهاز واحد فى نهاية الأمر هو مجلس الجامعة الذى ينعقد على مستويات مختلفة ولا يجوز بالتالى أن تكون هنالك رئاستان مختلفتان تعتبر كل منها رمزًا وتعبيرًا عن المؤسسة العربية ذاتها وفى الإطار العام ذاته.

ومن مهام الترويكا الوزارية دون شك تقديم تقرير سنوى إلى الرئاسة يتعلق بتقويم تنفيذ القرارات التى اتخذتها القمة السابقة لتكون هناك مساءلة جماعية فى بداية كل قمة حول ما آلت إليه قرارات القمة السابقة وهو ما يشجع على تخفيض سقف بعض الأهداف العربية فى صياغة قرارات القمة لتبقى منسجمة قدر الإمكان مع الإمكانيات التى ستوضع فى خدمة هذه الأهداف حتى يمكن تنفيذها وهو ما يشجع أيضًا على الابتعاد عن الخطاب السياسى «العاطفى» والعام والمبهم ومحاولة صياغة مواقف عملية محددة يمكن ترجمتها فى عمل دبلوماسى جماعى.

لابد أيضًا من إحداث تقويم شامل لعمل المنظمات العربية المتخصصة. ينطلق هذا التقويم من ضمن المنظمة ذاتها فى مرحلة أولى ثم يجرى فى إطار ماسسة الجامعة ككل آخذين بعين الاعتبار عنصرين رئيسيين: أولهما: أن على هذه المنظمات أن تتعامل مع الثقافة الوظيفية الجديدة السائدة فى العالم بجميع عناصرها لتوفير خدمة أمثل للمصالح العربية، وثانيًا: نشاط هذه المنظمات يجب أن يندرج دائمًا فى خدمة أهداف الجامعة ككل كما تحدد سياستها القمة فى المجالات التى تخص عمل هذه المنظمات.

ثالثًا: أن المحور الأساسى للإصلاح والتحديث يتعلق بالأمانة العامة للجامعة التى لا يجب أن تكون جهازًا تنفيذيًا «عصريًا» فحسب بل «صندوق أفكار» (Boite A Idees) لأجهزة العمل العربى المشترك لتكون فى موقع المحرك والمبادر وليس فقط فى موقع المنفذ. ومفهوم صندوق الأفكار يتطلب أن تعمل الأمانة العامة أيضًا ضمن صيغ مختلفة ومرنة كجهاز رصد للتطورات والمستجدات على الصعيدين الدولى والعربى تستطيع من خلال ذلك أن تبلور أفكارًا ومقترحات وتصورات عملية للسياسات العربية المشتركة أو أن تقترح سياسات جديدة تستدعيها هذه المستجدات.

ومن أجل تنشيط الأمانة العامة وضخ دماء جديدة فى جسدها الوظيفى من المفيد الأخذ بالعناصر التالية:

أولاً: فيما يتعلق بالتوظيف، البدء من أول السلم الوظيفى أسوة بما يجرى فى وزارات الخارجية وتلافيًا لإحداث أى اضطراب وظيفى أو معنوى فى الهيكل الإدارى، الأمر الذى يحصل عادة من خلال ما يعرف بنظام «الإسقاط بالمظلة» المعمول به فى الأمانة العامة وهو نظام يتعارض مع مفهوم «الجسم الدبلوماسى» إذ قد يدخل شخص فى وظيفة عليا من خلال احتساب فقط لسنوات تخرجه أيًا كانت خبرته فى الخارج ليتقدم على من هو «ابن» المؤسسة وتدرج فيها واكتسب الخبرة التراكمية المطلوبة فى مجالات عملها. ويمكن إبقاء استثناء فى أضيق المجالات فى هذا الباب إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، إن إعمال هذا المبدأ يساهم فى تصحيح الخلل الكبير الحاصل فى الهرم الوظيفى للأمانة العامة.

ثانيًا: ودون المساس بنظام الكوتا أو المحاصصة بين الدول الأعضاء يجب أن يكون الاختيار من خلال امتحانات عامة تقوم على المعايير المعمول بها فى مجمل وزارات الخارجية من خلفية علمية وثقافية عامة ولغات أجنبية إلى جانب العوامل الشخصية التى يفترض أن تتوافر فى كل دبلوماسى أو موظف دولى والتى تختبر فى الامتحان الشفهى على أن يقضى الموظف الجديد دورة تدريبية متنوعة قد تطول لسنة كاملة يتنقل خلالها فى جميع إدارات الأمانة العامة. فأيًا كان التخصص الذى يحمله الموظف الجديد والمجال الوظيفى الذى يتطلع للعمل فيه فإن عمله يتأثر ويؤثر فى جميع القطاعات الوظيفية فى الأمانة العامة، الأمر الذى يستدعى أن يكون على اطلاع ودراية كافيين بمختلف أعمال هذه القطاعات، زد على ذلك أنه فى نهاية الأمر يمثل الجامعة العربية ولا يمثل تجاه الآخرين قطاعًا وظيفيًا معينًا مما يفرض عليه أعباء شمولية التمثيل. وإلى جانب الدورة العملية، يخضع الموظف الجديد لدورة تعليمية تشمل محاضرات وندوات مصغرة تتناول مختلف جوانب آليات العمل العربى المشترك والقضايا والمسائل التى تعنى بهذه الآليات.

ثالثًا: إقرار نظام الدورات التدريبية المتخصصة والعامة لجميع موظفى الأمانة العامة حول مختلف المسائل والقضايا التى يعنى بها عملهم كان تشمل هذه الدورات محاضرات مكثفة إلى جانب تقنية المحاكاة للتدريب على العمل الدبلوماسى.

رابعًا: إن إعادة الهيكلة تتطلب التكيف مع تغير الاهتمامات والأولويات فى العقود الخمسة الماضية ومعها الأدوار والوظائف التى تقوم بها الجامعة أو التى بصدد القيام بها أو تعزيزها. فاللجان المتخصصة والتى تضم أعضاء من إدارات مختلفة (Interdepartmental) حسب المسألة المطروحة والتى تعمل كجهاز متابعة واتصال «وحزام نقل» الأمين العام، تزيد من مرونة وفعالية العمل فى الأمانة العامة. كذلك الأمر بالنسبة لخلق نظام «الملفات» المختصة.

وخامسًا: من الضرورى منح الأمين العام سلطات كافية تسمح بإرساء نظام حوافز مرن يستطيع من خلاله تنشيط العمل بواسطة خلق حالة من التنافس الإيجابى بشكل مستمر ومنع حصول حالات من الركود الذهنى والكسل الوظيفى التى عادة ما تصيب الإدارات الجامدة بالترهل. وأخيرًا لابد من إضافة ملحق إلى الميثاق العام يعطى الأمين العام الصلاحيات التى تعطيها المادة ٩٩ من ميثاق الأمم المتحدة لأمين عام المنظمة الدولية.



ثانى المجالات الخاصة بالمراجعة والتطوير تتعلق بالنظام العربى، وبداية لابد من التأكيد على ضرورة إيلاء الشأن «الداخلى» العربى أولوية مطلقة مقارنة بالشأن «الخارجى» الدولى فلا يمكن أساسًا بلورة سياسة عربية خارجية فعالة إذا لم تستند إلى بيت عربى فى حالة مصالحة مع ذاته وعلاقات عربية عربية مستقرة تسمح بتوظيف الحد الأدنى الممكن من الإمكانات الجماعية خدمة لعلاقات «خارجية» ناشطة تخدم الكل العربى. فإذا كان «الداخل» مصابًا بتناقض وتضارب فى الأولويات وتبعثر فى السياسات، تدخل السياسة الخارجية المشتركة فى عالم المستحيلات أو تصبح من نوع سياسات التمنى والمناشدة التى تفقد كل تأثير والأمثلة على ذلك كثيرة آخرها فى التسعينيات.

وتشكل آلية جامعة الدول العربية للوقاية من النزاعات وادارتها وتسويتها بين الدول العربية أحد أهم المداخل لهذا الدور العربى. ومن الضرورى الإسراع فى تنفيذ القرار الخاص بإنشاء هذه الآلية وربما إحداث تعديلات طفيفة عليه بسبب المستجدات الحاصلة من خلال ماسسة القمة خاصة فيما يتعلق بتشكيل الجهاز المركزى وهو جهاز وزارى.

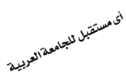
وفى تقديرى أن هيئة الحكماء التى ينشئها هذا الجهاز يمكن أن تلعب أيضًا دورًا استشاريًا بالنسبة للأمين العام خارج الصلاحيات المحددة فى الآلية والخاصة بالنزاعات، لتكون أحد الروافد المؤسسية الرئيسية فى مساعدة الأمين العام على بلورة أجندة تحركه على الصعيد العربى. وقد يكون من المفيد العمل على إنشاء محكمة العدل العربية لتكون الجهاز القانونى إلى جانب هذا الجهاز السياسى فى دبلوماسية احتواء وتسوية النزاعات العربية. فمن أهم أدوار الجامعة العربية العمل على دفع عملية ماسسة مختلف جوانب العلاقات العربية العربية سواء من خلال إنشاء هذه الأجهزة أو قوننة دور الأمين العام ونشر قيم الثقافة المؤسسية العربية للتعاون مع مختلف أوجه العلاقات عن تعاونية وخلافية والتأكيد على منافع هذا المدخل.

تبقى هنالك أيضًا مهمتان أساسيتان للجامعة؛ أولاهما: أن تكون بمثابة حزام نقل للأفكار والحوار بين النظام الدولاتى العربى



من الضرورى منح الأمين العام سلطات كافية تسمح بإرساء نظام حوافز مرن يستطيع من خلاله تنشيط العمل بواسطة خلق حالة من التنافس الإيجابى بشكل مستمر ومنع حصول حالات من الركود الذهنى والكسل الوظيفى التى عادة ما تصيب الإدارات الجامدة بالترهل





(State System) والنظام المجتمعى العربى فى مختلف قطاعاته. وتساهم من خلال ذلك فى تعزيز شرعيات العمل العربى وفى ترشيد هذا العمل من جهة وتعبئة الإمكانات والموارد العربية من جهة أخرى لدعم هذا العمل العربى. وللجامعة أن تنشط فى إنشاء «لوبيات» لها فى الدول العربية من جمعيات أصدقاء للجامعة أسوة بها هو قائم بالنسبة للأمم المتحدة. تعمل هذه الجمعيات فى تدعيم هذا الحوار الذى أشرنا إليه ويكون دورها مكملاً لدور الجامعة. ثانى هذه المهام: وهى منبثقة عن الأولى، قوامها أن تنشط الجامعة بواسطة الأمانة العامة والمنظمات المتخصصة على دعم وتعزيز دور الهيئات غير الحكومية فى مختلف القطاعات وإحداث ربط بينها وتشجع انشاء مجتمع مدنى عربى من قوى وقطاعات ناشطة ذات اهتمامات ومصالح «عربية»، ولا داعى للتذكير بوجود علاقة جدلية «إيجابية» بين مجتمع مدنى إقليمى حيوى وتنظيم إقليمى ناشط وفعال. فالتجربة الأوروبية خير مثال على ذلك. خلاصة القول أنه بقدر ما تنجح الجامعة فى الإسهام فى مأسسة العلاقات العربية العربية والإسهام فى خلق مجتمع مدنى عربى بقدر ما تنجح فى تطبيع العلاقات العربية العربية وإرسائها على قواعد ثابتة وتقاليد مستقرة وهى شروط ضرورية لتثمير الإمكانات العربية وتعظيمها.

ثالث مجالات المراجعة والتطوير يتعلق بالخارجى أو الدولى، وبداية لابد من التأكيد على الصعيد المفهومى أن المقصود بالسياسة الخارجية للجامعة العربية هى السياسة المشتركة وليس الموحدة إذ أن هذه الأخيرة من الصعب تحقيقها مادمنا نتحدث عن دول لها أولويات مختلفة، والسياسة المشتركة تعنى تحديد مساحة التوافق بين الدول الأعضاء فى الجامعة والعمل دائمًا على توسيعها والبناء عليها.

من ينظر إلى العلاقات العربية المشتركة مع الخارج يلاحظ بسرعة أن بعض هذه العلاقات التى شهدت ازدهارًا ولو نسبيًا فى الماضى قد أصيبت بالبهتان والتهميش والترهل وأننا مازلنا نردد بشكل تلقائى ودورى بضرورة العمل على إحياء هذه العلاقات التى توقف بعضها لأسباب سياسية مثل الحوار العربى الأوروبى والتعاون العربى الأفريقى كما أن هنالك علاقات يفترض أن تكون على درجة عالية من الأهمية لم ننشئها أو لم نهتم بإنشائها أو قد سبقنا المجتمع المدنى العربى إلى ذلك مثل العلاقات التى يجب أن تقوم مع دولتى الجوار إيران وتركيا اللتين نرتبط معهما بعلاقات استراتيجية وحضارية أيًا كان الوضع السياسى الذى تعيشه تلك العلاقات، وقد جرت حوارات أكاديمية وفكرية عربية تركية وعربية إيرانية ولم يحدث شىء بعد على الصعيد الرسمى وهذه من المهام الأساسية الملقاة على عاتق الجامعة.

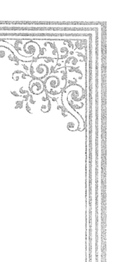


والمطلوب فى تقديرى وقفة مع الذات هدفها - أولاً - بلورة تصور يتعلق بالعلاقات من «حوارات» وشراكة استراتيجية بمفهوم الشمولية والاستمرارية والتنوع التى على الطرف العربية، جامعة الدول العربية وثانيًا: بعد تحديد هذه الأطراف، إيجاد «مجموعات تفكير» متخصصة كل منها فى إحدى هذه العلاقات المعطلة أو المعلقة أو المنشودة. تضم كل من المجموعات خبراء تختارهم الدول وخبراء يختارهم الأمين العام لإحداث تقويم كلى للعلاقات المعنية من خلال استخلاص دروس الماضى ومحاولة تحديد الجوانب الممكنة لهذه العلاقات ونقاط الالتقاء والاختلاف المحتملة ومحاولة استكشاف وفهم المتغيرات الحاكمة عند الطرف الآخر لعلاقاته العربية لتشكل هذه الأفكار والتصورات مادة لاتخاذ القرار الرسمى بإعادة صياغة العلاقات مع أفريقيا ومع أوروبا مثلاً على قواعد ستكون دون شك مختلفة جذريًا عما كان قائمًا فى الماضى. كما أنه من المفيد البحث فى إقامة حوارات استراتيجية على الصعيدين الرسمى وغير الرسمى ولو برعاية رسمية مع القوى الكبرى. وهنالك حوار قائم مع الصين الشعبية وبناء على مبادرة صينية أساسًا ولو أنه بحاجة لتنشيط أو إعادة تصويب لتصبح هذه الحوارات المتغيرة بأشخاصها تقليدًا راسخًا فى العمل العربى المشترك وتؤسس منتديات لها. وعلى الصعيد الخارجى أيضًا هنالك الجانب الإعلامى الاستراتيجى وهو جانب يعيش حالة من الإهمال والقصور. فبقدر كون الإعلام المباشر الذى يقوم على نقل المعلومات والمواقف ضروريا ومفيدًا إذا ما جرى تلافى المنطق الإعلانى والتبسيطى والدعائى، بقدر ما أن المطلوب التركيز على الإعلام الثقافى. وهذا الأخير استراتيجى الأفق وشمولى الأبعاد، إذ يعنى بتغيير الصور والمدركات الحسية التى يحملها الغير عن «العرب» وقيمهم وقضاياهم ويكون ذلك من خلال العمل على تقديم صورة حقيقية عن الجانب المطروح لكنها تضع الأمور فى نطاقها التاريخى السوسيولوجى مثلاً مما يسمح بفهم السلبيات فى إطارها الصحيح متى وجدت وتقدير الإيجابيات.

ويمكن للجامعة العربية أن تعمل الكثير فى هذا المجال فى عصر ثورة الاتصالات من خلال آليات مختلفة مثل الندوات والمحاضرات وتبادل الوفود والقوافل الثقافية المختلفة على سبيل المثال وليس الحصر. وللجاليات العربية دور أساسى فى هذا المجال فى عصر الهويات المركبة والهجرات المتكاثرة.

ومن الضرورى ربط الصلة مع هذه الجاليات التى لكل منها خاصيتها بسبب عنصرى الجغرافيا والتجربة لكنها تشترك كلها فى كونها مصدر طاقات كبيرة إذا ما أحسن توظيفها تستطيع أن تقوم بدور ناشط لتعزيز علاقات التفاهم بين «العرب» والأوطان التى تحتضن هذه الجاليات. فليس المقترب الموسمى والعاطفى هو القادر بجذب هذه الجاليات بل إن المقترب الثقافى الذى يطمئن هذه الجاليات إلى هويتها المركبة مصدر غنى ومعه المقترب المصلحى هما القادران على توثيق هذه العلاقات.

خلاصة القول أنه بقدر ما يتقدم التعاون فى جميع المجالات الممكنة بقدر ما تكسب السياسات الوطنية شرعيات قومية تعززها وتحتضنها وبقدر ما تكتسب الشرعيات القومية مضمونًا ماديًا قائمًا على المنافع المشتركة والمتبادلة بقدر ما تزداد قوة هذه الشرعيات ومكانتها. وتبقى الجامعة فيما لو نجحت فى هذه المهام، وهنالك مصلحة الجميع فى نجاحها، وإن اختلف مدى استيعاب هذه المصلحة فى لحظة معينة، نقطة التلاقى والتوازن المنشود بين الوطنى والقومى. ■



من رسائل الجاحظ

الجاحظ

هو عمرو بن بحر (٧٧٥-٨٦٨م). ولد ومات فى البصرة من أسرة فقيرة. اضطر إلى احتراف بيع الخبز والسمك إلى جانب مواصلة التعليم فى الكتّاب والمسجد. قصد بغداد حيث حظى باهتمام الخلفاء والوزراء وولاّه المأمون ديوان الرسائل.

اتصل بعلماء الكلام وانضم للمعتزلة، وقد أحاط بمعارف عصره من عربية وأجنبية. ألّف أكثر من ٣٥٠ كتابًا صوّر فيها جميع مظاهر النشاط فى المجتمع الإسلامى. أشهر كتبه «الحيوان» و«البيان والتبيين» و«البخلاء» و«المحاسن والأضداد». وفيما يلى مختارات من رسائله عن الحنين إلى الأوطان والبلاد تحقيق عبدالسلام هارون.

١- الشوق إلى الأوطان والبلدان

إن السبب الذى بعث على جمع نتف من أخبار العرب فى حنينها إلى أوطانها، وشوقها إلى تُربها وبُلدانها، ووصفها فى أشعارها توقُّدُ النار فى أكبادها، أنّى فاوضتُ بعضَ من انتقل من الملوك (فى) ذكر الدّيار، والنّزاع إلى الأوطان، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلده إلى آخرَ أمهدَ من وطنه، وأعمر من مكانه، وأخصبَ من جَنابه. ولم يزلْ عظيمَ الشأن جليلَ السُّلطان، يقود الجيوش ويَسُوس الحروب، وليس ببابه إلا راغبٌ إليه، أو راهبٌ منه؛ فكان إذا ذكر التُّربة والوطنَ:

إذا ما ذكرتُ الثَّغر فاضت مدامعى
وأضحى فؤادى نُهبةً للهَماهِمِ
حنينًا إلى أرض بها اخضرَّ شاربى
وحُلَّت بها عنّى عُقودُ التمائم
وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرضه
وأرعاهُمُ للمرء حقَّ التقادمِ



أفرزت الحركة الوطنية المصرية فى أطوارها المختلفة عددًا من التيارات السياسية المتباينة، التى تصادمت وتحالفت وتلاقت وافترقت، وتقاربت وتباعدت، لكنها شكلت وجدان هذه الأمة على اختلاف توجهاتها، فأضفت عليها ثراء وتنوعا قلما يتكرر فى ظروف أخرى. ومن ثم لم يكن غريبًا أن تولد فى أحشاء هذه الحركة شخصيات وطنية فريدة لعبت أدوارها على مسرح الأحداث السياسية، وتركت بصماتها على الحياة العامة فى مصر. من بين هذه الشخصيات التى ودعها الرأى العام خلال الأسابيع القليلة الماضية بكثير من الأسى والأسف: عادل حسين: المثقف والمناضل الفذ، وشحاتة هارون شحاتة اليهودى المصرى غير العادى. ولاشىء يربط بين هاتين الشخصيتين الفريدتين فى العمل الوطنى والسياسى ربطًا مباشرًا، اللهم إلا أنهما عرفا طريقهما إلى «حزب مصر الفتاة» فى أوائل تفتحهما على العمل السياسى، ولكن فى ظروف وملابسات مختلفة تمام الاختلاف، ثم انضم كل منهما فى ظروف خاصة إلى تنظيمات يسارية.. ولكن سرعان ما تفرقت بهما السبل.

عرف الرأى العام المصرى والعربى خلال السنوات الأخيرة عادل حسين كمفكر ومثقف وناشط سياسى إسلامى بارز فى حزب العمل ورياسة تحرير جريدة «الشعب»، حرك بين صفوفه أمواجًا من الحركة والجدل وقدم إسهامات اقتصادية وفكرية وإسلامية. ثم مضى قبل أن تحسم الظروف مصيره.. وعلى العكس من ذلك لم يعرف الرأى العام الكثير عن شحاتة هارون شحاتة اليهودى الديانة والمصرى المولد والجنسية والذى حافظ على ولائه وانتمائه وهويته لمصر الوطن رغم كل الصعوبات والمواقف التى عصفت به وبكل ما حوله. لكنها أبدًا لم تغير إيمانه العميق بمصريته ولم تدفعه إلى الهروب والهجرة كما دفعت بغيره. وبقى حتى اللحظات الأخيرة من حياته وبعد موته يضع إنسانيته ومصريته فوق كل انتماء دينى. ليقدم بذلك نموذجًا فريدًا للإنسان المصرى الذى وقف ضد العنصرية والتعصب الدينى بكل ذرة فى كيانه.

ومن هذا المنطلق تقدم «وجهات نظر» صورة شخصية لحياة كل منهما ودوره فى العمل الوطنى، تكريمًا وتقديرًا لنوع فريد من العطاء.

المحرر

فى تاريخ الوطن شخصيات تلعب دورها وتمضى فى طريقها فلا تترك أثرًا ينبئ عن وجودها، وشخصيات أخرى تفرض نفسها بإلحاح مخلفة وراءها آثارًا يدور الجدل حولها، وعادل حسين المثقف والمناضل الفذ ينتمى إلى النوع الثانى من الشخصيات العامة بفضل ما تركه للثقافة العربية المعاصرة من فكر جدير بالاهتمام، وما لعبه من أدوار فى إطار الحركة الوطنية المصرية

عادل حسين ومأزق المثقف الوطنى

رءوف عباس

عرفت عادل حسين - أول ما عرفته - من عمله الرائع «الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية» الذى صدر عام ١٩٨١ وكان يباع سرًا في القاهرة، ويمثل موضوع الساعة فى حوارات المثقفين، وكنت أتحدث مع الصديق السيد يس عن تلك الدراسة الهامة، فإذا بعادل حسين يدخل علينا مكتب السيد يس بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، أحسست خلال الحديث أنى أعرفه منذ سنوات، فقد كان (رحمه الله) يمتاز بشخصية آسرة، ويتمتع بقدرة متميزة على الحوار والجدل. وتواعدنا على اللقاء فى بيته بمصرالجديدة، وتصادف أن كانت هذه الزيارة (التى حددنا موعدها سلفًا) بعد اغتيال السادات بحوالى أسبوع، وبالطبع كان حوارنا الذى دام نحو الثلاث ساعات حول هموم الوطن فى تلك المرحلة الدقيقة من تاريخه. ورغم متابعتى لكتاباته، لم ألتق به إلا بعدما حسم اختياره بالانضمام إلى حزب العمل ورئاسة تحرير «الشعب»، وكان ذلك فى مناسبة اجتماعية ببيت أحد الأصدقاء، وأذكر أنه تقبل بصدر رحب نقدى الشديد لأسلوبه فى صياغة مقالاته التى كان ينهيها - عندئذ - بعبارة «الله أكبر والعزة للإسلام» مهما كان موضوع المقال، فذكرته بما قاله مصطفى النحاس باشا لأخيه أحمد حسين عندما عرض عليه نسخة من برنامج «مصر الفتاة» يتصدرها شعار «الله - الوطن - الملك» فقال له النحاس إن ذكر «الله» فى مطلع بيان حزبى ليس إلا شعوذة، وقلت لعادل - يومها - أخشى يا صديقى أن يفهم من عبارتك أنك لجأت إلى نفس الشىء، ورغم محاولته الدفاع عن وجهة نظره، فوجئت باختفاء العبارة التقليدية من مقالاته التالية.

ومضت بضع سنوات ثم التقينا بصفة شبه منتظمة بصالون أنور عبدالملك، وكانت لعادل حسين تجليات لافتة للنظر فى الحوارات التى كانت تدور بين رواد الصالون من المناضلين الماركسيين القدامى والناصريين والقوميين، وكان البون شاسعًا بين ما يطرحه عادل من أفكار فى جلسات صالون أنور عبدالملك وما نقرأه له على صفحات «الشعب»، فقد كان إطار فكره فى تلك الدائرة المغلقة قوميًا جدليًا يشى بتأثره العميق بالفكر الماركسى، تحس عندما تسمعه ثم تقرأ مقالاته بالشعب التى تبنى فيها أكثر اتجاهات التيار الإسلامى تطرفًا، بالحيرة الشديدة لهذه القدرة الفائقة على الجمع بين الأضداد، فشتان ما بين أطروحاته الفكرية فى صالون أنور عبدالملك وبين الأسلوب الديماجوجى الذى صاغ به مقالاته فى الشعب، ولا نستطيع أن نجد تفسيرًا مقنعًا لذلك إلا فى إطار مأزق المثقف الوطنى الذى يشغله الهم الوطنى العام: الاستقلال الوطنى، والتنمية التى تحقق قدرًا معقولاً من العدالة الاجتماعية، والحفاظ على الهوية القومية، ويسعى - فى نفس الوقت - إلى حشد الجماهير وراءه لتحقيق ما يتمناه لوطنه وأمته، فيستخدم خطابًا يدغدغ عواطف الجماهير قد يبعده كثيرًا عن الهدف الذى جعله يسعى لحشد الجماهير من أجله.

ولد عادل حسين فى ٢٩ من نوفمبر ١٩٣٢ لأسرة تنتمى إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة التى كانت قطب الرحى فى الحركة الوطنية المصرية، وقدمت لمصر معظم قياداتها الوطنية من مصطفى كامل إلى جمال عبدالناصر مرورًا بسعد زغلول ومصطفى النحاس وأحمد حسين وحسن البنا. كما قدمت العناصر الوطنية الفاعلة والمؤثرة فى مختلف التيارات التى عبرت عن الحركة الوطنية المصرية.

كان عادل أصغر أبناء محمود أفندى حسين الذى ورث عن والده مهنة «المباشر» وهى مهنة يتولى صاحبها ضبط حسابات الدوائر الزراعية لكبار الملاك، وكانت حكرًا على الأقباط، ولا يعمل بها إلا عدد قليل من المسلمين. وخلف محمود حسين والده فى عمله بإحدى الدوائر القريبة من بلدته «كفرالبطيخ» بمحافظة دمياط، ولعل كفاءته جعلته ينتقل للعمل ببعض الدوائر الزراعية الكبرى حتى انتهى به المطاف فى دائرة السلطان حسين كامل بالقاهرة حيث استقرت الأسرة قل مولد الابن الأكبر أحمد حسين عام ١٩١١، ونستطيع أن نستنتج أسلوب محمود أفندى حسين فى تربية أبنائه من سيرة ابنه الأكبر أحمد حسين الذى بدأ يهتم بالعمل السياسى منذ كان تلميذًا بالمرحلة الثانوية حتى إذا دخل الجامعة وعمره ١٨ عامًا كان شعلة من النشاط وكان اسمه معروفًا بين الطلاب ثم على المستوى الوطنى بعد تأسيس «مشروع القرش» عام ١٩٣٠، ثم أنشأ «جمعية مصر الفتاة» فى العام التالى، وحولها إلى حزب سياسى عام ١٩٣٣. فسيرة أحمد حسين تشى بالكيفية التى كانت





عادل حسين

أحمد حسين

تقوم بها الأسرة عند تربية أبنائها، وإتاحة الفرصة لهم للانخراط فى العمل الوطنى العام.

وعندما ولد عادل كان شقيقه أحمد حسين يكبره بواحد وعشرين عامًا، وعندما تفتح وعيه فى سنوات الحرب الثانية كان أحمد حسين معتقلاً بناء على طلب الإنجليز من حكومة الوفد اعتقال رموز التيارات السياسية الممالئة للمحور أو الموالية لدوله. وقد تأثر عادل تأثرًا كبيرًا بأخيه أحمد حسين الذى كان له أثره الواضح فى تكوين الوعى السياسى عند عادل، وأصبح شقيقه الأكبر مثله الأعلى الذى يتلمس خطاه، ويسعى دائمًا للاقتداء به، مما كان له صداه فى اختياراته السياسية فيما بعد، بل فى انغماسه الشديد فى العمل السياسى.



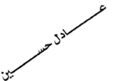
وقد بدأ عادل حسين نشاطه السياسى فى «حزب مصر الفتاة» تحت زعامة أخيه، وكان عمره عندئذ - فيما ذكر لى - خمسة عشر عامًا، أى عام ١٩٤٧ الذى لعب فيه حزب مصر الفتاة دورًا بارزًا - بالتنسيق مع الإخوان المسلمين - لتأييد قضية فلسطين واستخدام العنف ضد الجالية اليهودية فى مصر، ثم تسمى «حزب مصر الفتاة» بالحزب الاشتراكى عام ١٩٤٩ عندما لاحظ أحمد حسين تصاعد الاهتمام بالفكر الاشتراكى بين الشباب الذى كان دائمًا ضالته المنشودة لحشد التأييد الجماهيرى لحركته، وهو نفس السبب الذى دفعه من قبل إلى تغيير اسم الحزب (عام ١٩٤٠) إلى «الحزب الوطنى الإسلامى» عندما أحس أن «جماعة الإخوان المسلمين» قد سحبت جموعًا من أعضاء حزبه إلى حركتها بعد إعلانها النزول إلى ميدان العمل السياسى عام ١٩٣٨، وفى ذلك التغيير والتبديل كان أحمد حسين يسعى لحشد الجماهير وراء حركته، فلا بأس من أن يغير ويبدل فى برنامج الحزب وخطابه السياسى، وقد تأثر عادل - دون شك - بأخيه ومثله الأعلى فى خطابه السياسى فى السنوات الأخيرة رئيسًا لتحرير «الشعب» ثم أمينًا عامًا لحزب العمل. فمن كانت لديه معرفة دقيقة بتاريخ مصر المعاصر يكاد يجد تطابقًا (وليس مجرد تشابه) بين أسلوب الخطاب السياسى لعادل حسين وذلك الذى عرف عن شقيقه الأكبر مؤسس مصر الفتاة وزعيمها.

ولا يستطيع منصف أن ينكر دور أحمد حسين فى تكوين الحس الوطنى عند أخيه عادل، فقد انخرط الأخير فى نشاط الحزب فى أكثر مراحل تطوره راديكالية، فاشترك فى كتائب الشباب التى أعدها الحزب للمشاركة فى الكفاح المسلح فى منطقة القناة عام ١٩٥١، وذاق مرارة السجن لأول مرة عندما اعتقل أحمد حسين وبعض أعضاء حزبه عقب حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢، وكان بين صفوف الحزب حتى قامت ثورة يوليو بحل الأحزاب فى مطلع عام ١٩٥٣، ولعل إلغاء حزب مصر الفتاة أو (الحزب الاشتراكى) كان له تأثيره السلبى على الشاب عادل حسين، جعله يتحفظ تجاه نظام ثورة يوليو، ويختار أن يتابع عمله السياسى فى صفوف «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) وهى المنظمة الماركسية التى تعاونت مع الضباط الأحرار قبل الثورة ثم تبنت موقف الاتحاد السوفيتى منهم بعد قيام الثورة بفترة قصيرة فاعتبرت ما قاموا به انقلابًا عسكريًا فاشيًا لصالح عصبة بنك مصر، أى لصالح الرأسمالية الوطنية. ولم يكن عادل قد بَعُد كثيرًا عن فكر الحزب الاشتراكى الذى تبنى الكثير من الأطروحات السياسية التى قدمها اليسار المصرى فى الأربعينيات.

ويبدو أن الشاب الممتلىء حماسًا للعمل السياسى لم يستمتع بهذا العمل إلا أسابيع قليلة، فقد اعتقل مع بعض نشطاء (حدتو) لمدة قاربت على الثلاث سنوات (١٩٥٣-١٩٥٦) وما كاد ينعم بالحرية ويتابع نشاطه السياسى فى صفوف تلك المنظمة الشيوعية حتى عاد إلى المعتقل مرة أخرى ضمن موجة الاعتقالات الواسعة التى تعرض لها الشيوعيون على اختلاف تنظيماتهم عام ١٩٥٩ واستمر فى المعتقل حتى أفرج عن الشيوعيين عام ١٩٦٤. وقد ساعدت سنوات الاعتقال الطويلة عادل حسين على العمق فى الفكر الماركسى وامتلاك ناصية المنهج الجدلى، كما جعلته يتجه إلى الاهتمام بالاقتصاد اهتمامًا كبيرًا جعله يبارى المتخصصين فيه رغم اتساع الشقة بين دراسته الأصلية (درجة البكالوريوس فى الجيولوجيا) وبين علم الاقتصاد، واستطاع - فيما بعد - أن يقدم للمكتبة العربية أروع ما كتب عن الاقتصاد المصرى المعاصر.

ولا يعنى ذلك أنه قد تبنى الفكر الماركسى تبنى أولئك الذين يقيمون لأيديولوجية ما معبدًا يشتغلون بسدانته، فقد كان أبرز ما امتاز به عادل حسين ديناميكيته وحرصه على الاستقلال الفكرى، فشهدت سنوات المعتقل الأخيرة مراجعة هامة لفكره، كانت التطورات التى شهدتها مصر على يد ثورة يوليو خلال الفترة التى غاب فيها عادل مع رفاقه الشيوعيين وراء أسوار المعتقلات موضع تفكيره ومجموعة من رفاقه فمقولة النظام العسكرى الفاشى الذى استولى على السلطة لصالح عصبة بنك مصر، أثبتت افتقارها إلى المصداقية، فخط التحرر الوطنى واضح وضوح النهار، ودور النظام فى حركة عدم الانحياز لافت للنظر، والإجراءات التى اتخذت على طريق التحول الاشتراكى فى يوليو ١٩٦١ جذبت أنظار عادل وحفنة من رفاقه المعتقلين فتبنوا اتجاهًا انفردوا به بين رفاقهم الآخرين يرى أن فى النظام جماعة اشتراكية يمكن أن تقود البلاد إلى طريق الاشتراكية، خاصة أن ذلك كان يتسق مع الاتجاه الذى شاع فى دوائر اليسار العالمى - عندئذ - والذى قال بوجود طريق غير رأسمالى للاشتراكية تسير عليه نظم الحكم فى البلاد حديثة العهد بالتخلص من ربقة الاستعمار.

وما كاد عادل يسترد حريته المفقودة عام ١٩٦٤ حتى اختار لنفسه توجهًا جديدًا، فقطع روابطه التنظيمية بالشيوعية، وإن ظل يحتفظ بأثر باق لتجربته



الفكرية الماركسية انعكست على منهج مؤلفاته، وأسلوبه في الحوار، وفي ترتيب أولوياته السياسية التي يأتي في مقدمتها الاستقلال الوطني والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وهي جميعًا الثوابت التي دار حولها محور الحركة الوطنية المصرية منذ بدايتها.

عُيِّن عادل حسين بعد خروجه من المعتقل عام ١٩٦٤ صحفيًا بدار أخبار اليوم، واختاره خالد محيي الدين ليعمل معه في سكرتارية مؤتمر السلام إلى جانب رفعت السعيد، لكنه لم يعمر في ذلك الموقع طويلاً لأسباب لا نعرفها وإن كنا نستطيع تفسيرها على ضوء نفوره الدائم من التبعية بمختلف أشكالها.

اختار عادل النضال في حركة القومية العربية تعبيرًا عن اطمئنانه لخط عبدالناصر، كان الاستعمار بمختلف أشكاله عدوه اللدود، وكان نضاله السياسي منذ نعومه أظفاره في صفوف مصر الفتاة وتحت قيادة مثله الأعلى أحمد حسين موجهًا ضد الاستعمار، فكان التوجه القومي بالنسبة له قلعة النضال ضد الهيمنة الأجنبية، وكانت التحولات السياسية والاجتماعية التي قادها نظام عبد الناصر تفي - إلى حد ما - بما كان ينشده من العدل الاجتماعي، ولكنه ظل محتفظًا بموقفه المعارض من ظاهرة القصور في التحول الديمقراطي وإن كانت لا تحتل أهمية بارزة عنده، وهو الذي يؤمن بالدور التاريخي «للزعيم» في قيادة الأمة في مرحلة التحول سعيًا لتحقيق الاستقلال الوطني ودعمًا له، وضمانًا لتحقيق العدالة الاجتماعية. لقد آمن بهذا الزعيم في شخص أخيه أحمد حسين، ثم أصبح مقتنعًا به في شخص جمال عبد الناصر.

وما كاد الرجل يستقر عند توجهه الجديد، يتحمس له، ويسهم فيه بفكره فيما خرج من قلمه من كتابات، حتى جاءت هزيمة يونيو ١٩٦٧، فأصابته بما أصابت به غيره من المثقفين من خيبة أمل، ولكن عادل حسين لم يسمح لتلك الخيبة أن تقوده إلى اليأس بعد ما احتل الكيان الصهيوني خُمس مساحة مصر «سيناء»، بل قام بعملية مراجعة فكرية شاملة قادته إلى معسكر التيار الإسلامي في نهاية المطاف. وكل من اقترب منه واتصل به في السنوات القليلة التي تلت هزيمة ١٩٦٧ يؤكد شواهد تلك المراجعة عنده التي عبر عنها في عمله المهم «نحو فكر عربي جديد، الناصرية والتنمية والديمقراطية» الذي نشر عام ١٩٨٥، وحسم به خياره السياسي الأخير بالانضمام إلى «حزب العمل الاشتراكي».

ورغم أن عادل حسين لم يسجل مواقف سياسية واضحة فيما بين ١٩٦٧ ورحيل عبد الناصر إلا أنه ظل محسوبًا على التوجه القومي الناصري الذي اختاره بعد خروجه من المعتقل عام ١٩٦٤، فناله ما نال أصحاب هذا التوجه من الإجراءات التي اتخذها أنور السادات بعد تصفية ما أسماه بمراكز القوى، فأبعد مع من أبعدوا من الإعلاميين عن مواقعهم، وفضل التوجه إلى بيروت حيث عمل بضع سنوات في مركز دراسات الوحدة العربية وشارك في تحرير مجلته «المستقبل العربي»، ولكن همه الرئيسي كان عملية المراجعة لتجربته الفكرية في التوجه القومي.

وكانت سنوات بيروت - في رأيي - أهم مرحلة في صياغة مشروعه الفكري، فعكف على دراسة ما حدث لمصر من تطورات سياسية قوضت دعائم التوجه القومي، وجرت معه البلاد إلى طريقة التبعية للإمبريالية العالمية، وحققت أهداف الصهيونية، وكانت ثمرة الدراسة عمله الرائع الخالد «الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية ١٩٧٤-١٩٧٩» الذي نشر عام ١٩٨١، وهو الكتاب الذي قال عنه جلال أمين «إن أي عالم اقتصاد يتمنى أن ينسب هذا الكتاب له».

فبعد دراسة دقيقة وموثقة للتحولات التي شهدتها مصر على يد نظام السادات فيما بين تطبيق ما سمي «بالانفتاح الاقتصادي» ومعاهدة السلام مع الكيان الصهيوني، ذهب عادل حسين إلى أن «توازن القوى الدولي فرض علينا أن نخضع لقرارات الدول الغربية المتقدمة صناعيًا، وبالتالي فإن مهمتنا الأولى هي أن يتمكن مجتمعنا من انتزاع حقه في أن ينهض وفق متطلباته واحتياجاته، وأن يجسد هذه الإرادة المستقلة في سلطة سياسية قادرة، تحفز وتنظم القوى الاجتماعية المتطلعة للنهضة الأصيلة، وتقود ما تتطلبه هذه النهضة من تجدد ذاتي ومن تنمية شاملة (تتضمن تنمية اقتصادية مستقلة وتنمية قدرات الدفاع)». ورأى في الهيمنة المتنامية لقيم الحضارة الغربية أداة فعالة لفرض التبعية، مما يفرض علينا أن ننتزع حقنا في النهضة وأن نعمل على إقامة نسق عربي مستقل في مواجهة تحديات التفكك الإقليمي العربي والكيان الصهيوني والنفط والمال النفطي، كما علينا أن نواجه موقعنا من التراث الإسلامي بكل امتداداته في آسيا وأفريقيا وبكل آثاره المباشرة على مضمون حضارتنا.

وعرض عادل حسين لآليات الانتقال إلى التبعية بدءًا باختراق السلطة السياسية وإصدار القرارات المترابطة التي من شأنها تصفية الإدارة الاقتصادية المستقلة، وعودة الإدارة الأجنبية المباشرة كمدخل لإعادة تشكيل البنية وهيكل التنمية، ومن ثم كان انهيار ميزان المدفوعات، وكان الإغراق في الديون المصرفية عملاً مدبرًا. وهنا قدم عرضًا تفصيليًا موثقًا للدور الذي لعبه صندوق النقد الدولي لتحقيق تنازل الدولة المصرية عن صلاحياتها في إدارة الاقتصاد الوطني للجهات الأجنبية، ودور البنك الدولي في تحقيق التوجه الاقتصادي نحو هيكل تابع وبنية تابعة. وأنهى الكتاب بتأكيد أن التحولات التي شهدها الاقتصاد المصري في السنوات الخمسة موضوع الدراسة جزء لا يتجزأ من مفهوم السلام الأمريكي - الإسرائيلي هدفه إبقاء مصر خاضعة وضعيفة، وبذلك يضمن الأمن والتوسع للمشروع الصهيوني.



ما كاد عادل يسترد حريته المفقودة عام ١٩٦٤ حتى اختار لنفسه توجهًا جديدًا، فقطع روابطه التنظيمية بالشيوعية، وإن ظل يحتفظ بأثر باق لتجربته الفكرية الماركسية انعكست على منهج مؤلفاته، وأسلوبه في الحوار

وفي إطار هذا العمل المهم قدم عادل حسين نقدًا لأطروحات الفكر الماركسي والفكر الليبرالي باعتبارهما يعجزان عن تقديم دليل عمل يصلح لمجتمعنا نتخذه إطارًا لمشروع لنهضة عربية مستقلة. ويستشف من هذا النقد تشكيك عادل حسين في صلاحية الفكر الغربي على اختلاف توجهاته للمجتمع العربي وإن لم يذكر ذلك صراحة في هذا الكتاب على نحو ما فعل في كتابه الآخر «نحو فكر عربي جديد»، ولكننا نلمح في استشهاداته رجوعًا إلى مقولات ابن خلدون، وجمال الدين الأفغاني، وبعض ما جاء بكتب التراث الإسلامي، ولعل تلك الاستشهادات كانت أكثر ما استخدمه منها ضعفًا، فقد نسي أو تناسى أن مقولات هؤلاء جاءت في سياق تاريخي موضوعي يختلف تمامًا عن ظروف المجتمع المصري في سبعينيات القرن العشرين، ولكنها - على أية حال - تعطي مؤشرات عن حيرة المؤلف وبحثه الدءوب عن إطار مرجعي إسلامي يعبر عن ثقافتنا ويغنينا عن الحاجة إلى ما هو غربي.

ولكنه عبر عن هذا التوجه بصورة واضحة في البحث الذي تقدم به لندوة «التراث وتحديات العصر في الوطن العربي - الأصالة والمعاصرة» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية وعقدت بالقاهرة عام ١٩٨٣، وكان موضوع بحثه عن الحاجة لمناهج بحث عربية إسلامية في العلوم الاجتماعية» وقد راعني إنكاره التام لمناهج البحث في العلوم الاجتماعية التي نعرفها لأنها غربية على ثقافتنا، وأنها صيغت من أجل إخضاعنا للغرب والهيمنة علينا، وقدم مقترحات فضفاضة لإطار مقترح لما يجب أن تتضمنه مناهج البحث الإسلامية في العلوم الاجتماعية. وأذكر أنه في تعقيبه على المداخلات التي قدمها الحضور على ورقته، وكانت تدور في سياق عدم الحاجة إلى ابتداع «مناهج بحث إسلامية» لأن مناهج البحث المعروفة نتاج للفكر الإنساني الذي ساهم العرب فيه، وأن المخاوف التي أثارها ليس لها ما يبررها، في ذلك التعقيب تمسك برأيه بطريقة خطابية وأعلن أنه نادم لأنه أضاع ما يقرب من الثلاثين عامًا من عمره في «فكر رث».

ومن الطريف أن أحد المشاركين من الإخوان المسلمين انتقد هذا الموقف في حديث جانبي، وأبدى مخاوفه من أولئك الذين يعبرون عن تحولهم الفكري إلى



التوجه الإسلامي بهذا الشكل المتطرف الذي يفوق ضرره ما قد يكون فيه من نفع.



وفيما بين صدور «الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية» وانعقاد الندوة سالفة الذكر، كان وقوع الثورة الإسلامية في إيران قد جذب انظار الكثير من المثقفين، ولكنه اكتسب معنى آخر عند عادل حسين، فهذه ثورة شعبية انتصرت على أعتى النظم الاستبدادية التابعة للغرب، وأذلت «الشيطان الأكبر» أمريكا، وأعلنت عداءها للصهيونية والدعوة للجهاد لتحرير فلسطين. هذه التطورات وما صاحبها من دعاية سياسية إيرانية لمست وترًا حساسًا عند عادل حسين الذي كان قد حسم اختياره الفكري استنادًا إلى عدائه الشديد للغرب الذي يمثل خطرًا شديدًا على الاستقلال الوطني، ويحبط محاولة تحقيق مشروع نهضوي عربي. هذا العداء الشديد للغرب قاد عادل حسين إلى نفي كل ما هو غربي بما في ذلك الفكر الغربي ورغم دعوته اللافتة للنظر إلى ضرورة وضع مناهج إسلامية للبحث في العلوم الاجتماعية، ظل تأثره في كتاباته الفكرية واضحًا بالمنهج الجدلي الماركسي، ويتجلى ذلك بوضوح في كتابه الأخير المهم: «نحو فكر عربي جديد ـ الناصرية والتنمية والديمقراطية» الذي نشر عام ١٩٨٥.

ويكاد الفصل الأول من الكتاب يقدم نصًا للورقة التي تقدم بها عادل حسين إلى ندوة «التراث وتحديات العصر في الوطن العربي» فهو يتناول النظريات الاجتماعية الغربية باعتبارها قاصرة وعاجزة. وقد قدم الكتاب بعبارة لافتة للنظر قال فيها: «إنني منحاز لأمتي العربية ورسالتها الإسلامية» وأنه يؤمن بحقها في إنهاض حضارتها المستقلة (بكافة مكوناتها) ويقف إلى جانب العدل الاجتماعي والمستضعفين. وفي الفصل الأول طالب بعزل النظريات الاجتماعية الغربية خارج إطار «خصوصيتنا التاريخية المتميزة»، ورأى أن العلوم الاجتماعية الغربية كلها «كانت مجرد إجابة على أسئلة أوروبية حديثة» وهي تختلف عن الأسئلة التي يواجهها مجتمعنا من مواقع التبعية والتخلف الاقتصادي ومن ثم نحتاج إلى مدارس تختلف عن مدارسه «حتى نفهم مجتمعنا ومراحله في ضوء عقيدتنا السائدة». ويدعو إلى مشروع حضاري عربي إسلامي مستقل. يستند إلى نظرية مستقلة ومشروع تنموي مستقل نابع من خصوصيتنا التاريخية والاجتماعية والثقافية، والنظرية المستقلة عنده تقوم على الإيمان بالله الواحد الخالق.

وقد أجهد عادل حسين نفسه في البحث عن سند لأطروحته الفكرية الجديدة في كتابات أبو حامد الغزالي وابن تيمية والماوردي والفارابي والرازي وغيرهم. ولا يحتاج القارئ المدقق إلى بذل جهد كبير لاكتشاف أن المؤلف لم يطلع على أي من تلك الكتب التي يستشهد بها للدلالة على صلاحية النظام الإسلامي السياسي لمجتمعنا المعاصر، فشتان بين شروط الإمامة والتزامات الحاكم نحو الرعية في الفقه وبين التطبيق العملي أو ما كان معمولاً به فعلاً، ولو تعمق عادل حسين في قراءة التاريخ الإسلامي لوجد البون شاسعًا بين النظرية والواقع، ولما وجد أحدًا من الحكام يلتزم بالقيود الفقهية، ولصدمه تحول نظرية الحق الإلهي للملوك الموروثة عن البيزنطيين إلى أمر مسلم به على يد العباسيين وغيرهم، وربما تروى كثيرًا في إطلاق أحكامه على هذا النحو.





وعلى كل، تكمن أهمية هذا الكتاب في تعبيره عن الخيار الفكري الأخير لصاحبه، ولا يخالجني الشك أنه لو أتيحت له الفرصة لتأصيل هذا التوجه ربما استطاع أن يقدم مساهمة فكرية مهمة في هذا المجال، ولكنه انخرط بعده في العمل السياسي في صفوف حزب العمل، وإن شئنا الدقة لقلنا إن عادل حسين عاد إلى مصر الفتاة حزبًا ومنهجًا وأسلوبًا للعمل السياسي، عاد إلى طريق مثله الأعلى وقدوته أخيه أحمد حسين.

كان المسرح مهيأ أمامه للعب دور رئيسي في الحزب لعله كان بالنسبة له حقًا مكتسبًا بحكم الإرث، وما لبث أن أصبح الأمين العام للحزب، ولعب دورًا رئيسيًا في ذلك التحالف الذي أقامه مع الإخوان المسلمين وحزب الأحرار لخوض انتخابات ١٩٨٧، على ما في ذلك من غياب للكياسة السياسية التي تميز بها رائده أحمد حسين الذي كان يحرص دومًا على استقلال حزبه عن الإخوان، قد ينسق معهم في مواقف معينة ولكنه يحرص على استقلال حركته عنهم، وكانت النتيجة زيادة نفوذ الإخوان وتأثيرهم على مواقف حزب العمل. أمر واحد سار فيه عادل على درب أخيه أحمد حسين هو ذلك الأسلوب الديماجوجي الذي غلب على الخطاب السياسي في مقالاته التي احتلت مساحة كبيرة من صفحات «الشعب»، وكذلك اتباع أسلوب الإثارة ودغدغة عواطف الجماهير من أجل حشدهم وراء الحزب، وجماهير الحزب التي أراد عادل أن يستقوى بها كانت الجماعات الإسلامية، ولكن الأجنحة الإرهابية منها استلهمت كتابات عادل حسين في الهجوم على السياحة (السياحة حرام) أو الهجوم على بعض الكتاب «الدنيويين» على حد تعبيره باعتبارهم نقيض المتدينين في تحديد الأشخاص الذين تستهدفهم عمليات الاغتيال، لقد دهش عادل حسين حين علم أن قوات الأمن ضبطت مع إحدى خلايا الجماعات الإرهابية مقاله الذي هاجم فيه أحد الكتاب الأقباط ومعه قائمة يتصدرها اسم ذلك الكاتب على رأس المخطط لاغتيالهم، ونفى بحدة علاقته بمثل تلك الأعمال، ولم أملك إلا تصديقه في ضوء معرفتي لنزاهته ونبله، ولكن خطابه الديماجوجي لابد أن يورطه في مثل هذه المواقف. وهو ما كان لا يدركه تمامًا. ولا أدل على ذلك من إثارة موضوع رواية حيدر حيدر «وليمة لأعشاب البحر» وما نتج عنها من آثار سلبية على الحزب والجريدة معًا.

لقد استطاع عادل حسين أن يبعث الحياة في حزب العمل، ولكن شتان بين ما بدأ به وما انتهى إليه الحال. غير أن هذا الجانب من أعمال عادل ربما يطويه النسيان، ولكن يبقى ما تركه من مشروع فكري موضع الجدل وتبقى سيرته نموذجًا فذًا لأزمة المثقف الوطني. ■



من رسائل الجاحظ

٢ ـ في الحنين إلى الأوطان

قالت الحكماء: الحَنين من رقّة القلب، ورقّة القلب من الرِّعاية، والرِّعاية من الرَّحمة، والرَّحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرِّشدة، وطهارة الرِّشدة من كرم المحتد.

وقال آخر: ميلك إلى مولدك من كرم مَحتدك.

وقال آخر: عُسرك في دارك أعزُّ لك من يُسرك في غربتك.

وأنشد:

لقربُ الدار في الإقتار خيرٌ
من العيش الموسَّع في اغترابِ

وقال آخر: الغريب كالغَرْسَ الذي زايل أرضه، وفقد شِربَه، فهو ذاوٍ لا يثمر، وذابلٌ لا يُنضر.

وقال بعض الفلاسفة: فطرة الرجل معجونةٌ بحبِّ الوطن.

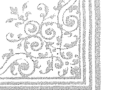
ولذلك قال بُقراط يُدَاوَى كلُّ عليلٍ بعقاقير أرضه؛ فإنّ الطبيعة تَتَطلَّع لهوائها، وتنزع إلى غذائها.

وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها.

وقال جالينُوس: يتروّح العليل بنسيم أرضه، كما تنبت الحبة ببَلِّ القَطْر.

والقول في حبِّ الناس الوطن وافتخارهم بالمحالِّ قد سبق، فوجدنا الناسَ بأوطانهم أقنعَ منهم بأرزاقهم.

ولذلك قال ابن الزُّبير: «لو قَنَع الناس بأرزاقهم قناعتَهم بأوطانهم ما اشتكى عبدٌ الرزق».



مصرى عادى
يهودى غير عادى

شحاتة هارون.. «الآخر»

أمينة شفيق

لكل إنسان أكثر من هوية. وأنا إنسان. أنا مصرى حين يضطهد المصريون. وأسود حين يضطهد السود. ويهودى حين يضطهد اليهود. وفلسطينى حين يضطهد الفلسطينيون

مات شحاتة هارون شحاتة سلفيرة كما عاش سنوات عمره الإحدى والثمانين، محاطا بزوبعة وتوابع متتالية لهذه الزوبعة. صاغ وضعه الخاص كمصرى يعتنق الديانة اليهودية هذه الزوبعة الممتدة، التى لم تهدأ حتى بعد أن لفظ آخر أنفاسه والتف حول جثمانه مئات الأصدقاء والأحباء المصريين من المسلمين والأقباط.

بعد الوفاة، جلست أسرته الصغيرة المكونة فى الأساس من زوجته، مارسيل سيمون ومن ابنتين المهندسة ماجدة هارون والمحامية نادية هارون ليكتبن نعيه فى جريدة الأهرام. واحتارت الأسرة فى كتابة مقدمة النعى. فى حالة المسلمين تتقدم النعى إحدى العبارتين «البقاء لله» أو «انتقل إلى رحمة الله تعالى» أو تتصدره آية من الكتاب الكريم. فى حالة المسيحيين تتصدر النعى عبارة «انتقل إلى الأمجاد السماوية». أما فى حالة شحاتة هارون المصرى اليهودى الديانة، فما هى العبارة التوراتية التى ستتصدر النعى؟

كيف تتصرف الأسرة؟

بعد التفكير والمداولة قررت الأسرة أن تستعير، من كتابه الوحيد الذى قدمه للقارىء المصرى بعنوان «يهودى فى القاهرة»، عبارة تلخص البعض من أفكاره التى أسهمت فى صياغة هذه الزوبعة. وكانت هذه العبارة قد وردت فى حديث صحفى أجراه معه الكاتب الراحل صلاح حافظ فى مجلة «روز اليوسف» عقب الإفراج عن شحاتة هارون فى القضية رقم ١٠٠ لعام ١٩٧٥ حصر أمن دولة عليا. ثم نقلها شحاتة هارون إلى كتابه هذا مع نص الحوار. وجاءت العبارة كالتالى:

لكل إنسان أكثر من هوية. وأنا إنسان. أنا مصرى حين يضطهد المصريون. وأسود حين يضطهد السود. ويهودى حين يضطهد اليهود. وفلسطينى حين يضطهد الفلسطينيون.

مات الإنسان.

ثم يستانف نص النعى.

توجهت الأسرة إلى شباك إعلانات مؤسسة الأهرام فى شارع الجلاء. قدمت النعى ودفعت تكاليفه ثم انصرفت. بعد ساعة أو حوالى الساعة، اتصل مسئول شباك الإعلانات بالأسرة ليبلغها أن العبارة التى تتصدر النعى قد حذفت. فهى عبارة غير مفهومة وغير واضحة. «هى إيه الحكاية؟ مصرى على يهودى على أسود على فلسطينى. حاجة مش مفهومة».

بعد اتصالات، توجهت المهندسة ماجدة الابنة الكبرى لشحاتة هارون إلى أحد المسئولين عن التحرير فى جريدة الأهرام لتشرح له أصل الموضوع وجذور المشكلة.

شرحت كيف أن الأسرة لا تستطيع كتابة أى عبارة قرآنية أو إنجيلية فى صدارة النعى. سألها المسئول: «ليه؟».

أجابت: «إحنا لا كده ولا كده، إحنا يهود. فضلنا كتابة عبارة تدل على أفكار والدى السياسية».

وبعد أن تم الشرح والتفسير، نشر النعى فى اليوم التالى فى صفحة الوفيات فى جريدة الأهرام كما أرادته الأسرة الصغيرة لشحاتة هارون شحاتة سلفيرة عضو نقابة المحامين المصريين وعضو اللجنة المركزية لحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى والمحامى بالنقض.

هكذا يُعرِّف شحاتة هارون. أو هكذا كان يجب أن يُعرَّف شحاتة هارون. وهو تعريف بسيط لا يحدث زوبعة ولا يصنع توابع لها. لكن هذا الإنسان المصرى المولد والنشأة والحياة عاش هذه السنوات الطويلة من عمره يجنح دائما إلى تأكيد حقيقة لا تحتاج منا، نحن الأناس المصريين العاديين، إلى تأكيد. ثم ليعود ويؤكد دائما، بجنوح من نوع مختلف، على هذا التأكيد. حقيقة أنه مصرى الجنسية والهوية والهوى. كان يضع جانبا كل التعريفات التى قد ترفعه إلى شريحة اجتماعية أنيقة أو متأنقة ليتمسك بتعريف واحد... مصريته. عاش يؤكد هذه الحقيقة لسنوات طويلة تزيد على الخمسين عاما، هى بالتقريب أكثر من ثلثى عمره.

واستمرت الزوبعة التى أحاطت وفاته حتى بعد أن نشر النعى بالنص الذى أرادته الأسرة فى جريدة الأهرام.

لقد واجهت الأسرة مشكلة أخرى. فالمفروض أن يصلى حاخام يهودى على جثمان الراحل. وفى مصر لا يوجد حاخام. ترك آخر حاخام مصرى أرض مصر عام ١٩٧١. يومها، كتب شحاتة هارون خطابا بصفته مفوضا من الجالية اليهودية فى مصر «تفويض لكتابة الأمر ورفعه إلى السلطات.. فقط» إلى وزير داخلية مصر يطالبه فيه بسرعة إحضار حاخام ليقود الصلاة فى المعبد الذى يذهب إليه أبناء الطائفة للعبادة. ويكتب لوزير الداخلية بالنص: «نريده عربيا إما من سوريا أو العراق أو لبنان أو تونس أو الجزائر أو المغرب. وإن لم نستطع، نحضر حاخاما من إيران أو من بلغاريا». ولم يأت حاخام إلى مصر لأسباب قد لا نعرفها ولكن يمكن أن نستنتجها.

بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد وبعد أن تم تبادل السفراء بين مصر وإسرائيل حدث ما لم يكن فى حسبان الجميع. فقد فوض كبير حاخامات إسرائيل السفير الإسرائيلى فى القاهرة للقيام بكل المراسم والطقوس التى تقام فى كل المناسبات اليهودية الدينية السعيدة وغير السعيدة، ومنها ما يخص حالات الوفاة. «فإسرائيل هى دولة كل اليهود. أليس كذلك؟» وبالتالى يصبح حاخاماتها مسئولين عن كل اليهود. «أليس كذلك أيضا؟» ومادام لا يوجد حاخام فى مصر، يصبحون هم، أى حاخامات إسرائيل ويمثلهم كبيرهم، مسئولين عن كل يهود مصر بمن فيهم شحاتة هارون الرافض لكامب ديفيد وكل ملحقاتها بدءا من نصوصها إلى تلك العلاقات التى أقيمت بموجبها بين مصر وإسرائيل. وعلى هذا الأساس الإسرائيلى لفكرة مواطنة كل يهود العالم لدولة إسرائيل، وعلى أساس أن إسرائيل مسئولة عن كل يهود العالم تم تفويض السفير الإسرائيلى بهذه المهام الدينية التوراتية.

لكن شحاتة هارون يجنح دائما لتأكيد مصريته وهو ما يتعارض مع التفويض الدينى للسفير. من وجهة نظر شحاتة هارون، إسرائيل ليست وطنا لكل اليهود. وهو يهودى ولكنه مصرى. وبالتالى لا يقبل أن يصلى على جثمانه السفير الإسرائيلى. «بأية صفة؟».

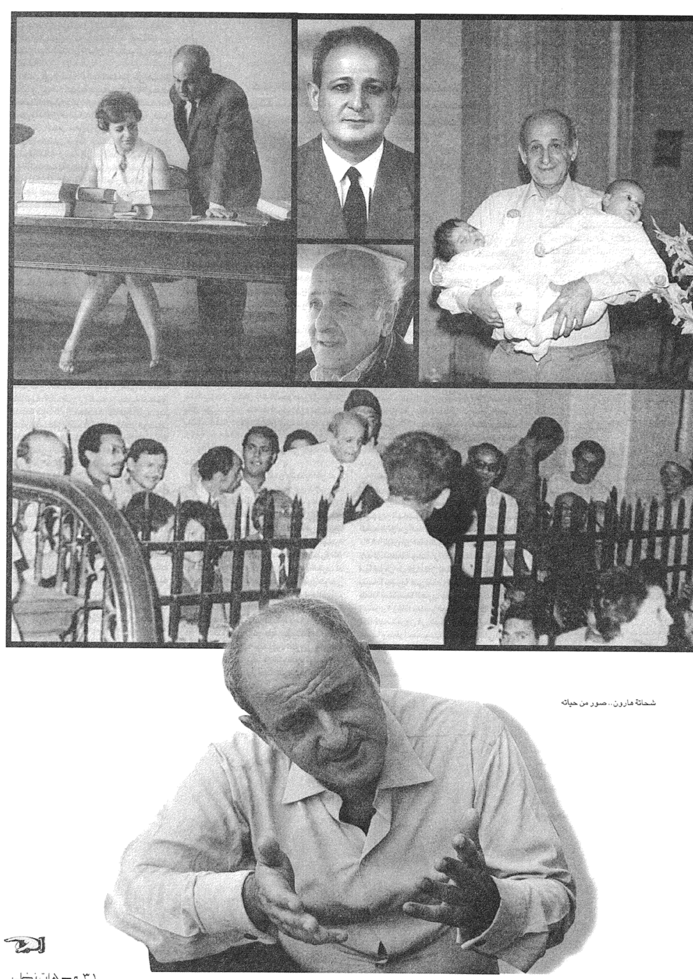
فكان للزوبعة التى أحاطته فى حياته أن تستمر بعد وفاته، عندما استدعت أسرته حاخاما فرنسيا للصلاة على جثمانه فى المستشفى الإيطالى بالعباسية بدلا من الصلاة عليه فى المعبد اليهودى فى شارع عدلى فى وسط القاهرة، تجنبا لأية توقعات غير مستحبة من أطراف غير مرغوب فيها.

فكان لشحاتة هارون ما أراد فى حياته وبعدها.

ويرقد الآن شحاتة هارون فى مقبرة أسرته فى البساتين على مقربة من أبيه الخواجة هارون شحاتة سلفيرة وأمه أليجرا زكى كريم. يرقد حيث كان يريد وعلى الأرض التى سعى دوما للبقاء عليها، مصريا يعتنق الديانة اليهودية التى ورثها مع هويته المصرية من أبوين مصريين يهوديين ينتميان إلى الفقراء من المصريين اليهود.



ولد عام ١٩٢٠ فى القاهرة ابنا لأسرة صغيرة وفقيرة، عمل أبوه طوال عمره بائعا فى محل شيكوريل المملوك لأحد رموز اليهود الرأسماليين. يعرض البضاعة النسيجية على الزبائن من نساء الطبقتين العليا والوسطى. ثم يقيس الأمتار ويقطعها لتحملها كل زبونة بعد أن تكون قد تلقت من والده بعضا من المجاملات والمداعبات اللفظية، «كان والدى خبيرا فى هذه المجاملات، وكان يعتبرها جزءا من أساليب جذب الزبائن. وكان يفرح ويبتهج وتنفرج



شحاتة هارون.. صور من حياته

أساريره عندما تدخل النسوة الأنيقات الجميلات إلى المحل ويسألن تحديدا عن «الخواجة هارون» ثم يتجهن إليه ليسألنه عن آخر الموضة فى الألوان والنقوش وأنواع الأقمشة».

لم يكن لهذا الوالد العامل فى محل شيكوريل من أمنية فى حياته إلا أن يعلم شحاتة الابن الذكر، أو «الأمانة »، بالثقافة العبرية، التى قدمها الرب إلى الوالدين، أفضل تعليم فى أفضل مدارس وجامعات حتى يفخر به وهو يمتهن مهنة جيدة ويحتل مركزا مرموقا. لذلك أرسله إلى مدرسة الفرير بالرغم من كاثوليكيتها وبالرغم من مصاريفها العالية التى كانت ترهقه. وفر له الملبس اللائق حتى لا يشعر الصبى بأية تفرقة بينه وبين أبناء الطبقات المصرية العليا فى المدرسة. أحضر له شيخا ليلقنه أصول اللغة العربية السليمة ليعده للمهنة المرتقبة. ومثل الكثيرين من المصريين فى ذلك الوقت حرم ابنته ديان الأخت الكبرى لشحاتة من فرص التعليم العالى لمجرد إتاحة أكبر الفرص للابن الذكرالوحيد. مع كل ذلك، كان يلقنه أقسى دروس الأدب والأخلاق إذا ما أخطأ حتى لو كان الخطأ صغيرا.

فى مدرسة الفرير تعرف على زملاء كثيرين، منهم من بات وزيرا ومنهم من أصبح عضوا فى مجلس قيادة الثورة ومنهم من نما مهنيا فأصبح من كبار المهنيين المصريين من الأطباء والمحاسبين والمحامين والسفراء وأساتذة الجامعات. كون شبكة هائلة من المعارف والأصدقاء. أما بعد أن أنهى دراسته الثانوية، فقد قرر أن يلتحق بكلية حقوق جامعة فؤاد الأول «جامعة القاهرة الآن». ولم يبخل الأب على شحاتة الابن الذكر الوحيد و«الأمانة التى قدمها له الرب». وفى الجامعة ازداد اتساع دائرة الأصدقاء والمعارف الذين تخرج من صفوفهم كتاب مسرح وصحفيون وشعراء وأدباء وسياسيون.

لقد تنوع الأصدقاء واتسعت دائرتهم. دخل بيوتهم ودخلوا بيته. أكل على موائدهم وأكلوا على مائدته. اتفق مع بعضهم واختلف مع الآخرين.

لكن، فى الجامعة اكتشف شيئا جديدا فى الحياة. عرف أنه بجانب الدراسات القانونية التى يجب أن يدرسها توجد أيضا دراسات أخرى فى الحياة تستحق منه العناية، وخاصة تلك الدراسات السياسية. بدأ بالتحرك إلى حزب مصر الفتاة، وتركه. ثم تحرك إلى حزب الوفد وتركه. وبدأ يتعرف على تيار سياسى جديد، التيار الاشتراكى.

حتى هذه المرحلة لم يكن شحاتة هارون قد أحاطته أية زوبعة. كان مصريا عاديا ولكنه كان يهوديا غير عادى. كان يهوديا محاطا بكم هائل من المصريين العاديين، ومن خليط من كل الأديان ومن كل التيارات السياسية. لم يعش فى محيط يهودى خالص وإنما عاش فى حالة مصرية كاملة. خليط كامل من المهن والتخصصات ومن الأفكار السياسية.

الذى حركه إلى الحياة الأكثر اتساعا، كان لقاء تم بعد تخرجه من الجامعة، رتبه الخواجة هارون، والده، مع شخص مصرى يهودى آخر اسمه دافيد ناحوم انشغل كثيرا بتأسيس نقابة للعمال المصريين العاملين فى المحال التجارية. هنا تعرف شحاتة على

كان يضع جانبا
كل التعريفات التى قد ترفعه
إلى شريحة اجتماعية أنيقة
أو متأنقة ليتمسك بتعريف
واحد... مصريته

مشاكل من نوع اجتماعى جديد تواجدت فى أماكن تجمع بين عمال تجارة مسلمين ومسيحيين ويهود من جانب وأصحاب محال تجارية من جانب آخر. وفى حالة والده كان صاحب المحل الذى استمر يعمل عنده طوال الحياة دون أية فرصة للترقية والترقى، من اليهود الماليين الكبار.

ثم اتسعت حركته فى الحياة العامة بعد انغماسه فى التنظيمات اليسارية. تم القبض عليه عام ٤٦ فى قضية شيوعية تحمل اسم «تنظيم بج بن». وقد سميت بهذا الاسم لأن القبض تم على أعضاء مجموعتها فى مقهى صغير كان يحمل ذات الاسم «بج بن» وكان يطل على ميدان طلعت حرب الآن« سليمان باشا سابقا». ثم تم القبض عليه مرة ثانية عام ١٩٤٨.

وأرسل إلى سجن عين موسى حيث استمر حتى عام ١٩٥٠.

داخل جدران هذا السجن وتحديدا فى عام ١٩٥٠ بدأ شحاتة هارون ينسج أول ملامح تلك الزوبعة التى أحاطته طوال حياته واستمرت تحيطه بعد وفاته. فى هذا العام بالتحديد كانت الجامعة العربية قد اتخذت قرارا سريا يلزم كل الدول العربية لدفع اليهود إلى الهجرة إلى خارجها. كانت أولى موجات الهجرة تلك الاختيارية والأخرى الإجبارية لليهود العرب قد بدأت بالفعل. فى داخل سجنه فى عين موسى فى سيناء اتخذ شحاتة هارون قراره الذى لم يحد عنه لأكثر من خمسين عاما هى الفترة الواقعة ما بين ذلك العام، ١٩٥٠ إلى عام ٢٠٠١ العام الذى توفى فيه. لم يتخذ هذا القرار بمفرده وإنما شاركه فيه يهود آخرون. واختلف معه يهود فضلوا البعد عن الزوابع وتوابعها.

منذ هذا التاريخ، استمر شحاتة هارون يعلى من مصريته ويتمسك بالأرض التى ولد عليها ويرفض كل المحاولات القهرية التى تعرض لها من أجل أن يرحل عن البلاد دون عودة. لم يكن سهلا عليه أو على والديه المتقدمين فى السن أو على زوجته التى لقبها بالصبورة أو على ابنتيه الصغيرتين المنخرطتين فى صفوف مدرسة تسب اليهود فى كل درس من دروس القومية والتربية الوطنية.

صمد الرجل وأسرته. ولم يكن صموده عاطفيا. بل كان عقليا منطقيا مع سبق الإصرار. كتب يقول: «أنا يهودى نعم.. يسارى نعم.. لكن الصفة الأهم هى أننى مصرى.. وفى حدود معلوماتى لا يشترط لأن أكون مصريا أن أغير دينى أو عقيدتى السياسية».

لقد اقتنع أن هذه الدولة العنصرية الناشئة على أرض الفلسطينيين لا يمكن أن تنمو على أكتاف وبسواعد هذا العدد المحدود نسبيا من اليهود المهاجرين من شرق أوروبا، أو بهذا العدد الأقل من البلاد الأوروبية الغربية. فى عام ١٩٥٠ تيقن أن هذه الدولة، من أجل أن تستمر، لابد أن تستوعب، وبشكل سريع، يهودًا مهاجرين من كل مكان حتى تستطيع أن تقيم بنيانا بشريا على هذه الأرض التى سلبتها. فلماذا يساعدها العرب على تحقيق هذا الهدف البشرى؟ ولماذا يهاجر اليهود العرب إلى هناك؟ لماذا لايستمرون فى البلاد العربية التى ولدوا عليها وحملوا جنسيتها؟ اقتنع أن على اليهود فى كل بلد أن يستمروا حيث هم. يتفاعلون مع مجتمعاتهم ويناهضون الهجرة إلى إسرائيل. لذلك استمر يعارض موجات هجرة اليهود العرب، الاختيارية أو الإجبارية، إلى هناك. كما استمر يشير، فى كتاباته، إلى أن هجرة اليهود العرب إلى إسرائيل أمدتها، أى أمدت الدولة العبرية، بنسبة تتراوح بين ٦٠ و٦٥٪ من زادها البشرى.

كان يفخر دائما وكثيرا بأن نسبة صغيرة من اليهود المصريين الذين تركوا مصر إجباريا أو اختياريا توجهت إلى إسرائيل. وأن النسبة الأكبر هى التى توجهت إلى بلدان أوربا الغربية. «ربما لم يسافر إلى إسرائيل إلا نسبة تتراوح بين ٢٠ و٢٥٪ من يهود مصر والباقى نجدهم فى فرنسا أو إيطاليا».

استمر على موقفه الفكرى هذا المناهض للهجرة حتى فى تلك الحالات التى بدا فيها ضد تيار جارف.

عندما ترك الشاعر محمود درويش أرض فلسطين فى نهاية الستينيات وتم الترحيب به فى كل الأوساط العربية كتب شحاتة هارون رسالة إليه يقول فيها:

نداء ورجاء من يهودى القاهرة إلى شاعر حيفا
أخى ورفيقى محمود درويش
تحية خالصة طاهرة أهديها إليك من القاهرة «صخرتى التى لن أبيعها باللآلىء». حبيبتى التى أبدا لن أهجرها.
أكتب لك ملحا عليك صارخا إليك من أعماق أعماقى: عد يا محمود إلى حيفا. عد إليها. إن «أقواس القزح» ستغطى حتما سماءها إذا غنيت أنت من حيفا.
عزيزى يا أقرب القوم إلىّ. أنت لا تعرفنى وأنا لا أعرفك. كيف؟ وأنت أخى وأنا لك الأخ. حاصرتنا سويا سياسة الغباء والظلام. صمدت أنا وما كان لى سوى الأمل (فى حزب) فكيف لا تصمد أنت ولك الحزب.
الليل ينجلى، يبدأ الفجر شعاعه. فلنتمسك به معا، أنت فى حيفا وأنا فى القاهرة.
أنت وأنا الأمل. أنت وأنا شمس الغد. لو عدت أنت لحيفا وصمدت أنا فى القاهرة.

التوقيع
شحاتة هارون

تلك كانت وجهة نظره التى لم يتمسك بها فكريا فحسب وإنما اتخذها كموقف ثابت فى الحياة. يعليها ويؤكد على علوها. ويتخذ منها سلوكا يوميا فى علاقاته الشخصية والمهنية والسياسية. لذلك لم يتقوقع خوفا من المياه الهادرة المحيطة به وإنما اقتحم هذه المياه بكل شجاعة. وفى أحيان كثيرة، بشجاعة يحسده عليها الآخرون. وفى أحيان كثيرة أخرى، بشجاعة يتعجب منها كل الآخرين. تعامل مع كل الجبهات والجهات، مهما علت مقاديرها الاجتماعية أو السياسية، على أنه مصرى له حقوق المصريين وعليه واجباتهم التى تمليها عليهم هذه الهوية التى ورثوها.

شحاتة هارون



من وجهة نظر شحاتة هارون، إسرائيل ليست وطنا لكل اليهود. وهو يهودي ولكنه مصري. وبالتالي لا يقبل أن يصلي على جثمانه السفير الإسرائيلي. «بأي صفة؟»

أليس مصريا ككل المصريين من مواطنين أطباء محامين وسياسيين وأدباء وشعراء وحتى من العمال والفلاحين؟.

في عام ١٩٥٦، عقدت نقابة المحامين مجموعة من المؤتمرات النقابية لمساندة قرار الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الخاص بتأميم قناة السويس. حضرها شحاتة هارون وأعلن تأييده للقرار. وبعد أن شنت إنجلترا وفرنسا وإسرائيل العدوان الثلاثي على بورسعيد بهدف إسقاط نظام عبد الناصر وإعادة القناة إلى الملكية الأجنبية، دعت النقابة إلى مؤتمرات أخرى لتأييد الثورة وقيادتها. حضر شحاتة هارون مؤتمرين منها وعندما توجه لحضور المؤتمر الثالث التقطه عبد العزيز الشوربجي، نقيب المحامين حينذاك، من بين الحاضرين، وطرده خارج النقابة. صدم شحاتة وترك المؤتمر وعاد إلى منزله ليبكي.

وفي عام ١٩٦٧ فتحت نقابة المحامين باب التطوع والتبرع لمساندة القوات المسلحة والدعم العسكري فكتب شحاته إلى النقيب الجديد أحمد الخواجة رسالة يقول له فيها:

> عزيزي أحمد
>
> تحية كفاح أبعثها إليك مع استمارة التطوع. تاركا لك اختيار المكان الذي أستطيع فيه أن أؤدي حقي وواجبي في المعركة.
>
> وإذ أعتبر مجلس النقابة قيادة لي، تجدني رهن إشارتك.
>
> وتفضلوا بقبول فائق الاحترام
>
> التوقيع
>
> المحامي شحاتة هارون

حدد الفارق بينه وبين الآخرين. الفارق أن المصريين يشكلون كثرة من المسلمين والمسيحيين. أما هو فمصري يهودي واحد. لكنه مصري مثلهم. ولن يتنازل عن هذه الهوية مهما عظمت المتاعب.

لا يهم.

بالفعل، لم يكن يهتم.

لذلك كان يحاول دائما أن يشرح وجهة نظره لكل مسئول في هذا البلد حتى لو كان جمال عبد الناصر . . شخصيا.

في عام ١٩٦٣ أرسل برقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر. جاء نصها كالتالي:

> السيد الرئيس جمال عبد الناصر
>
> رئيس الجمهورية
>
> ورئيس الاتحاد الاشتراكي العربي
>
> تعبت من مديري مكاتبكم. عايز أقابلك إنت بقه. أرجوك.
>
> التوقيع
>
> شحاتة هارون
>
> بطاقة عائلية
>
> ١١٧٤٩/ عابدين
>
> ١٩٦٣/٤/٢٨

في عام ١٩٥٦ وفور وقوع العدوان الثلاثي على بور سعيد، فرضت الدولة الحراسة على عدد كبير من غير المصريين وكذلك على عدد آخر من اليهود. وكان مكتب المحامي شحاتة هارون ضمن المنشآت التي اخضعت لقرار فرض الحراسة رقم ٢٥٨. فما كان منه إلا أن اتبع ذات الأسلوب الذي يتبع عادة من كل المصريين. أبرق لكل مسئول في البلاد، للرئيس جمال عبد الناصر وللمشير عبد الحكيم عامر وللسيد علي صبري وللسيد زكريا محيي الدين وللدكتور عبد المنعم القيسوني و و و. لم يترك مسئولا إلا أبرق إليه شارحا مصريته ويهوديته. ثم أرسل شاكيا إلى بعض الصحف، الجمهورية والأخبار والمساء وروز اليوسف والهدف.

فتم رفع الحراسة عن مكتبه ونشر الخبر في الوقائع المصرية في عددها الصادر يوم ٢ ديسمبر عام ١٩٥٦.

ثم حدث أن ألغيت التوكيلات الصادرة له من بعض الشركات التي فرضت عليها الحراسة بعد سنوات من استمرار هذه التوكيلات. حدث ذلك يوم ٤ فبراير عام ١٩٥٧. لم يسكت واتبع ذات الأسلوب في الإبراق إلى كل المسئولين شارحا لهم موقفه الذي لا يلين. أبرق إلى رئيس الجمهورية وإلى وزير الداخلية وإلى وزير المالية و و و. يشرح أنه مصري أبا عن جد ويهودي أبا عن جد. ولا تعارض بين الهويتين.

المهم أنه يتبع دائما ذات البناء الهرمي المركزي في تقديم الشكاوى. مثله مثل كل المصريين المتقدمين بالشكاوى. للرئيس أولا ثم للنائب ثم لرئيس الوزراء ثم لوزير الداخلية . . وهكذا.

في برقياته ومراسلاته التي تتعدد مع المناسبات السعيدة أو غير السعيدة التي تلم به كان يوقع عليها دائما موضحا أنه الشخص الفلاني الممتهن لمهنة كذا والمعتنق للديانة اليهودية والحامل للبطاقة الشخصية أو العائلية رقم كذا. سار على هذا النظام حتى عام ١٩٦٣. أما بعد عام ١٩٦٣ فبدأ يضيف إلى كل هذه البيانات بيانا جديدا وهو أنه عضو مؤتمر وحدة باب اللوق في الاتحاد الاشتراكي العربي منذ أول نوفمبر عام ١٩٦٣ برقم عضوية (١٤٧٩). ولا أتصور أن عامة المصريين الذين كانوا يرسلون شكاواهم إلى المسئولين في هذا الزمان كانوا يسجلون حقيقة عضويتهم في الاتحاد الاشتراكي العربي أو موقع وحداتها أو رقم عضويتها أو حتى تاريخ الانضمام إلى التنظيم السياسي. أما شحاتة هارون فكان يصمم عليها ليذكر الجميع أنه لم ولن يتنازل عن أي من حقوقه التي يقرها الدستور.

إصرار غير عادي على التمسك بذاته وبجسده جزءا من النسيج الداخلي لمصريته.

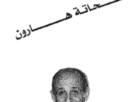
وتستمر أغرب تلك البرقيات هي تلك الموجهة إلى السيد علي صبري مدير مكتب الرئيس جمال عبد الناصر لسنوات ثم رئيس مجلس وزراء مصر مع بدايات الستينيات. كان يبدأها بـ عبارة «السيد رئيس مجلس الوزراء». ثم يبدأ حديثه بـ عبارة «عزيزي علي . . . أعتذر لرفع الكلفة بينك وبيني. هل تتذكرني؟ أنا . . .». ثم يمضي في حديثه أو شكواه أو تأييده لقرار تكون الحكومة قد اتخذته لصالح «الطبقات الكادحة المصرية» من العمال والفلاحين. والسبب في رفع الكلفة أنهما، السيد علي صبري وشحاتة هارون، كانا زميلي دراسة لسنوات في مدرسة الفرير. فكانه كان يلجأ إلى زميل صبا وشباب ليعيد شرح مشاكله التي قد تكون مفهومة من قبل هذا الزميل القديم، سبب عامل الزمن المشترك وطول سنوات التعارف والزمالة بما تحمله من تجارب وفهم وود متبادل.

ولكن في كتاباته إلى كل المسئولين لم ينس أن يرفع رأيه في كيفية التعامل مع اليهود وما هي المضايقات التي تواجههم ولماذا يصر أن تكون مصر . . ومصر بالتحديد هي الأكثر ديمقراطية وتسامحا وقبولا للآخر. وكان يطالب بكل شجاعة ووضوح أن تعيد مصر النظر في هذا التعامل. لقد تعامل مع كل المسئولين على أنه مثلهم . . مصري، ولكنه مختلف . . يهودي ومتميز الفكر . . يساري، ثم شجاع لا يخاف من الحق ولا من الحقيقة.

وتمسك بذات الموقف مع كل ما هو غير مصري. في إحدى رسائله إلى صحيفة لوموند الفرنسية ردا على مقال كتب عنه يدافع عنه قال: « . . أنا قادر على الدفاع عن نفسي لأني قادر على شرح وضعي في بلادي. . .».

وفي حديث له في جريدة أمريكية علق الصحفي على موقفه المناهض للصهيونية وللدولة الإسرائيلية العنصرية قائلا: «سوف يقولون أنك لست يهوديا. وأنك تهاجم إسرائيل لأنك تعيش في مصر وتخاف من الدولة المصرية. ولو كنت تعيش في الولايات المتحدة أو في إسرائيل ذاتها لقلت عكس هذا الكلام». أجابه شحاتة: «الذين يقولون أني غير يهودي لا يبصرون لأنهم يعيشون تحت تأثير الدعاية الصهيونية التي تعمي الناس. لقد اخترت أن أعيش في مصر بمحض إرادتي وبناء على قناعتي وقراري ولن أتنازل عن هذا القرار. وفي حقيقة الأمر إذا كنت أعيش في إسرائيل فإنني لن أقوى على شرح رأيي هذا لأني سأشعر بخوف أكبر من رابطة الدفاع اليهودية «منظمة عسكرية يهودية إرهابية». ولم تكن المرة الأولى أو الأخيرة التي يتعرض فيها المحامي المصري اليهودي لمواقف تسلبه هويته الدينية أو تتهمه بالعمل لصالح جهات مصرية لم تكن له أية علاقة بها، بل كان دائم التقدم لها والسعي لشرح وجهة نظره لها. لقد عاش مشدودا بين من يسعى لنزع هويته المصرية من ضميره وبين من ينزع بالفعل هويته الدينية من وجدانه. لكنه استطاع أن يقف على قدميه في الأرض التي ولد عليها مقتنعا ومصمما أن لا بديل لها.

في حياته السياسية الخاصة هذه مر بأعنف تجاربه عندما اعتقل في شهر يونية عام ١٩٦٧ على أنه يهودي مشكوك في ولائه لمصريته. حاول أن ينساها كواقعة أليمة في حياته. لم يستطع. كان يذكرها بمرارة لما تحمله من انتهاكات لكرامته كإنسان مصري مخلص محب لبلده ولشعبها. ولكنه كان يتذكر دائما أنه بعد الإفراج عنه، وكان ذلك بعد أربعة شهور قضى جانبا منها في أقسام البوليس وجانبا آخر في سجن أبي زعبل، أن المرحوم الأستاذ لطفي الخولي وكان حينذاك رئيسا لتحرير مجلة الطليعة، توسط له لدى السيد شعراوي جمعة وزير الداخلية الذي قابله واستمع إلى شكواه من مبدأ الاعتقال ثم من المعاملة غير الكريمة التي عومل بها مع الآخرين من فقراء المصريين اليهود. كما استمع خلال الحديث إلى رأيه السياسي الكامل في الصراع









من رسائل الجاحظ

٥- حنين الملوك لأوطانها

كانت الملوك على قديم الدَّهر لا تؤثر على أوطانها شيئًا.

وحكى الموبَذ أنَّه قرأ فى سيرة إسْفَنْديار بن يستاسف بن لُهْراسف، بالفارسية، أنه لما غزا بلادَ الخزر ليستنقذ أختَه من الأسر، اعتلَّ بها، فقيل له: ما تشتهى؟ قال: شَمَّةً من تُربة بلخ، وشَرْبةً من ماء واديها.

واعتلَّ سابور ذو الأكتاف بالروم، وكان مأسوراً فى القدِّ، فقالت له بنت ملك الروم وقد عشقته: ما تشتهى مما كان فيه غذاؤك؟ قال: شَرْبةً من ماء دجْلة، وشَمَّةً من تربة إصطخر! فغبرت عنه أيامًا ثم أتته يومًا بماء الفرات، وقَبضة من تراب شاطئه، وقالت: هذا من ماء دجلة، وهذه من تربةِ أرضك، فشربَ واشتمَّ من تلك التربة فنقَه من مرضه.

ولما افتتح وَهرز بن شير زاذ بن بهرام جور اليمن، وقتل ملك الحبشة المتغلب - كان - على اليمن، أقام بها عاملاً لأنو شروان، فبنى نجران اليمن - وهى من أحصن مدن الثغور - فلما أدركته الوفاةُ أوصى ابنه شير زاذ أن يحمل إلى إصطخر ناوسَ أبيه، ففعل به ذلك.

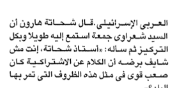
فهؤلاء الملوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا فى اغترابهم نعمة، ولا غادروا فى أسفارهم شهوة، حنُّوا إلى أوطانهم، ولم يؤثروا على تُربهم ومساقط رءوسهم شيئًا من الأقاليم المستفادة بالتغازى والمدن المغتصبة من ملوك الأمم.

وهؤلاء الأعراب مع فاقتهم وشدّة فقرهم يحنون إلى أوطانهم ويقنعون بتربهم ومحالهم.

ورأيت المتأدِّب من البرامكة المتفلسف منهم، إذا سافر سفراً أخذ معه من تربة مولده فى جراب يتداوى به.







العربى الإسرائيلى. قال شحاتة هارون أن السيد شعراوى جمعة استمع إليه طويلا وبكل التركيز ثم سأله: «أستاذ شحاتة، إنت مش شايف برضه أن الكلام عن الاشتراكية كان صعب قوى فى مثل هذه الظروف التى تمر بها البلد؟».

كما أنه فى حياته الشخصية مر بأعنف تجربة يمكن أن يمر بها أى أب لابنة صغيرة مريضة.

لا يعرف الكثيرون، حتى من أقرب المقربين إليه ولأسرته، أنه أنجب فى حياته بنات ثلاثة، منى وماجدة ونادية. الذى يعرف الرجل يعرف أن له ابنتين فقط، ماجدة ونادية. وحتى ابنتاه الأخيرتان لم تكونا على علم بهذه الابنة الثالثة التى كانت الكبرى. لقد مر شحاتة فى تجربته مع ابنته هذه عندما كانت البنتان صغيرتين.

عندما ذهبت إلى أسرته أطلب صورا له فى شبابه مع ابنتيه ماجدة ونادية لم أجد له صورة واحدة تجمعه بهما كطفلتين. عرفت من البنتين أنهما تعرفان أن والدهما تخلص من كل صور الأسرة القديمة حرقا. والسبب أنه لم يكن يتحمل رؤية صورة الابنة الكبرى، منى، وسط الأسرة. وأنهما لم تعرفا بحقيقة أنه كانت لهما أخت كبرى إلا بعد أن تجاوزتا سن الخامسة عشرة، وليس قبلا. وكان ذلك بالصدفة البحتة فى سياق أحد أحاديث عمتهما، ديان. والسبب أن هذه الابنة أصيبت فى طفولتها فى الخمسينيات بمرض عضال فى الدم فنصحه الأطباء بالسفر بها إلى باريس للعلاج. وبالفعل تقدم إلى السلطات للحصول على تأشيرة الخروج وموضحا سبب الطلب. وعندما عرف أن شرط الحصول على هذه التأشيرة هو أن تكون بلا عودة إلى الوطن المصرى. قرر أن يعالجها بالإمكانيات المتاحة فى مصر. وكانت إمكانيات ذلك الوقت غير متقدمة. فرحلت الابنة بعد أن عاشت لشهور تحصل على دفعات من دم أبيها. بكى وأحرق كل صور الأسرة التى تجمعها بالطفلة الصغيرة. وحاول أن ينسى الموضوع بأكمله. لم يذكره أبدا لبنتيه.



الذى اقترب من شحاتة هارون اقترب من إنسان يتمتع بحس ساخر وتحيطه، بجانب هذه الزوبعة الخاصة بسبب يهوديته، حالة أخرى من خفة الظل والاستمتاع بالنكتة المصرية وتناقلها. حسده الكثيرون على حسه الساخر وعلى خفة ظله كما حسدوه على إصراره على الاقتراب من أجمل وأبدع ما فى الحياة، بالرغم من هذه الخصوصية الفريدة وبالرغم من كل متاعبها وتجاربها. أحبه كل من اقترب منه . . ثم فهمه فهما جيدا. فى إحدى مناقشاته مع بعض شباب حزب التجمع سأله ماهر بيومى زميله الحزبى فى أمانة القاهرة: «هل صحيح يا أستاذ شحاتة أن اليهود عباقرة؟» أجاب شحاتة هارون: « هل قدم التاريخ عبقريًا يهوديًا من اليمن أو من العراق أو من أثيوبيا أو حتى من مصر؟، العبقرية تنمو وتظهر فى البلاد المتقدمة صناعيا وعلميا. يمكن تولد فى البلاد النامية ولكنها لاتجد فرص النمو والانتشار. الإنسان ابن وامتداد لواقعه الاقتصادى والاجتماعى. أما فى البلاد النامية اللى هى متخلفة فاليهود زيهم زى الآخرين. متخلفون. طيب ما أنا يهودى أهه بس متخلف . . مش أنا برضه متخلف . لأنى من بلد نامى يسعى إلى التقدم».

وفى أحد اجتماعات المؤتمر العام لحزب التجمع جلس الأستاذ شحاتة بجانب كارم هاشم، زميله فى الحزب وفى أمانة القاهرة وفى المؤتمر. جلس الاثنان لتناول وجبة الغداء التى يوزعها الحزب فى مثل هذه المناسبات(كيس بلاستيكى يحمل ساندويتش طعمية وساندويتشين فول وكيس بلاستيك صغير به مخلل) مال كارم على الأستاذ شحاتة قائلا:

«أستاذ شحاتة تاخد واحد فول وتدينى واحد طعمية؟».

أجاب الأستاذ شحاتة : «لأ».

عاد كارم للعرض: « طيب تاخد اثنين فول وتدينى واحد طعمية؟».

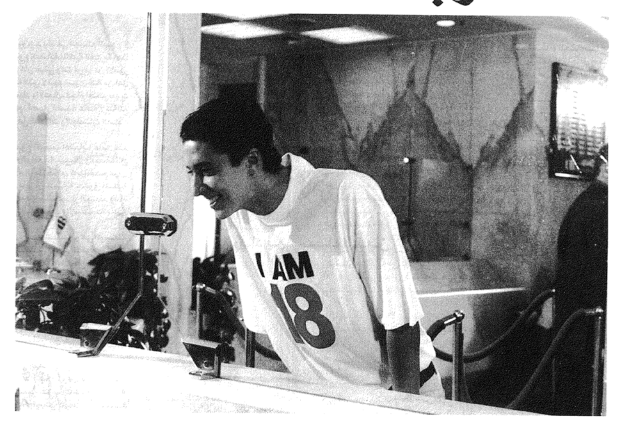
قال الأستاذ شحاتة: «قلت لك لأ. يا أخى أنا بحب الطعمية».

لحقه كارم بعرض ثالث: «طيب تاخد اثنين فول والمخلل وتدينى واحد طعمية؟».

قفز الأستاذ شحاتة الخبير فى براءات الاختراع والعلامات التجارية من على مقعده وقال صارخا: « إيه يا أخى.. ما تسيبنى أتمتع بالطعمية. بلاش زن وإلحاح. هو إنت إيه . . . يهودى! ».



لتشعر بذاتك ..!



مؤسسة مالية متكاملة
تسهل لك الحياة وتؤثر فيها

نعم وأنت فى الثامنة عشر يمكنك أن تفتح حساباً جارياً أو حساب ودائع أو حساب توفير بفوائد متميزة وتتابع كل ذلك إليكترونياً وتحصل على بطاقة ماستركارد وبطاقة خدمة البنك الفورى ATM كل ذلك بإنضمامك إلى خدمة حسابات الشباب التى يقدمها البنك التجارى الدولى لتضاف إلى سلسلة خدماته غير التقليدية التى تسهل لك الحياة وتؤثر فيها .



Silver Jubilee
25

رمز الثقة

www.cibeg.com

رؤية للإعلان

التوازن الصعب في قانون الملكية الفكرية

زياد بهاء الدين

لا يكاد يوجد بلد في العالم اليوم لا يشغله موضوع حماية الملكية الفكرية، هذا الموضوع الذى كان حتى وقت قريب من الأمور المتخصصة التى لا تهم سوى قلة من أهل القانون والاقتصاد والأعمال، فجأة اقتحم بيوت الناس وعقولهم، فصار قضية عامة لا ينقطع الحديث عنها فى الندوات والجلسات العامة والخاصة.

ولأن الموضوع اكتسب اهتمامًا عامًا، فقد اختلط فيه الواقع بالخيال والحقائق بالأساطير والآمال بالأحلام، كما انقسم الرأى حوله بين من يرى أن حماية حقوق الملكية الفكرية وسيلة للاستعمار الجديد وأداة للسيطرة على الشعوب والاستيلاء على ثرواتها.

- ومن يرى أن هذه الحماية هى الوسيلة الوحيدة لضمان تقدم العلوم والفنون والتكنولوجيا وكافة ألوان الإبداع والاختراع، فما هى الحقيقة فى كل هذا؟ ولماذا اكتسب هذا الموضوع أهمية كبرى مفاجئة؟ وأين تقع مصالح الدول النامية منه؟

الإجابة عن هذه الأسئلة تتطلب الرجوع إلى الوراء لفهم أصل الموضوع وأساسيه القانونى والاقتصادى من خلال طرح أسئلة أخرى أولوية وضرورية.

فما هى - أولاً - هذه الملكية الفكرية التى يدور حولها كل هذا الجدل؟ وهل كل شىء غير ملموس يعتبر محلاً للملكية الفكرية؟ والإجابة هى أن الملكية الفكرية هى كل ما يكون نتاجًا للتفكير وليس بالضرورة ما هو غير ملموس، بمعنى آخر هى كل ما ينتج عن أى نوع من البحث أو الدراسة أو الإبداع الفنى، بشرط أن تكون له قيمة اقتصادية، ولذلك يدخل فى عداد الملكية الفكرية، عمل الكاتب والمؤلف والملحن والعازف والمغنى والمخترع والباحث ومصمم برامج الكمبيوتر وغيرهم ممن ينتجون عملاً هو نتاج التفكير أو الإبداع الإنسانى. أما أهمية أن تكون لعملهم قيمة اقتصادية فهو ما يجعله محلاً للملكية لأن حق الملكية لا يرد إلا على ما يكون له قيمة.



ويقودنا هذا التعريف إلى إدراك وقبول حقيقة مهمة، وهى أن الأفكار والاختراعات والتصميمات والألحان والأشعار، وكل ما يمثل إنتاجًا فكريًا، مهما كانت له من قيمة ثقافية وحضارية إنسانية، له أيضًا جانب تجارى واقتصادى، فالنظر إلى المنتج الفنى أو الأدبى على أنه ذو طبيعة خاصة تجعله ملكًا لكل من يرغب فى الاستمتاع به أو إلى الاختراع العلمى على أنه ملك للإنسانية كلها يصطدم مع حقيقة أن هذا المنتج أو الاختراع يمثل لصاحبه نتاج عمل وتضحية واستثمار يجعل من حقه أن يستمتع بعائده الاقتصادى.

السؤال الثانى هو: لماذا تسعى التشريعات المختلفة للحد من قدرة الأشخاص على تصوير الكتب واستنساخ شرائط الموسيقى وبرامج الكمبيوتر برغم أن هذه هى الوسائل الوحيدة المتاحة لكثير من الناس للحصول والتمتع بهذه المنتجات الفكرية؟ والإجابة البسيطة هنا هى أن كل اعتداء على الملكية الفكرية نوع من السرقة نظرًا لأن هذه الملكية مثلها مثل ملكية الأشياء المادية، تعطى لصاحبها وحده حق الاستفادة منها والتمتع بثمارها الاقتصادية. والقول بغير ذلك يترتب عليه أمران، الأول: أن صاحب هذه الملكية يجد نفسه قد بذل الجهد والعمل بلا مقابل ولا أجر، والثانى: هو أن استباحة حقوق الملكية الفكرية عن طريق التصوير أو الاستنساخ (ما يسمى بالقرصنة) لا بد أن يترتب عليهما فى نهاية الأمر إحجام كل من لديه القدرة والملكية الفكرية عن الإبداع وإحجام كل من لديه الإمكانيات والموارد اللازمة للبحث العلمى عن الاستثمار فى هذا المجال لعدم الثقة فى وجود عائد مناسب على مثل هذا الاستثمار.

ولعل ما يشجع على قرصنة المنتجات التى تتضمن حقوقًا للملكية الفكرية ويكاد يعطى صفة المشروعية لها هو التباين بين ثمن هذه المنتجات وقيمة المواد المكونة لها، أى الزيادة الكبيرة فى أسعار بعض الأدوية مثلاً عن المواد الكيمائية الداخلة فى تركيبها، أو أسعار الكتب عن الورق أو الحبر اللازم لتصنيعها أو أسطوانات الموسيقى وبرامج الكمبيوتر عن المكونات الصناعية لها. ولكن الواقع أن هذا التباين فى حد ذاته طبيعى ولا يمكن أن يكون مبررًا للسرقة.

فكما أن ثمن المنزل مثلاً يتجاوز قيمة مكوناته من الأسمنت والرمل والحجارة لأن الفارق يمثل نصيب كل من اشترك فى التصميم والبناء والإشراف، كذلك فالفارق بين أثمان هذه المنتجات وقيمة المواد المكونة لها يمثل تكلفة الإنتاج والتصنيع والتسويق بجانب تكلفة شراء أو استغلال حقوق الملكية الفكرية. «فالتباين فى سعر المنتج عن قيمة مكوناته إذن فى حد ذاته ليس مدعاة للاستنكار وبالتأكيد ليس مبررًا للسرقة. إنما يصبح الأمر أكثر صعوبة حينما يزداد هذا التباين إلى الحد الذى يعبر فيه عن استغلال فادح من النوع الذى لا تقبله الأخلاق، ولا يقبله فى بعض الأحيان القانون.

فبقدر ما يكون من واجب سلطة التشريع فى أى بلد أن تتدخل لتحمى الملكية الخاصة وتعطى لكل شخص حقه وتتيح له التمتع بثمار عمله، بقدر ما عليها أيضًا ألا تغفل الجانب الاجتماعى من القانون، فتحد من الاستغلال وتعيد توزيع الثروة. وهذا الأمر لا يتعلق بالملكية الفكرية وحدها وإنما بجميع أنواع الملكيات مهما كان محلها. ولذلك نجد أن النظم القانونية، حتى فى أكثر بلدان العالم أخذا بالاقتصاد الحر، تنظم المنافسة وتمنع المستهلكين من الغش والاستغلال، بل وتعيد توزيع الثروة من خلال السياسات الضريبية.

- فمواجهة مخاطر التباين الفائق بين أسعار المنتجات التى تعتمد على الملكية الفكرية وقيمة مكوناتها لا تكون بالتصوير أو الطبع أو الاستنساخ. وإنما باكتمال البناء القانونى الوطنى الذى يحد من هامش الربح غير المبرر عن طريق تشجيع التنافس وحماية المستهلك من خطر الممارسات الاستغلالية.

وفى المملكة المتحدة مثلاً، قررت لجنة برلمانية منعقدة للنظر فى أسعار الأسطوانات المدمجة للموسيقى أن هذه الأسعار مرتفعة بدرجة لا تبررها التكلفة الاقتصادية للإنتاج وتمثل هامشًا للربح يعبر عن وجود خطر فى التنافس.

وأهمية ما سبق تكمن فى التأكيد على خطورة قيام الدول النامية بإصدار تشريعات تنظم مواضيع معينة دون الأخذ فى الاعتبار بباقى المنظومة القانونية التى توازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع. والنقاش الدائر حول تشريعات حماية الملكية الفكرية مثال على ذلك، إذ أن مساوئ إصدار هذا القانون لا يتم تجنبها أو الحد منها عن طريق رفض القانون برمته أو تأجيل إصداره، وإنما عن طريق الحرص على أن يواكبه إصدار باقى التشريعات الاجتماعية التى تحقق توازنًا معه.

هذه القضية بالغة الخطورة - أى المواءمة بين حماية صاحب الملكية الفكرية وبين مصلحة الجمهور والمجتمع - ثارت فى الآونة الأخيرة على نحو مهم ومثير بشأن صناعة الدواء، فمن المعروف أن التركيبة الكيمائية لكل دواء تعد من أهم أنواع الملكية الفكرية التى تسعى شركات الأدوية للدفاع عنها بسبب التكلفة الباهظة التى تتطلبها الأبحاث العلمية فى هذا المجال.

وقد تمكنت بعض شركات الأدوية أخيرًا من التوصل إلى منتجات جديدة تحد من خطورة مرض الإيدز وتوقف تقدمه. وكان طبيعيًا أن تباع هذه الأدوية بأسعار مرتفعة تتناسب مع الاستثمارات التى أنفقتها الشركات فى البحوث والتطوير.

ولكن على الجانب الآخر من المعادلة يقف الملايين من سكان القارة الأفريقية الذين يعانون من مرض الإيدز الفتاك (نسبة الإصابة به فى بعض البلدان الأفريقية تقرب من ٢٥٪ من السكان) ولا يقدرون على شراء الدواء الجديد ذى السعر الباهظ، كما يوجد معهم على نفس الجانب شركات أدوية فى مختلف أنحاء العالم بدأت فى إنتاج الدواء بشكل غير قانونى وبيعه بأسعار زهيدة نسبيًا. فلما تدخلت شركات الأدوية صاحبة حقوق الملكية الفكرية لمنع الإنتاج والبيع غير القانونى، اندلعت المظاهرات فى عدد من البلدان الأفريقية وتبعتها مظاهر احتجاج من المعارضين لاتفاقيات حماية حقوق الملكية الفكرية وجشع شركات الأدوية فى البلدان الصناعية المتقدمة.

والواقع أن الاحتجاج فى مثل هذا الموقف مشروع، فكيف يمكن قبول استمرار وضع يموت فيه عشرات الآلاف كل يوم لعدم قدرتهم على سداد ثمن دواء صار معروفًا ويمكن توفيره؟ ولكن من جهة أخرى فإن الخروج نتيجة أن الحل يكمن فى السماح لمن يرغب فى أن ينتج الدواء دون التزام الملكية الفكرية لمن اكتشفه يعنى ضياع كل حافز فى المستقبل للمزيد من البحث العلمى والاكتشاف. نعم هناك سبب للاحتجاج، ولكنه ليس مبدأ احترام الملكية الفكرية ولا التشريع الخاص به، نعم يلزم حصول سكان العالم على أحدث الأدوية، ولكن ليس مقابل إهدار كل استثمار فى البحث العلمى. التوازن بين النقيضين يكمن فى اكتمال البناء القانونى الذى يحدد على نحو متوازن ما يعد ربحًا مشروعًا وما يعتبر استغلالاً، ويكمن أيضًا فى تحديد من الذى يتحمل تكلفة توفير الأدوية الحديثة مرتفعة الثمن لسكان العالم، هل هى شركات الأدوية، أم الحكومات أم المنظمات المعنية بالصحة أم غيرها؟



ويقودنا كل ما سبق إلى سؤال ثالث وأخير: إذا كانت البلدان النامية هى الطرف الخاسر من تنفيذ اتفاقات حماية حقوق الملكية الفكرية، فما الذى يدفعها إذن للدخول فيها والالتزام بأحكامها؟

والإجابة عن هذا السؤال لها عدة جوانب. من جهة أولى، فحتى مع افتراض صحة القول بأن اتفاقات وتشريعات حماية حقوق الملكية الفكرية تحقق مصالح أكبر للدول الصناعية المتقدمة باعتبارها صاحبة النصيب الأكبر من تلك الحقوق التي لها قيمة اقتصادية كبيرة، فيظل على البلدان النامية أن تنضم إلى تلك الاتفاقيات والتشريعات؛ والسبب في ذلك يرجع إلى تحول مهم حدث في العقود الأخيرة في طبيعة القانون الاقتصادي الدولي. هذا التحول يتمثل في ربط كل منظومة المعونات والتعاون الاقتصادي الدولي ببرنامج سياسي واجتماعي واقتصادي شامل يجعل الدول النامية عضوًا مقبولاً في المجتمع الدولي الجديد. وهذا التحول هو ما يصفه رجال القانون الدولي بالانتقال من مرحلة القانون الدولي الرخو إلى القانون الدولي الصلب أي من القواعد الدولية والاتفاقات التي تكون في الأصل إرشادية وانضمام كل دولة إليها اختياريًا، إلى القواعد الدولية التي يصبح قبولها والانضمام إليها إجباريًا لأنه شرط بقبول الدولة عضوًا في المجتمع الدولي الاقتصادي، بكل ما يمثله ذلك من فرص ومزايا.

وحماية الملكية الفكرية من المسائل التي ينطبق عليها تمامًا وصف التحول السابق في القانون الدولي الاقتصادي، فالاهتمام بهذا الموضوع في المعاهدات الدولية ليس جديدًا، بل قارب عمره القرن الكامل. ولكن التحول الجذري الذي طرأ عليه هو أنه بدلاً من أن تكون حماية الملكية الفكرية مقررة بموجب اتفاقات ومعاهدات وتشريعات متفرقة، مثلما كان الحال من قبل، تنضم إليها بعض الدول ولا تنضم دول أخرى، يتباين الاهتمام بتطبيقها فعليًا من مكان إلى آخر، صارت هذه الحماية ركنًا أصيلاً ودائمًا في برنامج العمل الذي يلزم على كل دولة أن تطبقه لكي تكون عضوًا في المجتمع الاقتصادي الدولي. وقد تحقق هذا التحول من مرحلة القانون الرخو إلى مرحلة القانون الصلب عن طريق إضافة ملحق كامل من هذا الموضوع إلى اتفاقيات التجارة الدولية التي تم بموجبها إنشاء منظمة التجارة العالمية في منتصف التسعينيات من القرن الماضي، فأصبح بذلك أمام كل دولة نامية أن تختار بين قبول هذه المعاهدات بما فيها الالتزام بحماية حقوق الملكية الفكرية، أو عدم الانضمام إليها والبقاء خارج المجتمع الدولي الاقتصادي المعاصر بما يترتب على ذلك من الحرمان من كل المزايا التي تتيحها العضوية فيه. وأمام هذا الاختيار الواضح، اختار معظم الدول النامية الانضمام.

وهنا تجدر الإشارة إلى خطأ شائع في الحوار الدائر حول مغزى الانضمام إلى اتفاقية التجارة الدولية وشقيقتها اتفاقية التجارة في الخدمات بما تتضمنه من التزامات بشأن حماية حقوق الملكية الفكرية. ففي مصر مثلاً يدور جدل واسع حول مزايا وعيوب مشروع حماية الملكية الفكرية بمناسبة تقديم الحكومة المصرية لمشروع القانون إلى البرلمان المصري. ووجه الخطأ هنا هو الاعتقاد بأن المطروح هنا هو هل يصدر القانون أم لا يصدر، إذ أن مصر بانضمامها بالفعل إلى مجموعة الاتفاقات المتصلة بمنظمة التجارة العالمية قد وافقت بالفعل على الالتزام بأحكام المعاهدة الدولية لحماية حقوق الملكية الفكرية وصار التزامها قانونيًا منذ أقر البرلمان المصري هذه الاتفاقية. كل ما يتبقى هو إصدار التشريع المصري ليس من أجل إنشاء أحكام قانونية جديدة بقدر ما يفرض وضع أحكام المعاهدة الدولية موضع التطبيق المباشر في صيغة وبناء يقبلهما القانون المصري، فالمطروح إذن ليس قبول أم عدم قبول الانضمام إلى المعاهدة الدولية، وإنما هل تقبل مصر الاستمرار في عضوية المجتمع الدولي المعاصر عن طريق الوفاء بما التزمت به سابقًا، أم تنسحب من هذا المجتمع؟

ما سبق يوضح مبررات إصدار تشريع لحماية الملكية الفكرية في بلد من البلدان النامية من منظور القانون الدولي. ولكن هل هذا هو السبب الوحيد؟ بالقطع إن الإجابة هي النفي.

فبمعزل عن اعتبارات الكسب والخسارة من المنظور الدولي، يظل إصدار تشريع لحماية الملكية الفكرية ضروريًا لأسباب داخلية، وهي ضرورة حماية وتشجيع الابتكار والإبداع والاختراع محليًا من الاعتداءات المختلفة سواء من الداخل أم الخارج.

لقد اعتاد المعلقون على التركيز على البعد الدولي من حماية الملكية الفكرية حتى توازن تمامًا اعتبارات أن المؤلف والمبدع والمخترع أحيانًا ما يكون من مواطني العالم الثالث، وأنه أيضًا جدير بالحماية وجدير بالحصول على العائد الاقتصادي لعمله. وهذا في حد ذاته مبرر لإصدار تشريع يحمي حقوق أهل البلد.

فإذا قيل أن هذا الاعتبار الأخير يتضاءل أمام المكاسب الكبرى التي سوف تحققها الدول الصناعية في مواجهة العالم النامي، فإن الرد على ذلك أن هذا التباين لا يرجع فقط إلى التقدم العلمي والتقني الذي تتمتع به الدول الصناعية، وإنما أيضًا إلى قدراتها التسويقية والتفاوضية والدعائية، وإلى حجم الوعي المنتشر لديها والبنية المؤسسية التي تجعل صاحب الملكية الفكرية يستفيد من عمله.

فهل يترتب على كل ما سبق ضرورة قبول النظام القانوني الدولي لحماية الملكية الفكرية رغم ما يضعه على كاهل سكان العالم النامي من عبء وتكلفة؟ الإجابة هنا أيضًا هي النفي. فليس علينا قبول الوضع الراهن على علاته، ولكن الاستمرار في مناقشة المبدأ لم تعد مجدية لأن الصراع الحقيقي يجب أن يكون في التفاصيل: تفاصيل ما يلزم أن يصاحب إصدار قانون حماية الملكية الفكرية من تشريعات مكملة له بشأن تشجيع التنافس ومنع الاحتكار وحماية المستهلك من الاستغلال، وتفاصيل تتعلق باستمرار دول العالم النامي في التفاوض الجماعي بشأن تحسين موقفها في المعاهدات الدولية، وتفاصيل بشأن تطوير البنية المؤسسية والتسويقية المحلية التي تساعد أصحاب الملكية الفكرية المحليين من تحقيق العائد الاقتصادي المستحق لهم وفقًا للأسعار العالمية، وغير ما سبق لن يكون أمامنا سوى التحمل بأعباء هذا النظام القانوني العالمي دون التمتع بأي من مزاياه. ■



من رسائل الجاحظ

٦ ـ في الأوطان والبلدان

زيَنكَ الله بالتَّقْوى، وكفاك المهمَّ من أمر الآخرة والأولى، وأثلج صَدرك باليقين، وأعزَّك بالقناعة، وختَم لك بالسَّعادَة، وجَعَلك من الشاكرين.

سألتَ ـ أبقاك الله ـ أن أكتب لك كتابًا في تفاضُل البُلدان، وكيف قناعةُ النَّفس بالأوطان، وما في لزومها في الفَشَل والنَّقص، وما في الطَّلب من علم التَّجارب والعقل.

وذكرتَ أنَّ طُول المُقام من أسباب الفقر، كما أنَّ الحركة من أسباب اليُسْر، وذكرتَ قول القائِل: «الناس بأزمانِهم أشبَهُ منهم بآبائِهم».

ونسيتَ ـ أبقاكَ الله ـ عملَ البُلدان، وتصرُّف الأزمان، وآثارهما في الصُّورِ والأخلاق، وفي الشمائل والآداب، وفي اللُّغات والشَّهوات، وفي الهمم والهَيْئات، وفي المكاسب والصِّناعات، على ما دبَّرَ الله تعالى من ذلك بالحكمَة اللطيف، والتدابير العجيبة.

فسبحانَ من جَعَلَ بعضَ الاختلافِ سببًا للائتلاف، وجعل الشكَّ داعيةً إلى اليقين، وسُبحان منَ عرَّفنا ما في الحَيْرَة من الذلَّة، وما في الشَّكِّ من الوَحْشة، وما في اليقين من العِزِّ، وما في الإخلاص من الأنس.

ولولا ما يجبُ من تقديم ما قدَّم اللهُ وتأخير ما أخَّر لكان الغالبُ على النفوس ذكرَ الأوطانِ وموقعها من قلَب الإنسان.

وقد قال عمر بن الخطاب: «عَمَّر اللهُ البُلدان بحبِّ الأوطان»، وقال ابن الزُّبير: «ليس الناسُ بشيءٍ من أقسامهم أقنَعَ منهم بأوطانهم».



الفن التلقائى وإبداع اللاوعى

حسام الدين زكريا

قدم لنا شاعر الألمانية الكبير شيللر صورة الفنان التلقائى البسيط، وكأنه كان يضع معايير للشخصية الفنية للتلقائيين قبل أن تتبلور حركتهم بقرن كامل.. إنه الرجل ذو العاطفة، الرجل البسيط الذى يزاول الأشياء بشكل طبيعى، وهو الجنة المفقودة، والمثل الأعلى لكل من تهفو نفسه إلى عالم البراءة والأحاسيس النقية



لوحة رقم (١)
هنرى روس
فهد يفترس حصان

يلفت توماس كون النظر، فى كتابه «The Structure of Scientific Revolutions» (1962) إلى أن فن التصوير قد ظل لمئات السنين وكأنه منظومة معرفية تراكمية، ويرى أن ذلك الفن كان على مدار السنين مجالاً خصبًا لتراكم المهارات والإبداعات من الجهابذة على اختلاف مدارسهم وتوجهاتهم. وكان الهدف الأسمى له، وهو هدف سعى إليه السواد الأعظم من المصورين طول تلك القرون، هو إخضاع المظاهر البصرية، من خلال تكنولوجيا تصويرية يملك المصور زمامها، لكى تمكنه من تمثيل الطبيعة على أكمل وجه. وسجل نقاد الفن ومؤرخوه الكبار من أمثال بللينى Bellini (١٤٣٠-١٥١٦)، جورجيو فازارى فى إجلال وتوقير، سلسلة الابتكارات الفنية فى التصوير كالتقصير Foreshortening، وتوزيع الضوء والظل Chiaroscuro.. إلخ، والتى أسهمت فى تصوير الطبيعة بكل دقة، إلا أن تلك السنوات، خاصة أعوام عصر النهضة، كانت هى السنوات التى شهدت انقسامًا بسيطًا بين العلوم والفنون، والنموذج الذى قدمه ليوناردو دافنشى كان واحدًا من نماذج عديدة لفنانين تنقلوا بحرية بين مجالات ـ علمية وفنية ـ لم تعد متمايزة تمايزًا تامًا إلا فى فترة متأخرة. والملاحظ أن مصطلح الفن كان يعنى بنفس القدر التكنولوجيا والحرف الصناعية، وهى فنون كان ينظر إليها هى الأخرى باعتبارها فنونًا مطردة التقدم، شأنها شأن التصوير والنحت. والذى حدث هو أن التصوير والنحت قد نبذا تمامًا القول بأن التمثيل بالصورة هو أسمى أهدافها، وعادا أدراجهما من جديد لينهلا من فنون البدائيين..!! هنا فقط اتخذ الانقسام بين العلم والفن، الذى نسلم به نحن اليوم، أبعاده الواضحة الراهنة.

وإذا كنا اليوم نواجه صعوبات شتى عند بيان الفارق العميق الذى يمايز العلم عن التكنولوجيا، فإن ذلك يرجع فى جزء منه إلى أن التقدم سمة واضحة لهذين المجالين. وقد شرع الفلاسفة منذ العقود الأخيرة للقرن الماضى فى تداول مصطلح سيكولوجية الشعب ضمن مصطلحات أخرى أصبحت أدوات شائعة لا غنى عنها عند محاولة إيجاد تفسير للتمايز بين العلم والتكنولوجيا، ويتداول معظمنا ذلك المصطلح كلما حاولنا فهم سلوك أى جماعة استنادًا لمعتقداتها وتقاليدها ورغباتها، وهو فهم يكون خاطئًا، ولم يكن هناك ما هو أكثر سخرية وازدراء من استخدامه على هذا النحو. ومنذ قرن مضى كان اللفظ يعنى بالتأكيد سيكولوجية هؤلاء الناس (المتخلفين..!!)، الذين يعيشون حياة لصيقة بالطبيعة فى ثقافات توجهها حتمية التقاليد والعادات المتوارثة، ولها أساليب تفكيرها المختلفة عن الحياة من حولها، والأشد بدائية بلا ريب من أناس متحضرين ومتطورين مثلنا..!! إلا أنه عندما نشر عالم الاجتماع الفرنسى كلود ليفى شتراوس Claude Levi Strauss كتابه «التفكير الهمجى La Pensee Sauvage» (1966)، أوضح للأذهان الكيفية التى كانت العقول الهمجية تفكر بها، وكيف اختلفت النماذج البدائية للتفكير عن نماذجنا المتفوقة (المزعومة)، وقد تسربت أفكاره إلى الفلسفة الحديثة، وأظهرت أنه رغم كوننا متحضرين وعلى كل هذا القدر من التقدم، فإن الطريقة التى نفهم بها ونفسر سلوك بعضنا البعض عن طريقها ظلت بدائية ومتأخرة بالنسبة للأساليب العلمية الموثوق بها فى التفسير، ومن ثم فنحن بدائيون بطبيعتنا ومازلنا نفكر بتلك الطريقة. وسنبطل تلك العادة الذميمة مستقبلاً، وهى الإشارة للحالات العقلية عند تفسير السلوك الإنسانى.

والواقع أن فن الشعب هذا يستحق بجدارة أن يدعى فنا خالصًا (إن كان منا من يلاحظ ذلك)، ويكفيه فقط أنه يسعى لنفس الهدف أسوة بفنون التصوير والنحت فى كل مكان، إلا أنه اعتبر فنا شعبيا بسبب ممارساته التى وضعته عند مرحلة مرتدة من التقدم الذى تسنم فيه فن التصوير الذرى من خلال مراكز الفن الكبرى، فهو نتاج لما يستطيعه الشعب بطبيعة الحال، لذا كانت النظرة إلى الثقافة الشعبية دومًا كصيغة حياة غير ناضجة نسبيا إذا ما وضعت على كفة ميزان أمام الثقافة الأوروبية، والمفترض أن فنانى تلك الثقافات لو كان قد قدر لهم فقط معرفة التكنولوجيا اللازمة، مع تحديد الهدف، لأبدعوا أعمالاً فنية على غرار فنانى فلورنسا. إنه نفس ما كان سيحدث مثلاً لشعب الأزتيك لو كان قد عرف شيئًا عن العجلة..!! على أنه يجدر القول إن ذلك لا يحدث دائمًا فى عالم الفن، فهناك عادة أسباب ترتبط بأنماط الحياة التى يمارس الفن فى نطاقها، والتى قد لا تكون متوائمة مع التكنولوجيات المتقدمة لفن التصوير، وتعطينا الصين مثالاً رائعًا لذلك ـ وهى بلد لا تبدو حضارتها بدائية إلا لأكثر وجهات النظر ضيقًا فى الأفق (من خلال شعور الأوروبيين الزائف بالتفوق) ـ عندما أقرت على الفور بأن المنظور Perspective هو الطريقة الصحيحة على وجه الدقة لإظهار العناصر كما تبدو فى الفراغ، وذلك عندما قام الأب جيوزيبى كاستليونى Giuseppe Castiglione (1688-1766)، وكان مبشرًا وفنانًا، بإجراء عرض لرسم المنظور، إلا أن مثقفى الصين مع تسليمهم بمميزات المنظور

الرياضى، سرعان ما استشعروا أن ذلك الأسلوب ليس هو الفعالية الفنية المطلوبة فى حياتهم الثقافية، ومن ثم كانت أفضليته الموضوعية غير متصلة بممارستهم الفنية. أما ما اعترف به الصينيون فهو أن هناك اختلافًا بين دور الفن فى ثقافة ما، وبين وسائل تلك الثقافة لتجسيد الصورة، وقالوا إن الدور الذى لعبته الصور فى الحضارة الغربية لم ينفصل عن الصديق البصرى الذى تبديه تلك الصور، وهى صلة لم تتواجد فى ثقافتهم. وربما سلم الفنانون الشعبيون تمامًا بصحة الاكتشافات الموضوعية التى يظهر التقدم واضحًا خلالها، دون أن يدركوا أنهم قد يحققون فائدة من ورائها، فربما كانت للصور بالنسبة لهم أدوار أخرى تؤديها، بحيث لم يكن هناك اتساق بالمرة بين التقنية، وما تتيحه من إمكانيات ودقة، مع حياتهم الثقافية، وقد يعيد ذلك لأذهاننا حكاية شعب الأزتك مع العجلة ويجعلنا نفكر فى احتمال معرفة هؤلاء القوم بتلك التكنولوجيا، وأنهم ربما فكروا فى الثمن الذى سيدفعونه لقاء استخدامها، وقرروا صرف النظر عنها، ولعلهم فى ذلك كانوا أعقل من شعوب كثيرة فى عصرنا هذا..!! عصر الصدمات التكنولوجية بحق.

مولد الفن التلقائى:

«.. إننى أود أن أستعيد نضارة الرؤيا، وهى خاصية لا نجدها إلا فى منتهى الطفولة، عندما تتبدى الدنيا فى ثوب قشيب..»

«هنرى ماتيس»

عندما صاغ ألفين توفلر مصطلحه «صدمة المستقبل»، واختاره عنوانًا لكتابه الشهير FutureSchock (١٩٧٠)، كان فى ذهنه ما سيلاقيه الإنسان العادى فى مجتمعات الدول المتقدمة تحت وطأة تكنولوجيات عاتية. فلقد وقع هذا الإنسان تحت وطأة مجموعة من الضغوط النفسية والعصبية والفسيولوجية، وهو يحاول لاهثًا ملاحقة التغيرات الحياتية التى سببتها تلك التكنولوجيات، والتى تتبدل وتتغير بإيقاعات فائقة السرعة تجاوزت قدراته على التلقى والاستيعاب. حيث تتنوع تنوعًا هائلاً، وتتجلى على كافة المستويات بدءًا من بطاقات الائتمان، ومرورًا بفيض البث الإعلامى المرئى والمسموع والمقروء، وكأنه كان يبشر بثورة الوسائط المعلوماتية (الإنفوميديا) التى يقول عنها فرانك كيلش Frank Koelsch صاحب الكتاب بنفس العنوان Infomedia Revolution أنها ستقلب حياتنا هى الأخرى رأسًا على عقب بما فى



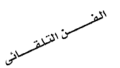
جـعـبـتـهـا من امـتـزاج تكنولوجي Tech. Convergence بـين أعظم ثـلاث قـــوى عـلـى الساحة الآن:

الـحـوسـبـة Computation، والـوسـائط الإعــــلامـــيـــــــة Media، والاتـصـــــالات Communication.

وهكذا برزت مـشكلة الـحـمل المعلـومـاتي الزائد Information Overload، ووجد الإنسان نفسه حـيالها فـاقدًا للسيطرة، تحيطه بيئة غريبة عليه لا يملك أمامها حولاً ولا قوة، فلا هو بالـقـادر على الـتفاعل مـع معطياتها سـواء بالسلب أو الإيجاب لافتقاده الأدوات الذهنية الـضـرورية لإنجـاز ذلك الـتـفـاعـل، ولا هو بمستطيع التواصل مع رموزها لجهله بدلالات تلك الرموز، فقد أصبحت لغة التفاهم في مـعظمـهـا مكودة Codified، تـفيض بالرموز والاصطلاحــات، ولـم يكن هـنـاك بـديـل عن الاغتراب التكنولوجي - أحدث صور الاغتراب في العـصـور الحديثة، وعندها لم يجد المرء مناصا من اللجوء لـلحيل الإدراكية كالتبسيط المخل، والرؤية الاختزالية للأمور، ومـحـاولة إيـجـاد عـالم بديل تجنبًـا للوقـوع في براثن الاكتئاب والإحساس الممض بالعجز والإحباط عندما يجد نفسه لا يملك حتى ترف الفرجة.

الواقع أن ظاهرة الاغـتـراب هذه لـيـست بالظاهرة الجديدة، فقد نشأت في المجتمعات الصناعية مع الثورة الصناعية في أوروبا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وإزاءها اضطلع الفن بواجبه للتصدي لموجات السعار المادي الذي أخذ يجتاح المجتمعات، ولم تكن الرومـانـتـيكية، وهي تنبش عن تراث القرون الوسطى بفروسيتها ونقائها وخرافاتها أو الانطبـاعـيـة، وهي تلهث خلف تحـولات ضـوء الشمس، لتزدهر في الـهـواء الطلق بـعـيـدًا عن دخـان المصانع، واسـتـعـبـاد الآلة للإنسان، إلا صـيـحـات احـتـجـاج ضـد المادية التي أغرقت العـالم في طوفانها، ومن المثير للضحك الآن ما وصف بـه نـقـاد الـفن في تلك الأيام فن هؤلاء الـثـائرين، وعلى رأسـهـم لـوي لـيـروي Louis Leroy: «.. إن الـتـأثـيـريين، أولئك الـهـمـج المتوحشين العنيدين..! احتقروا مهمة إنجاز صورهم كسلاً أو عـجـزًا.. لقد اكتفوا ببـعض الانطباعات..!!».

ومن المفارقات أن ألد أعداء الانطباعـيين هم الذين قدموا للعـالم اسم ذلك المذهب، ولو كانوا على دراية كافية لأدركوا أن شمس عصر التمثيل بـالصورة والصدق البصري قد آذنت بالمغيب، ولم تعد النظرة إلى تاريخ الفن هي مدى الـتـقـدم الذي حـدث على أيدي جـهـابذة القرن الـسـادس عـشـر، من أمثال فـاسـاري، والذين افترضوا أن تاريخ الفن ما هو إلا بنية الـكـفـايـة الـتـصـويـريـة Representational Adequac، فمع نهاية القرن الـتـاسـع عـشـر وبزوغ تيار الحداثة، كان فن التصوير يعاني مـخـاض تحـولات جذرية ولعب الثائرون: بول جــوجـــان Paul Gaugin (١٨٤٨-١٩٠٣)، وسـيـزان Cezanne (١٨٣٩-١٩٠٦) وفـان جـوخ (١٨٥٣-١٨٩٠) أدوارهم الطليـعـيـة، ورغم أن ثورتهم كـانت ثورة فـردية، فـهم لم يدركوا المعنى التاريخي الكامن وراء ثورتهم تلك، إلا أن الـتـابعين، من الـحـوشيين Fauves، والتعبيريين، والسيرياليين، والتكعيبيين، والتجريديين، كانوا أكثر ضراوة، في ثورتهم على الـقـديم، وقدر للموارد الـتـعـبـيـرية عند



هؤلاء الـذين يطلق الـغـرب عليـهـم خطأ لفظ البدائيين، تدفعهم طاقات الشمس المختزنة، والأحـاسـيس المنتـشـية بالوجـود، وحدة المشاعر، واللاوعي - أن يشكلوا الروافد الفنية الهادرة.. وولد الفن التلقائي كما نعرفه اليوم، وسط لهيب مثل تلك الثورات المتأججة، وهو لم يتبلور كحركة فنية استحوذت على الانتباه إلا عندمـا لفت هنري روسـو (١٨٤٠-١٩١٠) وهو من أعـلام فن التـصـوير - أنظار بيكاسو، الذي نوه بأعماله، كمـا تحمس لها أبولونير - وهو شاعر وناقد فرنسي - كثيرًا.



وهكذا كــان الفن التلـقـائي ابنًا شـرعـيًـا للحداثة، فـروسـو يقف اليـوم شـامـخًـا كرائد وعـلامـة طريق لهذا الفن المدهش، ولو لم يكن ليتسنم تلك القمة ما لم يحدث ذلك التطوير في مفهوم التصوير. (ولو قدر له أن يقوم من قبره اليوم ويرى كم التبجيل الذي يحيط بأعماله، ومـا يكتب عنه، وهو الذي ووري الـتـراب بين حفنة من جيرانه تعد على الأصابع، لأصابه الذهول حقا).

ولابد هنا أن نذكر أن سبب الانشقاق الذي حــدث في المفـاهيم بين الفن والـتــصـوير الطبيـعي كـان مـشكلة لا يمكن تفسيرها في

الـتـاريخ الثـقـافي لأوروبا، إلا أن الـفـضل فـيـه يـعـود لفكرة الـتــعـددية الـثـقـــافـــيــة Multiculturalism، التي صـححت الكثـيـر من المفاهيم الـخـاطئـة عن الفن التلقائي، عندما رسخت علاقات نسبية بين الفنون، وصيغ الحياة المختلفة التي ترتبط بها بحيث لا يدخل فيها ترتيب تصنيفي للفنانين، الأمر الذي دفع بعض نقـاد الفن إلى اعـتـبـار الجودة Quality شيئًا دخيلاً في نطاق ثقافة معينة. وقد سعت تلك الـعـلاقة النسبية إلى الابـتـعـاد عن ضيق الأفق الثقافي، فهي تستوعب جميع الفنون بغض النظر عن وظائفها المتنوعة في صيغ الحـيـاة المختلفة، بحيث ينظر إليـها جمـيعًـا بنفس الروح الـجـمـالـيـة غـيـر المتحيزة (فيما عرف باسم الانعزالية الجمالية)، كما ننظر إلى الثقافة الغربية ذاتها.

ويمكن الـقـول بأن اللحظة الـتـاريخـيـة الدقيقة التي بدأ يتحول فيها الاهتمام الجمالي نحـو الفن التلقـائي في الستينيات من القرن الـتـاسع عشر، قد تطابقت مع ما يسمى غالبًا بأول لحظة للـتـصـوير الـحـداثي، وهي إبداع لوحة أوليمبيا Olympia الشهيرة (١٨٦٥) للمـصـور الـفـرنسي الانطبـاعي الكبـيـر إدوار مانيه Eduard Manet (١٨٣٢-١٨٨٣)، ومنذ ذلك الـتــاريـخ ارتبـط الـفن الـحـديـث والفن التلقائي ارتباطًا مصيريا لم تنفصم عراه، وفي قول آخر: فن مـا بعد الحداثة Post Modernism

مع الـفن اللامنـتـمـي، ولـقـد وصف المصـور الـفرنسي الشهير جوستاف كوربيه Gustave Courbet (١٨١٩-١٨٧٧) لوحة مانيه، وهي عـارية مـثـيرة، على النحـو الـتـالي: «إنهـا مسطحة..! لم يستخدم فيها موديلاً، بل إنها تشبه البنت في أوراق «الكوتشينة»..!!» وهو الـتـشـبـيـه الذي فـتح الأبواب للكثـيـرين كي يـقـولوا إن البنت في أوراق اللعب تشـبـه أوليـمبـيا مانيه، وسـواء كـانت أوراق اللعب تشـبـه نماذج من الفن التلقـائي أم لا، إلا أن مانيه كـان بذلك قد بدأ، بتسطيحه لأشكاله أسلوبًا جـديدًا اتبع فـيـه مـا عـرف باسم الـتــفكيكيـة المنهـجـيــة Systematic Deconstruction، وهو مـا جعل تاريخ الحداثة يبدو وكـان تاريخ الفن قد عـاد للوراء. وربما كـان بعض السبب راجعًـا لظهور الـتـصوير الفوتوغرافي، الأمر الذي شجع ديلاروش De La Roche وهو مصور فرنسي من رواد المذهب الواقـعي ليـقـول إنه بالاخـتـراع الذي قدمـه داجيير Daguerre في أول عملية لـلتصوير الفوتوغرافي فإن فن التصوير قد مات. وكان ذلك صـحـيـحًـا على الأقل بالنسـبـة للهدف الأسمى لفن التصوير خلال القرون الماضية (حتى القرن التاسع عشر). ما دامت كانت كل المهارات التي تصنع فنانًا قد أصبحت تؤدي من خــلال آلـة في اسـتـطـاعـة أي شـخص تشغيلها دون تعلم الرسم أو التصوير (وهو ما يمكن أن نصف به فن ديلاروش نفسه..!!).

وكـان على فن التـصوير أن يبـحث له عن تعريف جديد أكثر دقة من مجرد الـتمثيل الدقيق للأشياء، وأخذ الفنانون يجدون في البحث عن ثقافات قد يكون لديها إجابات أكثر فعالية لأسئلتهم مما قدمه تاريخهم (الأوروبي بالدرجة الأولى)، مادامت لم تعد تكنولوجيا التطور الـتـصـويري لم تـعـد وثـيـقـة الـصلة بمعنى التصوير، وهكذا رأينا فان جوخ يتخذ من هوكوساي (وهو فنان طباعة ألوان ياباني ١٧٦٠-١٨٤٩) نموذجًـا يحـتـذى، ويـبـادر جوجان بأخذ صيغه التشكيلية من حفاري بريتـاني، ثم يدير ظهره في النهاية لحضارة يعلن أنها قـد تعفنت (ويشـد الرحـال إلى جـزيرة تاهيـتي). وكـان كل ذلك مـؤشـرات لفقدان ما يمكن تسميته بالثقة الثقافية، وهو مـا دفع الفنانين نحو ثقافات أقل تطورًا بحثًـا عـمـا يمكن مـضـاهاتـه بما في داخلهم، وهم ينقبون عن الأصالة والصدق. ومما لا شك فيه أن الرومـانـتـيكـيـين كـانـوا أول من صـور الشخص المغترب والمريض النفسي تصويرًا رفعه إلى مرتبة البطولة، ووجدوا في الخروج عن المألوف شريعة لإبداع الذي لا تحده قيود، ولا يـعـتـرف بقـوانين أو أعراف، حـيث يدير الفنان ظهره للعالم متلفعًا بوحدته، ويتأمل مكنون ذاته، وينهل من رؤاه الـخـــاصـــة، ويمضي في إبداعه كالسائر أثناء نومه، وهكذا فرض التلقائيون واللامنتمون والمجانين أنفسهم على الساحة الفنية، وحفلت قواعد الفن بالاستثناءات.



وكـــان بـاول كـلـي Paul Klee (١٨٧٩-١٩٤٠) أول فنان حـديث يعـتـرف عـلانيـة بقدرات الفن التلقائي، وفن مرضى العقول



لوحة رقم (٢)
اوجسط نيتر
الراعي العجيب

لوحة رقم (٣)
برونو إيبله. تيوليت أبيض

حـينمـا تحـدث عن مميزاتهم الإبداعـيـة فى مقالته الشهيرة فى مجلة الألب (Die Alpen) قـائلاً: «.. إذا مـا أردنا إصـلاح الفن اليـوم، لن نجد مـا هو وثيق الصلة بعملية الإصلاح تلك، على نحو أقوى بكثير من كل ما هو موجود فى متـاحفنا كلها، سوى أعـمال هؤلاء المجـانين، ولكى نتـفـادى ببـسـاطة استنسـاخ الماضى، علينـا أن نعـود أدراجنا للوراء أبعد قليـلاً..». وقبل ذلك بعدة سنوات، كان كلى قد كتب فى يومياته: «.. لقد وصلنا إلى نقطة تحول، إننى أنحنى احترامًا لهؤلاء الذين يشاركون فى ذلك الإصلاح الوشيك..». وربما كان كلى قد زار من قبل ذلك المتحف الصغير الذى أقامه الدكتور مورجينتهالر Morgenthaler فى مدينة فالداو Waldau قرب بيرن (المدينة التى قضى فيها كلى فـترة شبـابه) لأعمال نزلاء المصحـات العـقليـة فى سـويسـرا، وتلا ذلك بعـد قليل مـاكس إرنست Max Ernest (١٨٩١ـ١٩٧٦) الذى تأثر كثيرًا بالرؤى الهذيانية للمصور التلقائى أوجسط نيـتـر(١) August Netter (١٨٦٨ـ١٩٣٣)، والذى قال عنه، وهو يقارن لوحاته التى أبدعها فى مصحة عقلية، بأعمال السرياليين: «.. لم يصادفنى فى حياتى ما هو أكثر خيالاً من تلك الأعمال..». وإذا ما تمعنا فيما كتبه نيتر بنفسه كشرح للوحته العجيبة تلك لاستطعنا أن ندرك حجم التحول الذى حدث فى نظرة أقطاب الفن الحديث لمفهوم فن التصوير:

«.. رسمت فى البداية ثعبان كوبرا أخضر وأزرق يتلألأ، ثم أضفت القدم فـيـمـا بعـد ورسمت القدم الأخرى، وهى مصنوعة من اللفت..! وعلى القدم الثانية ظهر رأس حمايا My Father in law، حيث تجعد الجبين ليتخذ شكل فصول السنة، ويصبح شجرة، وانشق لحاء تلك الشجرة من الأمام مكونًا الفم، ثم تكون الشعر من أفرع الشجرة، وظهرت أنثى بين الساق والقدم، تلك (الـ.....) هى سبب سقوط الرجل، وإحدى القدمين ترتفع نحو السماء لترمز إلى السقوط فى الجحيم، ثم يظهر راعى يهودى يرتدى فروة نعجة، وتتحول الأحرف WS إلى ذئاب، والتى تتحول بدورها إلى نعاج. لقد أصبحت ذئابًا فى ثياب نعاج.. أنا الراعى.. أنا الرب نفسه..! الذئاب هم أعـدائى.. الألمان!!..». وقـد يـعطى ذلك الشرح فكرة واضحة عن الكيفية التى يطرح بها الفنان التلقائى، خاصة إذا ما كان مريضًا نفسيـا (٩٩٪ من الحالات). رؤاه وتصوراته من عالم اللاوعى المثير.

السريالية والفن التلقائى
أو إبـداع الـلاوعـى

يتفق الفن السريالى مع الفن التلقائى فى أن الإثنين يرفضان الواقع ويتخطيانه، ويتخذان من اللاوعى ميدانًا فسيحًا للإبداع، ويجدان فى الحلم صيغة جديدة للواقع، ويبحثان عن صيغ لاواعية دائمًا، مع ما هو معروف من أن الفنان التلقائى إنما يفعل ذلك بفطرية وعفوية وبساطة دون أى تنظير أو مفهوم مسبق، فموضوعات لوحاته تطارده دومًا وكأنها وساوس يريد التخلص منها فى أول فرصة ممكنة، أو أفكار مستحوذة Idees Fixes يسعى لتحقيقها فى تصميماته، وقد يفسر ذلك سبب ترك كثير من التلقائيين، خاصة المرضى النفسيين منهم، للوحاتهم قبل إتمامها.

وما من شك فى أنه من بين جميع الصيغ المختلفة للاوعى، كان نموذج فرويد Freud (1856-1939) الأكثر عمقًا ليس فى مجال علم النفس والطب فقط، بل فى المجالات غير العلمية للشعر والفن.

لقد أعطى فرويد لكلمة اللاوعى معنى جديدًا تمامًا فى القرن العشرين، رغم أن اللفظ كان مستخدمًا بين علماء النفس، حيث لم تعد بنية المنظومة الجسدية Physical System عنده قائمة على الوعى فقط، وهو ما جذب السرياليين لرؤيته الشاملة لعالم النفس البشرية، ورددت كتاباتهم كلماته فى كتابه تفسير الأحلام: اللاوعى هو الواقع الحقيقى بصفة عامة، وقد ميز فرويد بين استخدامين للفظ اللاوعى، كصفة Adjective، فهو يعنى ببساطة عمليات عقلية لم تكن خاضعة للانتباه الواعى، إلا أنه كاسم (بالألمانية Dasunbewusste)، فقد أخذ معنى أكثر عمقًا وأصالة، حيث كان فرويد يعنى به واقعًا ملموسا فى صميم أعماقنا، إلا أننا نجده مجهولاً لدينا تمامًا، كما تبدو الحقيقة أمامنا فى العالم الخارجى، كما أنه يتمثل أمامنا على نحو غير تام من خلال المعلومات المتواجدة فى الوعى، مثلما يبدو لنا العالم الخارجى من خلال الاتصالات التى تجريها حواسنا. ولما كان علم النفس يعنى بدراسة العقل الواعى، فقد رفض المشتغلون به تلك الأفكار واعتبروها مجرد هراء. وشكل ذلك المفهوم الواسع للواقع تحديًا كبيرًا للفلاسفة ناهيك عن الأطباء، فقد خرق المعايير المعهودة لكل ما هو منطقى وعقلانى. ورغم أن فرويد لم يكن يرمى إلى تلك النتيجة، إلا أن السرياليين هللوا له واعتبروه تبريرًا محتفى به لرفضهم القيم البرجوازية الأوروبية، وإعادة تقييمهم لموضوع الخيال من جديد.

وفى أول مانيفستو للسرياليين، رحب أندريه بريتـون Andre Breton (١٨٩٦ـ١٩٦٦) بالطابع الريادى لاكتشافات فرويد معلنًا أنه: «.. هناك جزء كبير من عالمنا الذهنى لم نكن نحفل به، قد أعيد إلى النور، ولابد لنا من إسداء الشكر لاكتشافات فرويد.. إن الخيال على ما يبدو يقف على أهبة الاستعداد ليطالب بحقوقه، وإذا ما كانت أغوار عقولنا تحمل فى طياتها قوى غريبة، ففى استطاعتنا تعزيز تلك القوى الأخرى الموجودة على السطح، أو شن حرب ظافرة عليها، فالمنطق يدعونا لتشديد قبضتنا عليها، إذا ما أردنا إخضاعها لسيطرة عقولنا..» وكان على فرويد أن يطور نظريتين للبنية العقلية ففى نموذجه الأول ينقسم العقل إلى ثلاثة أنظمة من المراكز النفسية: الواعى Conscious، وما قـبـل الـواعى Preconscious، واللاواعى Uncondcious، واللاوعى ليس ما هو خارج نطاق الوعى، بل ذلك الذى انفصل عنه جذريا من خلال الكبت Repression. وفى ذلك النموذج الطبوغرافى للعقل، سنجد حواجز رقابية بين ما هو قبل الواعى، واللاواعى، حيث تتشوه الأفكار وهى تمر فى طريقها للوعى. وكما يقول فرويد، فإن ما قبل الواعى يقف كحجاب فاصل Screen بين لاوعى النظام، والوعى نفسه. ولا يقوم ما قبل الواعى للنظام بحجز عملية الوصول للوعى فقط، بل إنه يتحكم فى الوصول لقدرة الحركة الإرادية، وله تحت تصرفه طاقة تطهرية Cathartic متحركة يوزعها (جزء منها معروف لنا فى شكل انتباه) كيفما شاء لتسهل له ذلك. ولقد كان ما قبل الوعى أيضًا، والذى يسعى للإبقاء على العقل نائمًا هو الذى قاد فرويد نحو افتراضه بتشوه الأفكار فى الحلم.

ورغم ما واجهته نظريات فرويد للاوعى من إنكار وتحد وتنقيح خلال القرن العشرين، إلا أنها كانت مسئولة عن التحول الكامل الذى حدث لمفهوم الإنسان لهويته، واستيعاب نشاطه الجنسى Sexuality، وإدراكه لمسئوليته. ولقد كان إدراك الإنسان لقوى أخرى مغايرة للوعى قد تحكم رغباتنا وسلوكنا، مصدرًا للرعب للبعض، بينما رأى فيها البعض الآخر تحررًا وانطلاقًا. على أنه لا يجب القول بأن السرياليين قد فهموا جوهر عمليات التحليل النفسى، فلم يكن اهتمامهم به ذا علاقة بأهدافه العلاجية، أما ما جذبهم فهو أفكار فرويد نفسها كى يجدوا فى البحث عن حقل جديد للنشاط، وإن كانت كتاباته المكثفة بثرائها المعرفى المتشابك الأطراف، لم تمثل لهم سوى النزر اليسير لخلفيتهم الفكرية، إلا أنهم نجحوا فى تأكيد حقهم فى ارتياد مضامين أفكاره غير معتمدين على المحللين النفسانيين، وقد كانت تلك الأفكار خير شاهد على قضيتهم فى مواجهة التفكير العقلى الضيق والبراجماتية، والتى ما زال الافتراض بأنها أساسيات الحضارة الغربية والتقدم ساريا حتى الآن.

لقد كانت الأحلام، وزلات القلم واللسان Parapraxis شاهدًا حيًا على عمليات اللاوعى، كما كانت للشروح التى قدمها فرويد لعمليات العقل الحالم: التلخيص(٢) Condensation، والتعويض(٣) Substitution، وترحيل الوعى(٤) Displacement، وقبول كل ما هو لاعقلانى، والمحتوى العيانى Manifest للحلم، (تلك الأحداث التى يستدعيها الذهن بعد الاستيقاظ)، والذى ناقش فرويد معناها الكامن (وعادة ما يكون جنسيًا) وقع بعيد المدى فى تفسير السلوك البشرى بصفة عامة.. وهكذا وجد السرياليون فى الحلم صيغة جديدة للواقع، ذلك الواقع السحرى المتوافق مع الطبيعة الداخلية لهؤلاء الذين اختاروا العزلة بمحض إرادتهم، أو فرضت عليهم فرضًا، لظروفهم النفسية، ولم يجدوا عزاء سوى فى خيالهم، فأبدعوا فنا أصبح فيما بعد وعاء للصحة الأخلاقية، ولقد كانت العزلة والزهد ضمانات لكل تلك الأصالة والمصداقية، وهى سمات غابت عن أساليب جماعات فنية عديدة بينما كانت فى نفس الوقت مواصفات قياسية لإبداعات التلقائيين التى أفزعت النقاد بدقتها المهولة، وتضميناتها الحدسية اللاعقلانية.. لقد كانوا يبدعون تحت تأثير لاوعى خارج السيطرة.

كـيـف تـبلـورت حـركـة الفن التلقـائى

إذا مـا أردنا تعـريفًا شـاملاً للفنانين التلقـائيـين، فـقـد يمكن القول بأنهم هؤلاء الفنانون الذين لم يتلقوا تدريبًا منهجيا أو أكاديميا على فن التصوير، والذين يعملون بدافع ذاتى من أجل سعادتهم الشخصية، كما أنهم لا يعرفون سوى النزر اليسير من التاريخ الثقافى أو تقاليد وأصول الفنون الجميلة. وسنجد أن البعض منهم يعانى أمراضا نفسية وآخرين مهمشون اجتماعيا، وهناك قلة منهم تلقت تعليمًا جيدًا، مثل الألمانى برونو إيبله Bruno Eble (ولد عام ١٩٣١)، وكان أستاذًا للغة والتاريخ، لذا نستشعر فى لوحته أسلوبًا خاصا.

١ـ التيوليب الأبيض
٢ـ الراحة فى الغابة
٣ ـ عطيل

على أن الملاحظ بصفة عامة، أن معظمهم قد مروا من قبل بتجارب مضنية مع الفقر والإحباط والأمية، صهرتهم بوتقتها، وأطلقت

وجد السيرياليون فى الحلم صيغـة جديـدة للواقـع، ذلك الواقـع السحرى المتوافق مـع الطبيعة الداخليـة لهـؤلاء الذين اختـاروا العـزلـة بمحـض إرادتهـم، أو فـرضـت عليـهـم فرضـا، لظروفهـم النفسيـة، ولـم يجـدوا عـزاء سـوى فى خيـالهم، فأبدعـوا فنا أصبح فيمـا بعـد وعـاء للصحـة الأخلاقيـة

لوحة رقم (٤)

برونو إيبله - الراحة فى الغابة



قوى الإبداع لديهم، وبعضهم تدفعه قوى روحية داخلية قد تكون دينية أو صوفية. ويشترك الجميع فى نظراتهم اللامبالية لعالم الفنون الجميلة التقليدى. وقد أجمع النقاد على أن أعمال التلقائيين تستعصى تمامًا على الحل حيث لا يمكن تطبيق الطريقة العلمية، وهى أساس تاريخ الفن المتفق عليه، عند الحكم عليها. وقد قدم لنا شاعر الألمانية الكبير شيللر صورة الفنان التلقائى البسيط، وكأنه كان يضع معايير للشخصية الفنية للتلقائيين قبل أن تتبلور حركتهم بقرن كامل.. إنه الرجل ذو العاطفة، الرجل البسيط الذى يزاول الأشياء بشكل طبيعى، وهو الجنة المفقودة، والمثل الأعلى لكل من تهفو نفسه إلى عالم البراءة والأحاسيس النقية. إن استخدامنا الحالى للكلمة يشوبه بعض الغموض، فمعناها الإيجابى الجوهرى هو الإحساس بما يشبه الطفولة، مع شعور بعدم الالتزام بعادات وتقاليد.

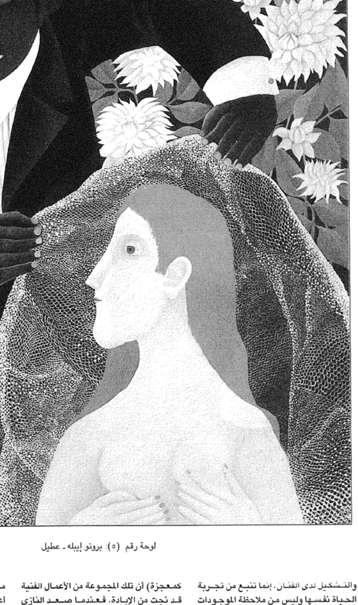
ولا يمكن الفصل بسهولة بين أعمال الفنانين التلقائيين، وبين أعمال من أطلق عليهم مرضى العقول، فالمتاحف الآن تقتنى أعمال الجدة موسى(٥) Grandma Moses (١٨٦٠-١٩٦١)، وروائع هنرى روسو Henri Rousseau (١٨٤٤ - ١٩١٠)، وهما مثالان رائعان للفن التلقائى، الذى أبدعه أشخاص أسوياء، فالأولى كانت أما لأطفال خمسة وتشارك زوجها فى إدارة المزرعة وتحيا حياة عملية عادية، وهو ما ينطبق على الثانى (مع بعض التجاوز عما تناثر حوله من قصص حول اتصاله بعالم الأرواح، وحياة الوحدة التى يحياها)، ☜

وذلك جنبًا إلى جنب مع أعمال فنانين أنشب فيهم الجنون أنيابه وقضوا حياتهم نزلاء مصحات عقلية، بل اغتيل بعضهم على أيدى النازى بدعوى قتل الرحمة، من أمثال ألويزة كورباث Aloisa Corbath (١٨٨٦ ـ ١٩٦٤)، وفرانتس بول Frantz Pohl (١٨٦٤ ـ ١٩٤٠)، وأنطونيو ليجابو Antonio Ligabue (١٨٩٩ ـ ١٩٦٥).

ويرجع الفضل فى لفت أنظار العالم المتحضر إلى فن هؤلاء المظلومين، إلى رجلين كان لهما أكبر الأثر فى بلورة حركة الفن الفطرى التلقائى، وربطهما بتيار الفن الحديث، وترسخ مبادئها: اتجاه فنى له اعتباره، وهما الألمانى برينسهورن، والفرنسى جان ديبوفيه.

فى عام ١٩٢٢، نشر الطبيب النابه هانز برينسهورن Hans Prinzhorn كتابه الرائع الذى فتح الأبواب على مصاريعها نحو البحوث فى مجال الفن التلقائى، وكان بعنوان Bildnerei der Geisteskranken (الإبداع الفنى عند مرضى العقول)، وكان برينسهورن قد بدأ حياته بدراسة الفلسفة وتاريخ الفن والغناء أيضًا، وكان ذا صوت باريتون موهوب بالفعل، ثم تحول للاهتمام بالأمراض النفسية عندما أصيبت زوجته باضطراب نفسى فى بداية زواجهما، فتحول إلى دراسة الطب وممارسته، وكما قال: «بحثًا عن مهنة لا بد للمرء فيها من أن يفعل الخير مضطرا»، وبذا كان من الشخصيات الفريدة فى تاريخ الفن. وقد حدث التحول الكبير فى حياته، والذى مكنه من تقديم أكبر خدمة لتفسير الفن التلقائى، وفن المجانين، عندما كلفه الدكتور ويليامز Williams مدير المصحة النفسية بجامعة هايدلبرج بالإشراف على إنشاء مجموعة أعمال فنية للمرضى النفسيين بغرض الدراسة العلمية. وقد بدأ برينسهورن عمله عام ١٩١٩ وكرس نفسه تمامًا لتلك المهمة واستطاع أن يجمع أربعة آلاف لوحة رسمها أربعمائة مريض من ألمانيا وسويسرا، والنمسا، وإيطاليا مع دراسات نقدية مثيرة. وكان برنستون محاضرًا نابغة أيضًا مما سبب ذيوعًا كبيرًا لكتابه، وكان أهم أهداف الكتاب هو إثبات أن هؤلاء المرضى فنانون من الطراز الأول لم تلوثهم الحياة العادية للمجتمع. ورأى أن فنهم ينبعث من الأعماق وخفايا النفس Psyche واعتبرهم صفوة تمتلك بصيرة نحو الحقيقة المطلقة. ومما لا شك فيه أن برينسهورن كان متأثرًا بالنظريات الميتافيزيقية للمذهب التعبيرى وهى الحركة الفنية الرائدة التى تبلورت فى العشرينيات من القرن الماضى فى ألمانيا، وكانت أهم سماتها الثورة ضد التقاليد التصويرية السائدة وهى ترفع شعارها : الاتجاه لما هو بدائى وروحانى والتقمص العاطفى، وهو لفظ أخذ عن الألمانية Einfuhlung (عاطفة مشاركة).

وقد شارك برينسهورن التعبيريين احتقارهم لكل ما يسعى إلى تصوير العالم من الخارج فى بساطة مخلة، وهو ما اعتنقه فن الغرب منذ عصر النهضة، ضد حرية التعبير الفردى. وفى عبارة أخرى، ركز برينسهورن على الوظيفة الذهنية للفن. وكان يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الطاقة الفنية للترتيب والتشكيل لدى الفنان، إنما تنبع من تجربة الحياة نفسها وليس من ملاحظة الموجودات المرئية أو المهارة فى النسخ التصويرى. وبدت له التعبيرية كرد فعل للجانب العقلانى للمرضى من المجتمع الحديث، والذى كادت الأجيال السابقة فيه أن تخنق أعظم الفنانين بعقلانيتها البغيضة.



لوحة رقم (٥): برونو إيبله ـ عطيل

ومن حسن حظ تاريخ الفن (وبدا ذلك كمعجزة) أن تلك المجموعة من الأعمال الفنية قد نجت من الإبادة. فعندما صعد النازى للسلطة فى عام ١٩٣٣، بدءوا فى القضاء على كل من يعانون من أمراض عقلية وتم إعدام من قاموا برسم تلك المجموعة، بعد تجميعهم فى هايدلبرج (رحمة بهم كما ادعى هؤلاء الذين اعتقدوا فى فلسفة السوبرمان..!!)، وفى يوليو ١٩٣٧ أمر هتلر بإقامة معرض فى ميونيخ للفن المنحط (كما أسماه) وعرض فيه أعمالاً للفنانين البارزين فى القرن العشرين، بمن فيهم بيكاسو، ونولده، وكوكوشكا، وطاف المعرض بالمدن الألمانية، وهو يضم أيضًا مجموعة برينسهورن جنبًا إلى جنب مع أعمال الجهابذة، ومن المعروف أن هتلر ونظامه قد طاردا كل من أصر من الفنانين الطليعيين فى فترة ما بين الحربين العالميتين، على مواصلة رسالته!!

من حسن الحظ أن كتاب برينسهورن كان قد تداولته أيدى المثقفين ورواد الفنون فى أوروبا قبل أن يستولى هتلر على السلطة، فكانت هناك نسخة لدى باول كلى استخدمها فى التدريس فى معهد الباوهاس Bauhaus فى العشرينيات، حيث كان يستشهد بالمجموعة وما تحمله من عمق تعبيرى (للدرجة التى لا

يستطيع هو نفسه أن يصل إليها، على حد قوله)، وشارك فاسيلي كاندينسكي كلي إعجابه بتلك اللوحات وخاصة ملاك الإبادة لفرانتس بول (١٨٦٤ - ١٩٤٠)، ذلك التعس الذى أعدمه النازى دون ذنب جناه سوى أنه كان مريضًا، بينما يشبه النقاد أعماله بروائع دورر وجرونفالد.

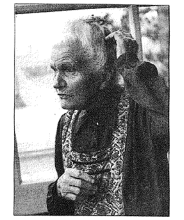
اسمه بالكامل جان فيليب آرثر دى بوفيه Jean Philippe Arther Du Buffet، ولد فى ميناء الهافر لأسرة ثرية حيث كان والده يملك تجارة للنبيذ، وفى البداية مارس دى بوفيه التصوير كفنان واعد موهوب، إلا أنه وجد الطريق أمامه مسدودًا بأعمال جهابذة الفن الحديث: بيكاسو، براك وماتيس، وقد أصابه الإحباط بالفعل، حيث أحس بعقم محاولات مواجهة هؤلاء العمالقة وهجر التصوير مرتين قبل أن يكتشف توجهه الذاتى ويعثر على ضالته أخيرًا، ويتخطى فن العظام من المشاهير، ليكشف فى أعمال المرضى النفسيين الصيغة الفنية التى مكنته من تحقيق أهدافه.

ويختلف دى بوفيه عن برينسهورن الذى كان منهجه علميا تحليليا، أما كيف تعرف دى بوفيه على فنون هؤلاء المرضى، فيرجع الفضل فى ذلك لكتاب برينسهورن الذى ذكرناه آنفًا، ورغم أنه لم يترجم إلى الفرنسية إلا فى عام ١٩٨٤، إلا أن دوائر السيرياليين الفرنسيين كانت قد بدأت فى تداوله بعد صدوره، بقليل، فكان أندريه بريتون - وهو شاعر كبير من رواد السيريالية - يعلق أهمية كبيرة على الجنون، وذكر أول مانيفستو للحركة السيريالية «مسالة الجنون الذى نضع عليه القيود، عندما يرفض الانحناء للتقاليد الاجتماعية، وأبدى إعجابه بهلوسة وأوهام المجانين.. فهم يستقون إلهامهم من المنابع الحقيقية للخيال، وكان أقطاب السيريالية يجتمعون فى الأستوديو الخاص بالشاعر والأديب أندريه ماسون Andre Mason، والذى كان قد اقتنى نسخة من الكتاب، فكان هناك خوان ميرو Joan Miro، وجورج ليمبور George Limbour، الذى اصطحب معه صديقه جان دى بوفيه، وهو يجد فى البحث عن هويته كفنان، وكانت المرة الأولى التى اطلع فيها على فن هؤلاء المبدعين التلقائيين.

وقرر دى بوفيه أن يجمع أعمال أمثال هؤلاء الفنانين المجهولين، ولم يقتصر على أعمالهم، بل ضم إليها أعمال فنانين ممن لم يتلقوا تعليمًا فنيا، والذين لم تسمع عنهم المتاحف، وأطلق عليهم اسم اللامنتمين The Outsiders، ما داموا لم تمنعهم غرابة أطوارهم من ممارسة حياتهم العادية. وقد صك دى بوفيه مصطلح الفن الفج أو الخشن Art Brut (أو الفن الخام Raw Art) مشيرًا به إلى كل إنتاج فنى سواء رسومات وتصويرا، أو تطريزا، أو الأشكال الممنجة والمنحوتة، والتى تتميز بتلقائية وابتكارية واضحة، ولا تحمل سوى النزر اليسير من سمات الفن التقليدى، والكليشيهات الثقافية المعتادة، يبدعها أناس عاديون وقد يكونون مجهولين، ومن خارج الدوائر الفنية للمحترفين، وبسبيل ذلك أسس دى بوفيه ما عرف باسم مقر الفن الخشن Foyer de L'Art Brut (وهو نفس التصنيف الذى أطلقه النقاد على أعمال دى بوفيه نفسه)، والذى نجح فى خلال خمسة وعشرين عامًا، أن يكوّن مجموعة فريدة ضمن ثلاثة آلاف عمل فنى أبدعها فنانون تلقائيون تنوعت مهنهم ما بين خباز وإسكافى وساعى بريد، وعمال مناجم، وآخرين من اللامنتمين، ومنهم من حقق شهرة عالمية، ووضعت أعماله جنبًا إلى جنب مع رواد الفن الحديث من الأكاديميين.

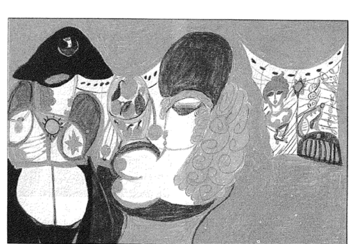
بين الفن التلقائى والفن الشعبى

الملاحظ أن هناك الكثير من الخلط بين الفن الشعبى والفن التلقائى، إلا أن هناك فروقًا جوهرية بينهما لا بد لمتذوق الفن أن يكون متنبهًا لها، فالفن الشعبى لا يدرك الوظيفة الجمالية الذاتية للعمل الفنى، فهو فن يكمن فى جوهره أنه فن تطبيقى، لا تظهر وظائفه إلا من خلال عالم ما هو نفعى، ومن ثم فإن قيمته ليست فى تفرده، بل بالأحرى فى إخلاصه وأمانته فى نقل نماذج سابقة (الموروث الشعبى)، وهو لا يعرف أى تنويع فى التعبير الذاتى، وقد تميز الفن الشعبى بخاصية تفرد بها، وهى أنه لم يكن هناك على الإطلاق تلك المسافة التى تفصل أذواق الجماهير العريضة عن الأعمال الفنية، فهناك تطابق تام بين المنتجين والمستهلكين للفن الشعبى، والفن الشعبى نفسه يحمل خاتم العقلية العامة، فهو لا يبتعد أبدًا عن الإطار العام للتقاليد والعادات المحلية، كما لا يتخذ موقفًا متعارضًا فى مواجهة الإدراك الحسى الاجتماعى البسيط، وبذا يكون على طرفى نقيض مع الفن التلقائى - هبة التفرد - بما يمتلكه من تجربة فردية بالدرجة الأولى، تدير ظهرها تمامًا لكل الموروثات والتقاليد الفنية. إذن فمن الممكن القول إن الفن الشعبى ما هو إلا نتاج تجارب تراكمية يلعب فيها الموروث والأعراف والتقاليد الدور الأساسى، بحيث لا تخطئ العين الموروث الشعبى للفنان وعشيرته، أما الفن التلقائى فالتجربة الشخصية فيه هى الفيصل، بما تشكله من صدمة غير متوقعة للمتلقى، إذا ما أدرك أن اللاشعور ليس مخزنًا مهملاً، بل هو مكان شديد الحيوية يشبه حديقة الحيوان، على حد قول عالم التحليل النفسى إيريك برن Eric Berne. أما نقطة التلاقى الوحيدة بين الإثنين فهى أن الفنانين الشعبيين نادرًا ما يشكلون نماذج واقعية لما هو موجود فى الطبيعة المرئية، فهم يقومون بكل بساطة بالمبالغة والتبسيط وتعديل التكوينات لما هو موجود أمامهم من موضوعات، وهم بذلك لا يعملون إلا تحت تأثير توتراتهم العاطفية، وبذا يربطون بين تجاربهم المحلية والعالم الخارجى، وعند التلقائى، لا يتم التواصل بينه وبين العالم الخارجى إلا من خلال تجربته الذاتية.



لوحة رقم (٦)
لويزة كوريك
صور فوتوغرافية

وما من شك أن الإبداع الفنى يتأثر على نحو مباشر بالتحولات الاجتماعية، وما يطرأ على البيئة المحيطة بالفنان من تغيير، فالفن لا يمكنه أن يتطور بمنطقه الداخلى الخاص دون تدخل من مؤثرات شتى تنتمى إلى مجالات خارجة عنه، فهناك دائمًا رابطة قوية بين الفن وما يسمى بالعامل الاجتماعى، والذى هو فى الواقع مجموعة عوامل اقتصادية وسياسية وثقافية وتاريخية فى آن واحد، بل إن العامل العرقى (الإثنوجرافى Ethnographic) ليشكل هو الآخر إطارا عامًا لشخصية الفنان المبدع، ومهما كانت الظاهرة الفنية، فلا بد من إلقاء الضوء عليها فى نطاق الحياة الاجتماعية، والحضارة الإنسانية عمومًا. ولا يمكن أن تكفى شخصية الفنان، والظروف الفردية التى مر بها داخل بيئته التى ترعرع فيها، لكى يتم وضع تصور ومفهوم واضح عنه، علمًا بأن دوافع الفن التلقائى ما زال يشوبها بعض الغموض، خاصة أنها دوافع فردية لكل فنان تلقائى على حدة. وبصفة عامة، نجد أنه كلما تعقدت المجتمعات، وتقدمت مظاهر الحضارة، قل الارتباط بين الفن والظروف البيئية المحيطة به، وبعبارة أخرى، كلما ارتفع مستوى الثقافة التى ندرس فنها، تعقدت شبكة العلاقات البيئية، وزاد غموض الأصل الاجتماعى للظاهرة الفنية، إلا أنه لحسن الحظ، فإن التفسيرات الاجتماعية للظاهرة الفنية تكون أكثر سهولة كلما كان العصر الذى حدثت فيه تلك الظاهرة أقرب إلينا، حيث تتجمع المعلومات بوفرة، وإذا ما كانت ظاهرة الفن التلقائى قد تبلورت فى أوروبا أولاً، فإن ذلك يرجع إلى وجود تراكم ثقافى، وتاريخ للفن مدون على نحو أكاديمى، مع رصد للظواهر الفنية والاجتماعية أولاً بأول، إلا أنه ما من شك أنها كانت موجودة داخل مجتمعات عديدة عبر القارات الخمس، غير أنها كانت تحتاج دومًا لمن ينقب عن هؤلاء الموهوبين المهمشين، وهناك بوادر لذلك فى مصر من خلال الدراسات الأكاديمية فى كليات الفنون.

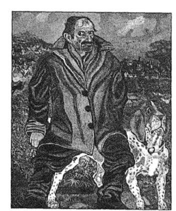


لوحة رقم (٧)
لويزة كوريك - مرآة الكريسماس

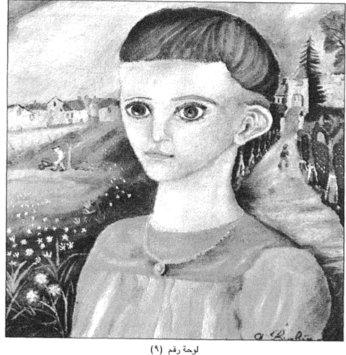
ومع تصاعد الاهتمام بالفن التلقائى، والتزايد المستمر فى أعداد الفنانين الذين قد يمكن إدراجهم فى قوائم التلقائيين، تتردد أسئلة ملحة فى أوساط النقاد والمؤرخين عما إذا كان هذا الفن يحقق تقدمًا بالفعل، وعما إذا كان مثل هؤلاء الفنانين يقفون بمعزل عن حركة تاريخ الفن وأساليبه، وهل ما يحققه الفن التلقائى من شعبية متزايدة علامة على استمراريته، أم هو مجرد ظاهرة وتنويع على فنون التصوير البدائية..؟ وهل يمتلك الفن التلقائى من الديناميكية ما يؤهله لتجديد نفسه بوسائله مستقلاً، أم هل سيتوقف عن أن يكون هو نفسه بمجرد ما يخرج جوهره الفريد بوسائل زائفة ومصطنعة؟



والملاحظ أن الفن التلقائى يكتسب كل يوم أرضًا جديدة، وهو يصادف شغفًا ملحوظًا بين المهتمين بالفن. فمع الإنجاز المعلوماتى المتزايد، والتسارع الهائل فى المنجزات التقنية



لوحة رقم (٨)
انطونيو ليجابو - صورة مع كلب



لوحة رقم (٩)
انطونيو ليجابو - صورة ألبا

لوحة رقم (١٠)
د. هانز برنسهورن

المعقدة لعصرنا الراهن، ترتفع أصوات الشكوى من أن الحياة لم تعد تتيح لنا لحظات يمكننا أن نخلو فيها إلى أنفسنا، وتسمح لنا بالاسترخاء بعد يوم طويل من العمل الشاق، والذى ألبسته الرتابة ثوبًا رماديا من الكآبة والملل، الأمر الذى أصبح الإنسان يشعر معه أنه يفقد جزءًا حيويا من آدميته وبساطته وتلقائيته.

خـــــاتمة

إن الكشف عن تلك المواهب يبدو وكأنه كشف عن حفريات نفيسة وروائع لا تظهر إلا عندما يهز الزلزال القشرة الأرضية ويقذف بها إلى السطح، فى أرض أناس لم يكونوا يدرون عنها شيئًا على حد قول الدكتور بنيامين روش Benjanin Rush: أول من قام بجمع الأعمال التى أبدعها الفنانون التلقائيون فى أمريكا، والآن يقتنع كثير من محبى الفنون الجميلة، ونقاد الفن بأنه لا يمكن التغاضى عن مكانة التلقائيين ضمن مسيرة الفن فى القرن العشرين، وإن كان عالم النفس الفرنسى تويليه Thuillier قد رفض التسليم بالقيمة الفنية لهم مدعيًا أنهم لا يجيدون المنظور أو مزج الألوان، ولا يملكون المهارات الأساسية، وقارنهم بالمصورين البدائيين فى كهوف ما قبل التاريخ، فإنه قد مدحهم بالفعل دون أن يدرى، أما ديبوفيه أكبر نصير لحركة الفن التلقائى فقد قال: «.. إذا ما صنفنا الإبداع الفنى فى التصوير فلا بد أن ندرك أنه لا يوجد ما يقال له فن المجانين أو فن المصابين بعسر الهضم، أو المصابين بالروماتيزم، فالآليات النفسية Psychological Mechanisms التى يحتويها الفن فى جميع صوره تدفعنا إلى تصنيف كل الفنانين على أنهم أصحاب حالات مرضية نفسية ممن يقال لهم سيكوباتيين، أو توسيع مفهومنا عما هو صحى وطبيعى بحيث يضم بين جنبيه كل صور الاضطراب النفسى والجنون والاغتراب».



لوحة رقم (١١)
فرانتس بول - صورة شخصية



لوحة رقم (١٢)
فرانتس بول - ملك الإبادة

والخلاصة أن الفن التلقائى مقصور فى مظهره الإبداعى على أفراد معينين، يملكون مواهب أو مهارات معينة، وهى ليست قدرات فكرية أو أسلوبية فى معظمها، وإنما قدرات تعبيرية تجسيدية تحيل الأشياء المجردة إلى أجسام، وقد تحيل تلك الأجسام إلى مجردات ورموز على نحو شديد الخصوصية، وهم يعبرون عن همومهم وأحلامهم ووساوسهم ورؤاهم. وبهذه القدرات استطاع الفنانون التلقائيون أن يخاطبوا المشاعر والأحاسيس، من خلال صدقهم أولاً، ثم بغرابة تجاربهم الذاتية ثانيًا، وثالثًا بعدم تأثرهم بأى قواعد أو تقاليد فنية، كما لو كان عقلهم اللاواعى يعمل طول الوقت، ولا عجب أن أطلق بعض النقاد على هؤلاء الفنانين اسم اللامنتمين The Outsiders.

وما زالت المعركة لم تحسم بعد لإقامة علاقات سوية بين التراث الثقافى العام والفن التلقائى. ■

المراجع

(1) Outsider Art -n Jean Louis Terrail - 1997
(2) Self Taught Artists of The 20Th Century-Chronicle Books - San Francisco 1998.
(3) Art Unsolved - Irish Museum of Modern Art - Dublen - 1998.
(4) Der NaiveMaler Bruno Edle - Rudiger Zuck - Verlag Stadler 1977

هوامش

(١) أوجسط نيتر August Neter (١٨٦٨-١٩٣٣) ولد فى رافنسبورج Ravensburg بولاية بادن فورتنبرج، وكان فنيا ميكانيكا ماهرًا، عمل فى فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة قبل أن يعود لألمانيا ويدير منشأة خاصة به. فى عام ١٩٠٧ فقد شهيته تمامًا للعمل وحاول الانتحار وتم تشخيص حالته كفصام حاد مصحوب بهذيان، وفى المصحة التى ادعى فيها مرة أنه حفيد نابليون الأول واتخذ لقب أوجسط الرابع، ومرة أخرى أنه المسيح، بدأ فى إنتاج أعماله التى جلبت له شهرة عالمية ومنها: الراعى العجيب Miraculous (رسم بالقلم الرصاص ٢٤,٥×١٩,٥سم)، ومحور العالم والأرنب البرى Axid of the world and Hare (رسم بالقلم الرصاص والالوان المائية ٢٠٥×٢٦١سم) وتحولات التنورة Metamorphoses of the Skirt (رسم بالقلم الرصاص ١٦×١٠سم)، وكلها من مجموعة برينسهورن Prinzhorn. جامعة هايدلبرج، وتوفى نيتر فى مصحة روتفايل Rottweil، وبذا كان سعيد الحظ بنجاته من المذبحة التى أعدها النازى لأمثاله بدعوى قتل الرحمة Euthanasia.

(٢) انصهار فكرتين أو أكثر.. إلخ فى رمز واحد، ويحدث ذلك بصفة خاصة فى الأحلام.

(٣) إحلال منتظم لتعبير ما بآخر.

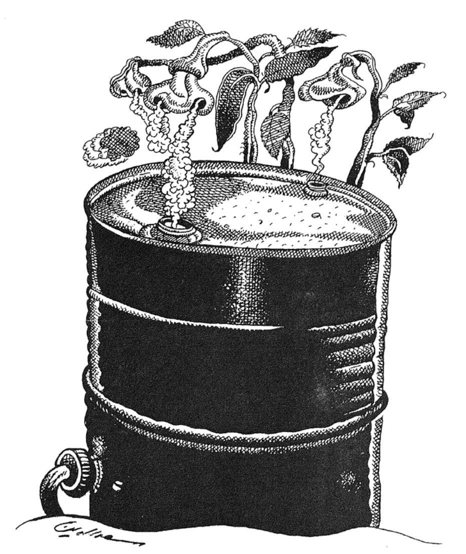
(٤) نقل المشاعر العاطفية من موضوعها الأصلى إلى موضوع آخر يخفى طبيعتها الواقعية.

(٥) أنا مارى روبرتسون موسى Anna Mary Robertson Moses (1860-1961) فنانة تلقائية أمريكية اشتهرت باسم الجدة موسى حققت شهرة مدوية استمرت خمسين عامًا، وتحولت إلى شخصية قومية (احتفلت البلاد بعيد ميلادها المئوى)، أعادت إحياء أجواء القرن التاسع عشر ونفخت فيها روحًا جديدة بأسلوبها الخاص، من أشهر أعمالها: عشية عيد القديسين Halloween (١٩٥٥)، والأزمنة القديمة Old Times (١٩٥٧)، وخياطة اللحاف The Quilting (١٩٥٠).

آثار حماية البيئة



يرى بعض الخبراء أن الخسائر التى قد تترتب على ارتفاع حرارة الغلاف الجوى تتضاءل إلى جانب الخسائر الاقتصادية التى تلحق بالاقتصاد العالمى نتيجة لفرض المزيد من ضرائب الطاقة. فالاحتباس الحرارى من شأنه إبطاء معدلات النمو الاقتصادى وهو ما يسبب خسائر لا تتجاوز ٢٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى GDP على مستوى العالم على مدى مائة عام



ينطلق إلى الغلاف الجوى بمعدلات كبيرة غاز ثانى أكسيد الكربون Carbon Dioxide (CO_2) كنتيجة لعوامل طبيعية. ولكن المبتعث من ذلك الغاز بفعل الطبيعة تمتصه عوامل طبيعية كالأشجار والنباتات، وبذلك يتحقق التوازن فى المدى الطويل. غير أن النشاط البشرى يطلق أيضا كميات متزايدة من ذلك الغاز مما يؤدى إلى زيادة تركزه فى الغلاف الجوى محدثا ما يعرف بظاهرة البيت الزجاجى أو الاحتباس الحرارى Greenhouse Effect وهو ما يؤدى بدوره إلى ارتفاع درجة حرارة الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية Global warming. ومن هنا اتجه أنصار حماية البيئة إلى الربط بين ما ينبعث نتيجة للنشاط البشرى وبين هذه الظواهر التى تهدد نوعية الحياة على كوكب الأرض. وتأييدا لتلك النظرية يقول حماة البيئة إن درجة تركز CO_2 قد ارتفعت على مدى الأعوام المائة الماضية من نحو ٢٩٠ إلى ٣٥٠ جزءًا فى المليون بمعدل نمو يتراوح بين ٢٠٪ و٢٥٪ خلال الفترة المذكورة. وتشير الدراسات التى قدمت لمؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية UN Conference on Environment and Development، الذى عقد فى ريو دى جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢ ويعرف باسم قمة الأرض Earth Summit، إلى أن متوسط درجة حرارة الغلاف الجوى قد ارتفع خلال الأعوام المائة الماضية بما يتراوح بين ٠,٣ و٠,٦ درجة مئوية. وكان المبتعث من الكربون نتيجة للنشاط الصناعى وغيره من الأنشطة البشرية لا يتجاوز ١,٦ مليار طن عام ١٩٥٠ إلا أن نمو استهلاك الوقود الحفرى (وهو أساسا الفحم والبترول والغاز الطبيعى) صاحبه نمو تلك المبتعثات بحيث بلغت فى عام ١٩٩٠ نحو ستة ملايين طن كربون. وإذ يتأكسد الكربون بحيث يتحول طن الكربون إلى ما يعادل نحو ٣,٦٧ طن ثانى أكسيد الكربون CO_2 فإن مبتعثات ذلك الغاز تقدر بنحو ٢١ مليار طن فى عام ١٩٩٠ وبنحو ٢٣ مليارًا عام ١٩٩٦. وإذا بقيت الأمور على ما هى عليه، فإن المتوقع أن تبلغ مبتعثات ثانى أكسيد الكربون نحو ٣٠ مليار طن عام ٢٠١٠ ونحو ٣٧ مليارًا عام ٢٠٢٠. ويرى بعض أنصار حماية البيئة أن ذلك التطور من شأنه أن يرفع حرارة الغلاف الجوى بحلول عام ٢٠٥٠ بحيث تؤدى إلى إذابة الغطاء الجليدى فى القطبين الشمالى والجنوبى فيرتفع مستوى المياه فى البحار والمحيطات لكى يغرق الأراضى الواطئة فى الكرة الأرضية.



ويرد بعض الخبراء على هذه النظرية بأن

Kyoto Protocol

بروتوكول كيوتو

UN Conference of the Parties (COP).
Kyoto December 1997

على عوائد النفط العربى

حسين عبدالله

الخسائر التى قد تترتب على ارتفاع حرارة الغلاف الجوى تتضاءل إلى جانب الخسائر الاقتصادية التى تلحق بالاقتصاد العالمى نتيجة لفرض المزيد من ضرائب الطاقة. فالاحتباس الحرارى من شأنه إبطاء معدلات النمو الاقتصادى وهو ما يسبب خسائر لا تتجاوز ٢٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى GDP على مستوى العالم على مدى مائة عام. أما آثار الضرائب الإضافية فمن شأنها تقليص استخدام الطاقة وهو ما ينعكس على الاقتصاد العالمى بآثار انكماشية تفوق ذلك كثيرا، وبصفة خاصة فى الدول النامية التى تحاول جاهدة اللحاق بركب الدول المتقدمة. ويخلص من يعارضون ضرائب الكربون إلى أن العالم ما زال فى حاجة لإجراء المزيد من الأبحاث العلمية بغية التوصل لتعريف حقيقة المشكلة. ومتى تحقق ذلك يمكن تحديد العلاج الناجع بدلا من التسرع بتنفيذ سياسات وقرارات متعجلة لا يمكن تلافى آثارها الضارة متى تم تنفيذها.

ويتركز الاهتمام العالمى بالبيئة، بصفة أساسية، فيما تم إنجازه بإشراف الفريق الحكومى الدولى للتغير المناخى UN Intergovernmental Panel on Climate Chang (IPCC) الذى تاسس فى إطار الأمم المتحدة عام ١٩٨٨ وعهد إليه بمهمة تقويم المعلومات المتعلقة بالتغير المناخى من الزوايا العلمية والفنية والاقتصادية والاجتماعية. ومن تلك الإنجازات وضع الاتفاقية الإطارية للتغير المناخى Framework Convention of Climate Change (FCCC) التى اعتمدتها الأمم المتحدة يوم ٩ مايو ١٩٩٢ وعرضت لتوقيع ممثلى الدول أثناء انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية الذى انعقد فى ريو دى جانيرو بالبرازيل يوم ٤ يونيو ١٩٩٢. وقد تعهد الموقعون على الاتفاقية بوضع برامج لمعالجة التغير المناخى وتبنى سياسات محلية فى كل دولة عضو لتحجيم GHG عند مستوى عام ١٩٩٠.

وتنفيذا لتلك التعهدات عقدت بعد ذلك عدة مؤتمرات عرفت بمسمى مؤتمر الأعضاء Conference of the Parties (COP). وقد انتهى المؤتمر الثالث فى كيوتو باليابان باعتماد بروتوكول كيوتو Kyoto Protocol الذى وضع أهدافا محددة كميا لمبتعثات الكربون فى الدول المتقدمة ودعا لاتخاذ التدابير الكفيلة بتحقيقها خلال الفترة ٢٠٠٨ ـ ٢٠١٢. وإذ يمكن اعتبار عام ٢٠١٠ كمتوسط لتلك الفترة، فإننا سوف نستخدم العام المذكور ـ افتراضا ـ باعتباره نهاية الإطار الزمنى المحدد لتحقيق أهداف البروتوكول.

ويقضى بروتوكول كيوتو ـ متى أصبح نافذا ـ بإلزام الدول الصناعية خفض مبتعثات الاحتباس الحرارى بما يتراوح بين ٥,٢٪ و١٠٪ تحت مستوى ١٩٩٠ بحلول الفترة ٢٠٠٨ ـ ٢٠١٢. وبذلك يتوقع أن تتأثر أنماط استهلاك الطاقة خلال المستقبل المنظور تأثرا جوهريا بما يتخذ على المستوى العالمى من تدابير لحماية البيئة. ذلك لأن حجم مبتعثات الكربون المرتبطة باستهلاك الطاقة يعتمد من ناحية على حجم النشاط الاقتصادى معبرا عنه بالناتج المحلى الإجمالى GDP، كما يعتمد من ناحية أخرى على طبيعة خليط الطاقة المستخدمة. وتقاس العلاقة الأولى بحجم ما يستهلك من الطاقة لإنتاج وحدة من الناتج المحلى الإجمالى ويطلق على هذا المقياس «كثافة الطاقة» Energy intensity. كما يستدل على طبيعة خليط الطاقة المستهلكة، والذى يضم وقودا حفريا إلى جانب وقود غير حفرى، بما يعرف بكثافة الكربون Carbon intensity. ومن مؤدى ذلك الارتباط المزدوج أن محاولة تثبيت حجم مبتعثات الغازات الملوثة أو خفضها على المستوى العالمى لابد أن يتحقق إما بخفض كثافة الطاقة، أى تحسين كفاءتها، أو بخفض كثافة الكربون، أى إحلال وقود غير حفرى محل وقود حفرى، أو بكليهما معا. وهذا ما يحتاج لبعض التعريف:

فكثافة الطاقة تقاس بحجم ما يلزم استهلاكه من الطاقة، معبرا عنه بوحدات مثل طن أو برميل بترول معادل، لإنتاج وحدة من الناتج المحلى الإجمالى معبرا عنه بوحدات نقدية كالدولار. ويتأثر هذا المقياس بمستوى كفاءة الأجهزة الرأسمالية الموجودة، مثل محطات توليد الكهرباء، والأجهزة المعمرة التى يستخدمها المستهلك النهائى فى استهلاك الطاقة، ووسائل النقل والمواصلات ..إلخ. وتتأثر كفاءة الأجهزة والمعدات المستخدمة للطاقة بدورها بالأسعار النسبية للطاقة وغيرها من مدخلات الإنتاج مثل رأس المال والعمل. وكلما كانت كلفة الطاقة أعلى من كلفة غيرها من عوامل الإنتاج ازداد الحافز للاستثمار فى تنمية تكنولوجيات كفاءة الطاقة وفى دعم أنشطة البحث والتطوير R&D الموجهة لتحسين تلك الكفاءة. وبالمثل، إذا كانت الطاقة تمثل جانبًا مهمًا من ميزانية المنتج ازداد الاهتمام بكلفة الطاقة وحجم استهلاكها وارتفع بذلك الحافز لترشيدها. وبعكس ذلك يكون الحال، كلما انخفضت أسعار الطاقة أو تضاءلت كلفتها، واستمر ذلك لفترة طويلة. ففى تلك الحالة يتقلص الحافز للإنفاق على ترشيدها ورفع كفاءتها.



وقد انخفضت كثافة الطاقة بصورة مطردة فى معظم الدول الصناعية كنتيجة لارتفاع أسعار البترول وما اقترن بها من شح الإمدادات خلال عقد السبعينيات. ومن ذلك ما حدث فى الولايات المتحدة إذ انخفضت كثافة الطاقة فيها، وخاصة بعد تصحيح أسعار البترول فى أعقاب حرب أكتوبر، بمعدل ٢,٢٪ سنويا فى المتوسط خلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٨٦، وذلك نتيجة لتحول الاقتصاد إلى الأنشطة الأقل كثافة فى استخدام الطاقة ونتيجة أيضًا للتقدم التكنولوجى خلال تلك الفترة. أما خلال الفترة ١٩٨٦ ـ ١٩٩٨، وهى الفترة التى تآكلت خلالها أسعار البترول، وبعد أن أنجزت برامج ترشيد الطاقة أهم أهدافها فى تحجيم الهدر فى استخدام الطاقة، فقد تضاءل معدل انخفاض كثافة الطاقة إلى نحو ١٪ سنويا فى المتوسط.

أما كثافة الكربون فتقاس بكمية الكربون الذى يتخلف عن إنتاج وحدة من الطاقة، ومن ثم فإن تلك الكثافة تختلف باختلاف المحتوى الكربونى لكل مصدر من مصادر الطاقة المستخدمة. فالطاقة النووية ومعظم مصادر الطاقة الجديدة والمتجددة، مثل طاقة الرياح والشمس والطاقة الكهرومائية Hydroelectricity، لا يتخلف عنها شىء من الكربون. أما مصادر الطاقة الحفرية فيختلف محتواها الكربونى بحسب المصدر، إذ يرتفع ذلك المحتوى بالنسبة لكل وحدة حرارية منتجة فى حالة الفحم، ويتدرج انخفاضا فى الزيت ثم فى الغاز الطبيعى. ومن ذلك أن احتراق ما يعادل طنا من البترول Ton of oil equivalent (toe) تحت ظروف معيارية متماثلة يتخلف عنه فى حالة الفحم نحو ١,٠٥ طن كربون، بينما يتخلف عن البترول ٠,٨٢ طن كربون ويتخلف عن الغاز الطبيعى ٠,٦٣ طن كربون. ومن هنا يعتبر خليط الطاقة المستخدم فى أية دولة ذا دلالة حاكمة فى تحقيق الأهداف البيئية، إذ تتوقف قدرة الدولة فى خفض المنبعث من الغازات الملوثة على قدرتها فى إحلال مصدر للطاقة ذى محتوى كربونى منخفض محل مصدر ذى محتوى كربونى مرتفع.

وإذ يتوقع أن يتقلص استخدام الطاقة النووية لما يحيط بها من مخاطر فإن الغاز الطبيعى يعتبر المنافس الأقوى بين المصادر التى يمكن أن تحل محلها، وذلك لما يتمتع به من صفات بيئية حميدة. أما الطاقة الكهرومائية وإن كانت تخلو من الغازات الملوثة إلا أن إمكانياتها ستظل محدودة، لأن أغلب المواقع التى تصلح لاستغلال تلك الطاقة فى الدول الصناعية قد تم استغلالها بالفعل، ولا يتوقع أن يتجاوز نصيبها ٨٪ من الاستهلاك العالمى للطاقة خلال المستقبل المنظور.

ولا يبقى من مصادر الطاقة المتجددة التى يمكن التوسع فى استخدامها مستقبلا سوى طاقة الرياح والطاقة الشمسية، وخاصة الخلايا الشمسية الفلطائية Photovoltaic cell، وطاقة الكتلة الحيوية ذات الحلقة المغلقة Closed loop biomass. ومع أن استخدام تلك المصادر لا يتخلف عنه كربون إلا أن نصيبها سيظل أيضا محدودا خلال المستقبل المنظور. ولذلك يتوقع أن تظل مصادر الوقود الحفرى تلعب الدور الرئيسى فى مواجهة الاحتياجات العالمية المتزايدة من الطاقة.

وتختلف التحديات التى تواجهها الدول الصناعية، فى مجال مكافحة الأضرار البيئية الناتجة من استهلاك الطاقة، عن نظائرها التى تواجه الدول النامية. فالدول المتقدمة استطاعت أن تحقق ما حققته من نمو اقتصادى بفضل ما أتيح لها من مصادر رخيصة نسبيا من الوقود الحفرى. وبالنظر لضخامة المستثمر فى المعدات الرأسمالية المستخدمة لذلك الوقود، فإن تلك الدول سوف تحتاج لوقت أطول حتى تتمكن من إحلال مصادر ذات محتوى كربونى منخفض محل المصادر ذات المحتوى الكربونى المرتفع، وحتى تتمكن أيضًا من استبدال الأجهزة والمعدات اللازمة لذلك الإحلال. ومن هنا يتمثل التحدى الذى تواجهه الدول الصناعية المتقدمة فى استنباط سياسات تستهدف حماية البيئة على المستوى العالمى، وتوفر لهذه الدول، فى نفس الوقت، المرونة الزمنية التى يتطلبها تعديل نظم الطاقة فيها بما يحقق تلك الأهداف.

أما بالنسبة للدول النامية، فسوف يتطلب الأمر أن تواصل كفاحها لتحقيق أهدافها التنموية، وإن كان فى مقدورها الاستفادة من التجارب التى مرت بها الدول الصناعية فى مجال التنمية الاقتصادية. فالكثير مما يوجد الآن فى الدول الصناعية من بنية صناعية ومعدات رأسمالية مستهلكة للطاقة لا يزال نظيره فى طور البناء فى الدول النامية. وفى ذلك ما يعتبر ميزة ينبغى أن تستغلها الدول النامية لكى تحسن اختيارها منذ البداية فيما تقتنيه من تلك المعدات ومن مصادر الطاقة الأكثر مناسبة لتحقيق الأهداف البيئية والتنموية فى آن واحد.

يتمثل التحدى الذى تواجهه الدول الصناعية المتقدمة فى استنباط سياسات تستهدف حماية البيئة على المستوى العالمى، وتوفر لهذه الدول، فى نفس الوقت، المرونة الزمنية التى يتطلبها تعديل نظم الطاقة فيها بما يحقق تلك الأهداف



سيناريوهات لمواجهة المشكلة

قامت منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) ببناء سيناريو استرشادى Reference caseلقياس التغيرات التى يمكن أن يعكسها بروتوكول كيوتو على إنتاج وصادرات الدول الأعضاء فى المنظمة وعلى حصيلة عوائدها المالية الناتجة من تلك الصادرات. ويفترض السيناريو أن سعر البترول سوف يتراوح حول ١٧ دولارا لبرميل من سلة أوبك، وأن السعر سوف يتدرج ارتفاعا (بدولارات ثابتة القيمة) بمعدل ١,٥٪ سنويا فى المتوسط خلال المدى المتوسط والطويل. وبذلك يرتفع السعر (بدولارات ١٩٩٨) إلى ١٩,٤ دولار عام ٢٠١٠ وإلى ٢٢,٥ دولار عام ٢٠٢٠. ومعنى ذلك أن السعر ـ معبرا عنه بالدولارات الجارية ـ سوف يتدرج ارتفاعا بمعدل التضخم السنوى فى الدول الصناعية أو بمقدار ما يصيب الدولار من انخفاض فى قيمته بالنسبة للعملات الأخرى، وذلك للمحافظة على القيمة الحقيقية لأسعار البترول. وفى رأينا أن تلك القيمة لا تقل عن ٣ ـ ٤٪، وبذلك لا يقل معدل ارتفاع السعر الجارى عن ٥٪ سنويا فى المتوسط.

آثار كيوتو على استهلاك البترول

يتوقف تنفيذ بروتوكول كيوتو على تصديق ما لا يقل عن ٥٥٪ من دول الملحق الأول مما لا يقل نصيبها من مبتعثات دول الملحق الأول عن ٥٥٪ عام ١٩٩٠. وقد بدأت منذ مطلع التسعينيات محاولات الاتحاد الأوروبى لفرض ضريبة للكربون على مستوى الاتحاد لتحجيم المبتعثات الملوثة، ولكن تلك المحاولات ما زالت تتعثر، والأرجح أن كل دولة سوف تقوم بتبنى هيكل ضريبى فى إطار سياسة محلية موجهة لحماية البيئة وتحقيق أهداف كيوتو. وقد سارع بعض دول الاتحاد الأوروبى بالفعل إلى إضافة ضرائب تحت مسمى الكربون إلى الهياكل الضريبية القائمة، ولكن دون الالتفات إلى التزامات كيوتو التى لم تصدق عليها بعد. كذلك أبدت الولايات المتحدة أنها ستواجه عقبات كبيرة إذا فكرت فى فرض ضرائب جديدة بمستوى مؤثر. وقد فشل الرئيس كلينتون فى تمرير اقتراحه الخاص بفرض ضريبة على أساس وحدات الحرارة البريطانية المستهلكة وذلك بحجة تأثيرها السلبى على معدل البطالة. كذلك رفض الكونجرس الأمريكى الموافقة على ضريبة هزيلة بمعدل ٤,٣ سنت أمريكى لكل جالون من الوقود المستخدم فى النقل والمواصلات. ولعل فى ذلك ما يفسر انحياز الولايات المتحدة إلى جانب المطالبين بالتوسع فى تجارة صكوك الكربون، وهى وسيلة أجازها كيوتو وبمقتضاها تقوم دولة بخفض مبتعثات ليست ملزمة بخفضها ثم تبيع صكا بما حققته لدولة أخرى من دول الملحق الأول لكى تستخدمه فى الوفاء بالتزاماتها. وبديهى أن تحمل الدول التى تشترى تلك الصكوك بثمنها أو بتكلفة المشروعات التى حققتها سوف يلقى على كاهلها من الأعباء المالية ما يوازى ضرائب الكربون المحلية. غير أن استخدام تلك الوسيلة لا يحمل صورة الضرائب الظاهرة ويتمشى مع نظام منفذ بنجاح فى الإطار المحلى، وهو التجارة فى صكوك ثانى أكسيد الكبريت فى الولايات المتحدة. ولذلك يعتبر شراء صكوك الكربون من دولة أخرى أسهل قبولا لدى المواطن الأمريكى من فرض ضرائب جديدة.

وعلى الرغم من أن استخدام الضرائب فى دول الملحق الأول كوسيلة لتحقيق أهداف كيوتو يعتبر احتمالا ضعيفا. فسوف نقوم بتحليل عدد من السيناريوهات التى تقوم على افتراض استخدام الضرائب كوسيلة وحيدة لتحقيق أهداف كيوتو. وقد تحددت تلك الأهداف فى المناطق الثلاثة المكونة للمجموعة الصناعية الغربية (وهى شمال أمريكا وغرب أوروبا والباسفيك) كما يلى، منسوبة إلى مستوى مبتعثات كل منطقة عام ١٩٩٠: شمال أمريكا خفض ٦,٥٪، وغرب أوروبا خفض ٨٪، والباسفيك (اليابان وأستراليا) خفض ٣,٢٪.

ويفترض السيناريو الأول والمسمى Kyoto Alone أن كلا من المناطق الثلاثة سوف يفرض من ضرائب الكربون ما يكفل تحقيق التزامه بحلول ٢٠١٠ وفقا لبروتوكول كيوتو. كذلك يفترض السيناريو الأول أن تأثير تلك الضرائب سوف يكون محايدا من حيث وقعه على مستوى الدخول والتضخم. بمعنى أن الدولة سوف تعيد ضخ الحصيلة فى الاقتصاد المحلى فى صور مختلفة، مثل خفض ضرائب الدخل أو أقساط التأمين الاجتماعى أو زيادة إعانات البطالة. وبذلك يعاد تدوير الحصيلة بما يحافظ على قوة الدفع السابقة على تحصيلها.

كذلك يفترض السيناريو الأول أن أسعار البترول ستظل دون تغيير عند مستواها المفترض فى سيناريو أوبك، بمعنى أن أى انخفاض فى الطلب على البترول، نتيجة لفرض الضرائب، سوف تمتصه أوبك بتخفيض مماثل فى حجم إنتاجها وصادراتها مع الحفاظ على السعر دون أية زيادة، وأنها وحدها دون سائر المنتجين من سيتحمل عبء هذا الخفض فى الطلب على البترول.

ومن شأن فرض الضرائب وفقا للسيناريو الأول بمعدلات تبلغ لكل طن CO_2 نحو ٦٨ دولارا فى شمال أمريكا ونحو ١٢٨ دولارا فى غرب أوروبا ونحو ٩٤ دولارا فى الباسفيك، أن ينخفض الطلب على البترول فى المناطق الثلاثة بنحو ٦,٥ مليون ب/ى سنويا فى المتوسط حتى عام ٢٠١٠ بحيث يبلغ نحو ٤٢ مليون ب/ى بدلا من ٤٨,٥ مليون ب/ى فى حالة عدم فرض ضرائب الكربون. وينعكس هذا الانخفاض فى الطلب على أوبك فى صورة انخفاض فى إنتاج الدول أعضاء المنظمة بنحو ٧ ملايين ب/ى فى عام ٢٠١٠ بحيث يبلغ ٣٢,٧ مليون ب/ى بدلا من ٣٩,٦ مليون ب/ى. ومن مقتضى ذلك الانخفاض فى الإنتاج أن تنخفض عائدات تصدير البترول بنحو ٢٣ مليار دولار كمتوسط سنوى Annualized خلال الفترة المذكورة (وذلك باستخدام ٥٪ سنويا كسعر خصم لتقدير المتوسط السنوى للخسارة).

ولكن الأرجح أن هذا السيناريو يعتبر غير قابل للتطبيق لعدم واقعيته من حيث ارتفاع حجم الضرائب إذ تبلغ تقريبًا مثل ما هو قائم بالفعل فى الوقت الحاضر من ضرائب على برميل من المنتجات المكررة فى المناطق الثلاثة. وقد سبق أن أوضحنا موقف الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة من ضرائب الكربون.

وإذ يفترض السيناريو الثانى Kyoto OECD إمكانية التبادل التجارى فى صكوك الكربون ولكن فقط بين دول المجموعة الصناعية الغربية، فإنه يحقق ما يحققه السيناريو الأول من خفض فى المبتعثات وفقا لبروتوكول كيوتو. غير أن السماح بتبادل صكوك الكربون يؤدى إلى توحيد الضريبة عند ٨٥ دولارًا لطن CO_2 فى جميع أقاليم المجموعة الصناعية الغربية. عند ذلك المستوى الضريبى الموحد يتجاوز خفض المبتعثات فى شمال أمريكا هدف كيوتو لهذه المنطقة والذى كان يكفى لتحقيقه فرض ضريبة بمعدل ٦٨ دولارا للطن. أما فى غرب أوروبا فإن فرض ضريبة بمعدل ٨٥ دولارا لطن CO_2 من شأنه خفض المبتعثات بما يقل عن هدف كيوتو والذى يتطلب لتحقيقه فرض ضريبة بمعدل ١٢٨ دولارا للطن. وفى إقليم الباسفيك من المجموعة الصناعية الغربية يتقارب مستوى الخفض فى ظل السيناريو الأول والثانى. ويعتبر هذا التفاوت بين المناطق الثلاثة أساسًا للتبادل التجارى فى صكوك الكربون فيما بينها، إذ تعتبر شمال أمريكا فى ظل السيناريو الثانى منطقة تبيع الصكوك لغرب أوروبا. وهنا تصطدم تلك الفرضية بالواقع المستخلص من المواقف التفاوضية لتلك المناطق، إذ تعتبر شمال أمريكا المنطقة الأكثر حرصا على شراء الصكوك وليس بيعها. ومن هنا ينبغى توسيع دائرة البحث عن إمكانيات التوسع فى تجارة صكوك الكربون فى الأجل الطويل.



وبالنسبة لدول أوبك فإن أثر السيناريو الثانى يستوى مع أثر السيناريو الأول إذ يقدر متوسط خسائرها بنحو ٢٣ مليار دولار سنويا على أساس الافتراضات المستخدمة فى





يتبين من تحليل السيناريو الثالث أن التوسع فى استخدام الآليات المرنة التى تضمنها بروتوكول كيوتو، ومنها التجارة فى صكوك الكربون، يعتبر ذا تأثير مباشر قوى ليس فقط على الدول المستهلكة للبترول، بل أيضا على صادرات وعائدات أوبك



السيناريو الأول والذى لا يتضمن التجارة فى الصكوك . ذلك لأن النقص فى حجم الطلب على البترول فى إقليم يعوضه الزيادة فى الطلب عليه فى إقليم آخر ، ومن ثم تظل الخسارة الكلية بالنسبة لإنتاج وصادرات أوبك كما كانت فى ظل السيناريو الأول .

مرة ثانية يرجح عدم الأخذ بالسيناريو الثانى ، لتعارضه مع المواقف المعلنة لكل دولة من دول المجموعة الصناعية الغربية ، إذ لا يوجد بينها من عبر عن استعداده لكى يكون بائعا لصكوك الكربون .

أما السيناريو الأرجح فهو السيناريو الثالث Annex I Trade الذى يفترض اتساع نطاق التجارة فى صكوك الكربون لكى تشمل جميع الدول المصنفة تحت الملحق الأول لبروتوكول كيوتو ، بما فيها الاتحاد السوفيتى سابقا وشرق أوروبا . ومع أن منطقة الكتلة السوفيتية (سابقا) تخضع أيضا لالتزامات كيوتو إلا أن تدهور استهلاكها من الوقود الحفرى بالنسبة لاستهلاكها عام ١٩٩٠ يؤهلها لكى يكون لديها من صكوك الكربون فائضا يمكن بيعه للدول الصناعية الغربية . لذلك ، ووفقا للسيناريو الثالث تتراجع كلفة الالتزام بتحقيق أهداف كيوتو إلى أقل من ٤٠ دولارا لكل طن CO_2 . وعندئذ تبلغ مشتريات شمال أمريكا من الصكوك أقل من ٥٠٪ من التزاماتها طبقا لكيوتو ، بينما تتجاوز مشتريات غرب أوروبا ٧٠٪ من جملة التزاماتها التى حددها البروتوكول .

أما أوبك فإن خسائرها فى ظل السيناريو الثالث تنخفض إلى ١٤ مليار دولار سنويا فى المتوسط بدلا من ٢٣ مليار دولار ، إذ ينخفض الطلب على البترول فى الدول الصناعية الغربية بنحو ٢,٣ مليون ب / ى سنويا فقط مع انخفاض ضئيل بمعدل ١,٥ مليون ب / ى فى منطقتى الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا . وبذلك تخف الآثار السلبية المنعكسة على صادرات وعوائد أوبك .

ويتبين من تحليل السيناريو الثالث أن التوسع فى استخدام الآليات المرنة التى تضمنها بروتوكول كيوتو ، ومنها التجارة فى صكوك الكربون ، يعتبر ذا تأثير مباشر قوى ليس فقط على الدول المستهلكة للبترول ، بل أيضا على صادرات وعائدات أوبك . فبالنسبة للدول الصناعية المصنفة تحت الملحق الأول تنخفض التكلفة إلى ٤٠ دولارا للطن بدلا من ٨٥ دولارا فى السيناريو الثانى . وبالنسبة للاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا فإنها تستفيد من بيع صكوك الكربون للدول الصناعية الغربية دون جهد ، إذ يتيح لها كيوتو الارتفاع بمستوى استهلاكها من الوقود ، المتدنى حاليا بسبب ما أصاب اقتصادياتها من ركود ، إلى مستواه المرتفع عام ١٩٩٠ . أما دول أوبك فإن خسائرها تتراجع من ٢٣ مليار دولار سنويا فى المتوسط فى ظل السيناريو الأول والثانى إلى ١٤ مليار دولار فى ظل السيناريو الثالث كما ذكرنا .



ومما تجدر ملاحظته أن وضع حد أعلى لتجارة الصكوك بنسبة ٥٠٪ فى إطار السيناريو الثالث ، كما يقترح البعض ، يمكن أن يؤثر تأثيرا سلبيا على أوروبا الغربية وحدها ، إذ يفوت عليها فرصة شراء نسبة الـ ٧٠٪ المتاحة بكلفة تقل كثيرا (٤٠ دولارا لطن CO_2) عن الكلفة التى يفترض تحملها فى غياب تجارة الصكوك وتقدر بنحو ١٢٨ دولارا للطن وفقا للسيناريو الأول . أما إقليما شمال أمريكا والباسيفيك فإن مشترياتهما وفقا للسيناريو الثالث ستكون أقل من نسبة الـ ٥٠٪ على أى حال . وفى ظل تحديد تجارة الصكوك بنسبة ٥٠٪ تزيد خسائر أوبك بنحو مليار دولار سنويا عنها فى حالة إطلاق التجارة بين دول الملحق الأول دون وضع حد أعلى .

وأما السيناريو الرابع Global Trade فيفترض إطلاق التجارة فى صكوك الكربون على المستوى العالمى تحقيقا لأهداف كيوتو التى تلتزم بها دول الملحق الأول . ومع أن إطلاق التجارة العالمية فى الصكوك لم يرخص به صراحة فى البروتوكول ، إلا أن آلية الإنماء النقى Clean Development Mechanism (CDM) تعتبر الوسيلة المتاحة لمساهمة الدول النامية فى جانب من تلك التجارة . وعلى ذلك فالمقصود بهذا السيناريو بحث ما يمكن أن ينعكس على أوبك نتيجة لاستخدام آلية الإنماء النقى ، والتى تتلخص فى قيام دولة من دول الملحق الأول بتمويل مشروع لخفض المبتعثات الملوثة فى دولة لا تخضع لهذا الالتزام وهو ما ينطبق على دول العالم الثالث . وبذلك تنتفع الدولة الممولة للمشروع بصكوك للكربون تقدر قيمتها بقدر ما تحقق فى المشروع من خفض للمبتعثات .

فى ظل هذا السيناريو تنخفض تكلفة الكربون إلى نحو ١٥ دولارا لطن CO_2 وينتج عنه تراجع خسائر دول أوبك إلى نحو ١٢ مليار دولار سنويا فى المتوسط ، وهو ما يقرب من نصف خسائرها فى ظل السيناريوهين الأول والثانى ، كما تعتبر أخف الخسائر الممكنة فى ظل السيناريوهات الثلاثة السابقة . ويعزى نحو ٤٥٪ من انخفاض المبتعثات فى ظل السيناريو الرابع إلى الدول التى لم تصنف تحت الملحق الأول Non-Annex I.

وفى تلك الحالة يتراجع الطلب على بترول أوبك بمقدار ١,٨ مليون ب / ى فى دول الملحق الأول عام ٢٠١٠ ، كما يتراجع بنحو ١,٧ مليون ب / ى فى الدول النامية وهو ما يمكن أن يصدر به صكوك كربونية تشتريها دول الملحق الأول وتحسب لتغطية جانب من التزاماتها وفقا لكيوتو .

ويستخلص من تلك السيناريوهات أن التوسع فى تجارة صكوك الكربون يؤدى إلى خفض التكلفة الحدية لمكافحة الكربون ، إذ يتاح فى ظل تحرير تجارة الصكوك خيارات أرخص لمكافحة الكربون ليست متوافرة على المستوى المحلى لدول الملحق الأول . ويترتب على ما تقدم تحول مركز الثقل من السيناريو الأول والثانى إلى السيناريو الثالث حيث يستفاد مما يوفره الاتحاد السوفيتى سابقا وشرق أوروبا ، أو إلى السيناريو الرابع الذى يشجع الدول النامية على خفض مبتعثاتها بحصولها على مقابل مالى . كذلك يقترن بهذا التحول الإقليمى تحول فى الاهتمام بخفض استهلاك الفحم ، ومن ثم لا يتحمل الطلب على البترول كامل العبء الناتج من تحقيق أهداف كيوتو وإنما يشاركه فى حمل ذلك العبء وقود ذو محتوى كربونى أكثف وهو الفحم .

فى ظل تلك السيناريوهات ، بقيت أوبك طرفا سلبيا تتلقى نتائج السياسات التى تضعها وتنفذها دول مستهلكة للبترول ، وتتحمل أوبك فى النهاية خسائر تتراوح بين ١٢ و٢٣ مليار دولار سنويا . أما كيف يمكن أن تتحول أوبك إلى طرف فاعل مؤثر له سياسته المستقلة التى تدرأ عنه تلك النتائج السلبية فسوف نقوم بمعالجته فى دراسة قادمة بإذن الله. ■

تحريفات العامية

شوقى ضيف

ذكرت فى المؤتمر السابق لمجمع اللغة العربية أن العامية المصرية ـ مثل العاميات العربية المختلفة ـ أهملت الإعراب للأفعال والأسماء المعروف فى الفصحى، كما ذكرت طائفة من تحريفات العامية المصرية للفعل المضارع والأدوات الداخلة عليه والملحقة به، وصيَغ اسم المفعول، وبعض صيغ الأسماء وأسماء الإشارة. ومما ذكرته أيضًا إلغاء العامية الألف والنون فى صيغة المثنى، والمد فى صيغتى الثلاثاء مع قلب الثاء تاء والأربعاء، وألغت فى مفرداتها أربعة أحرف هى الثاء والذال والظاء والقاف.

واليوم أذكر طائفة أخرى من تحريفات العامية لصيغ الفعل الماضى، والمشتقات، وبعض صيغ المثنى والجموع، وبعض الأسماء المبنية، والحروف، والمنادى، والتصغير، والنسب.

التحريف فى الفعل الماضى الثلاثى:

معروف أن للفعل الماضى الثلاثى ثلاث صيغ ثابتة هى فَعِل بفتح الفاء وكسر العين، وفَعَل بفتح الفاء والعين، وفَعُل بفتح الفاء وضم العين، والصيغة الأولى حرفت العامية جميع أفعالها إلى فِعِل بكسر الفاء والعين، فتقول:

تِعِب فى تَعِب ـ حِمِد فى حَمِد ـ خِجِل فى خَجِل ـ سِهِر فى سَهِر ـ عِلِم فى عَلِم ـ عِمِل فى عَمِل ـ فِهِم فى فَهِم ـ وِرِث فى وَرِث.

والصيغة الثانية: فَعَل بفتح الفاء والعين وقد تبقى العامية عليها دون تحريف فى حركاتها مثل:

بَسَط ـ جَذَب ـ حَكَم ـ سَطَع ـ ضَرَب ـ عَطَف ـ غَرَس ـ فَخَر ـ لَمَس ـ مَزَج.

وتنقلها العامية أحيانًا إلى صيغة فِعِل بكسر الفاء والعين المحببة لديها مثل:

حِسِب فى حَسَب ـ خِمِد فى خَمَد ـ رِجِع فى رَجَع ـ سِكِت فى سَكَت ـ صِبِر فى صَبَر ـ عِرِض فى عَرَض ـ عِرِف فى عَرَف ـ كِتِب فى كَتَب.

والصيغة الثالثة لا توجد فى العامية المصرية وتجعلها إما فى صيغة فِعِل بكسر الفاء والعين مثل بِرِد فى برُد ـ بِطِل فى بَطُل ـ بِعِد فى بَعُد ـ حِلِم فى حَلُم.

وإما فى صيغة فُعُل بضم الفاء والعين مثل:

حُمُض فى حَمُضَ ـ حُرُم فى حَرُمَ ـ سُهُل فى سَهُلَ ـ طُهُر فى طَهُرَ.

وقد تنطق العامة فى هذه الصيغة بالنطقين المذكورين لها، فتقول: رُخُص أو رِخِص فى رَخُصَ ـ سُخُن أو سِخِن فى سَخُنَ ـ صُعُب أو صِعِب فى صَعُب. والعامية فى صيغة فعل تارة تنطقها بصيغة فِعِل المحببة لها وتارة تجانس بين فائها وعينها فتنطقها بصيغة فُعُل بضم الفاء والعين كما فى صيغة صَغُر فتقول فيها صُغُر أو صِغِر حسب ذوق المتكلم.

وواضح أن أكثر صيغ الفعل الماضى الثلاثى شيوعًا فى العامية صيغة فِعِل، وجعلتها مطردة فى صيغة فَعِل الفصحى بفتح الفاء وكسر العين، واستروحتها فى طائفة من صيغ فَعَل بفتح الفاء والعين وصيغة فَعُل بفتح الفاء وضم العين. وينبغى أن تتخلص العامية من كل صور صيغ الأفعال التى حرفتها وترد أفعالها إلى صياغتها الأصلية فى الفصحى.

صيغة الماضى المعتل الآخر بالياء

هذا الفعل فى مثل بَقِيَ ـ خَشِيَ ـ نَسِيَ تنطقه العامية أحد نطقين: نطقًا تقلب فيه الياء ألفًا والكسرة قبلها فتحة فتقول فى بقى بَقَا وبالمثل فى خَشِيَ: خشا، وفى نسى: نسا، وكانت قبيلة طيئ فى شمال الجزيرة تحتم فيه هذا النطق، ودخل منها مصر كثيرون مع فتحها وبعده. ويبدو أنهم هم الذين أشاعوه بمصر. وشاع معه نطق ثان رُدَّت فيه هذه الصيغة الماضوية إلى صيغة فِعِل الثلاثية الماضوية التى تستروحها مصر، كما أسلفنا، فيقولون: بِقِى، خِشِى، نِسِى. والنطقان فى الفعل الناقص بالياء عاميان، وينبغى أن تبرأ منهما العامية المصرية.

زيادة ياء فى الماضى بعد تاء المخاطبة

وذلك فى مثل «قرأتِ وكتبتِ» تقول العامية: «قرأتيه وكتبتيه» إذ تمد كسرة تاء المخاطبة فتتولد منها ياء ونجدها فى كتاب المكافاة لابن الداية المصرى على لسان تاجر يكافئ امرأة على جميل أسدته إليه. وينبغى أن تتخلص منها العامية المصرية وتكتفى بكسرة التاء مثل الفصحى.

إلحاق علامة الجمع بالماضى مع ذكر الفاعل المثنى والجمع للذكور والإناث

تقول العامية: حضروا الطالبان ـ حضروا الطالبتان ـ حضروا الطلاب ـ حضروا الطالبات.

والعامية فى ذلك تلغى فى الفعل الماضى ألف المثنى مع الذكور والإناث ونون النسوة وتضع مكانها واو الجماعة، وينبغى أن تعود هذه الأفعال إلى الفصحى.

والعامية ـ بذلك لا تستخدم ألف التثنية فى المثالين الأولين ولا نون النسوة فى المثال الرابع إذ تعمم فيهما واو الجماعة للذكور، ويجب حذفها منها جميعًا، وأيضًا فى المثال الثالث حتى لا يكون للفعل فاعلان: ضمير واسم ظاهر.

الجزء الثانى من البحث الذى ألقاه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف رئيس المجمع اللغوى فى الدورة السابعة والستين للمجمع (مارس ٢٠٠١) بعنوان «العامية فصحى محرَّفة». وقد سبق نشر الجزء الأول من البحث فى «وجهات نظر» عدد مايو ٢٠٠٠



يذكر لفظ لا في الجواب على المتكلم بالنفي، فيقال لا، غير أن العامية المصرية أضافت إليها همزة ساكنة، فيقول المصريون في الجواب بالنفي «لأ» ويذكر عن قبيلة طيئ أنها كانت تقلب الألف الموقوف عليها همزة، وكأن المصريين أخذوا من عشائرهم الوقف على «لا» بالهمزة، وشاعت بينهم إلى اليوم. وينبغي أن تعدل العامية عن نطقها إلى نطق الفصحى

تسهيل الهمزة وحذفها في الأفعال

تكثر العامية من تسهيل الهمزة في الأفعال، فتقول في أدّاه: وداه بقلب الهمزة واوا، وتقول في قرأت - ملأت: قريت - مليت بكسر الحرف الأول والثاني في الفعل وقلب الهمزة ياء. وتقول بالمثل:

في بدأت: بديت - وفي خبأته: خبّيته بقلب الفتحة قبل الهمزة كسرة وقلب الهمزة ياء. وبالمثل في هدأته: هدّيته، وفي هنّأته: هنّيته - وفي توضأت: توضّيت وكل هذه الأفعال ينبغي أن ترد هي وما يماثلها إلى أصلها المهموز الفصيح.

وتكثر العامية من حذف همزة صيغة أفعل الرباعية فتقول: تلفه في أتلفه - حبه في أحبه - سعفه في أسعفه - عطاه في أعطاه - فطر في أفطر - كرمه في أكرمه، وكل هذه تحريفات في العامية وينبغي ردها إلى أصلها المهموز الفصيح.

وتحرف العامية حركة الحرف الأول في بعض صيغ الأسماء المفردة، من ذلك أن صيغة إفعيل مثل أبريق، في العامية بفتح الهمزة المكسورة في الفصحى، وصيغة فِعّيل مثل بِطّيخ في العامية بفتح الهمزة المكسورة في الفصحى.

وصيغة مفعيل بفتح الميم المكسورة في مسْكين - منديل.

التحريف في المشتقات

ذكرت في حديثي في المؤتمر الماضي التحريف في صيغة اسم المفعول وأذكر الآن التحريف في بقية المشتقات:

اسم الفاعل

أبدأ باسم الفاعل وتحريفاته ومن أهمها كسر الميم المضمومة في أوله حيث يشتق من غير الثلاثي مثل معلم - مسامح - منتصر. ومن ذلك تسكين عين اسم الفاعل الثلاثي وفي مثل فهْمين أي فاهمين وكتْبين أي كاتبين وقرْئين أي قارئين. ومن ذلك مغنيّة وفاكهة مستوية، وأفكار ملتوية بتشديد الياء فيها، والياء فيها جميعًا غير مشددة.

وأحيانًا يشتق اسم من الفعل الثلاثي في العامية وهو يشتق من الفعل الرباعي مثل راسل الخطاب والصواب مُرْسِل - ورجل ماسك أي بخيل والصواب مُمْسك - ورجل فاطر أي غير صائم والصواب مُفطر. ويا غائث المستغيثين والصواب: يا مُغيث. ويسمى مكان المصلين مصلية والصواب مُصلّى.

وقد يوضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل مثل مذهول والصواب ذاهل، وعمل مهول والصواب هائل. وقد يوضع اسم الفاعل مكان اسم المفعول مثل: مركب موسوق والصواب موسَق - ورقة ملصوقة والصواب مُلْصقة - ومال مودوع والصواب مودَع - فرس ملجوم والصواب مُلْجم - ونار موقودة والصواب موقَدة - ورأسه موجوع والصواب موجَع.

تحريفات الصفة المشبهة، من ذلك:

١ - كسر الحرف الأول في صيغتي فعيل وفعِل فتقول: كبير - شريف - سعيد، كما تقول عكر - نكد - إنف.

٢ - في الألوان والعيوب: حين تدخل العامية على صيغة أفعل أداة التعريف تحذف همزتها وألف أداة التعريف وتفتح لامها، فتقول: لَبْيَض - لَحْمَر وينبغي أن تنطقها مثل العربية: الأبيض - الأحمر. وفي صيغة فَعْلاء المؤنثة: تحذف المد وتزيد هاء السكت فتقول في مثل: بيضاء - حمراء: بِيضة بكسر الباء - حمرة، وينبغي رجوعها إلى الفصحى. وتنطق العامية في نُفَساء للمرأة الوالدة نِفسة وينبغي ردها إلى الفصحى، وتقول في كلمة الآخر: راخر بتسهيل الهمزة وقلب لام التعريف راء مع فتحها. وكل هذه التحريفات في الصفة المشبهة ينبغي أن تتخلص منها العامية.

تحريفات اسم الآلة:

مما حرفته العامية في اسم الآلة فتح الميم في صيغة مفْعل بكسر الميم مثل: مَبْرد - مَدْفع - مَسْند - مَصْعد - مَضْرب - مَفْرش.

وفتحت الميم في يفْعَل بكسر الميم في:
مبخرة - مدخنة - مروحة - مشنقة - مصيدة - مطحنة - مفرمة - مطرقة - مقرعة.

وضمت الميم في صيغة مفعال في اسمين هما:

مُفتاح - مسمار - فقول مُفْتاح - مُسمار

ومما حرفته في هذه الصيغة كلمتا: مِصْفاة - مِقْلاة.

تنطق بهما العامية: مَصفى - مَقْلى وقد تقول مقلاية بزيادة ياء وهاء السكت.

وحذفت العامية ألف مفعال في الأمثلة التالية مع فتح الميم في المثالين الأخيرين

مخلاة - مسْحاة - مطواة - مكْواة

فتقول: مخْلة - مسْحة - مَطْوة - مَكْوة

وكل هذه التحريفات في اسم الآلة ينبغي أن تصحح وتنطق بها العامية نطقًا سليمًا.

في المثنى والجمع

تحذف العامية حالة الرفع بالألف والنون في المثنى المعروفة في الفصحى، وتقول حوالينا بكسر اللام خطا وهي مفتوحة: حوالَيْنا، وتقول عصاتين وهما عصوان رفعًا وعصوين نصبًا وجرًا. ولا يقال اثنين مليون مثل العامية بل يقال مليونان، ولا يقال ثلاثة مليون إلى عشرة، إذ الصحيح ثلاثة ملايين وهي عدوى من تعلم اللغات الأجنبية.

وتحذف العامية علامة الرفع بالواو والنون من جمع المذكر السالم وتسكن النون في حالتي النصب والجر. ولا تمنع من الصرف صيغة مفاعل مشددة العين. واللام في مثل مشاق جمع مشقة - ملاذ جمع ملذة - مهاب الريح جمع مهب - ومهام جمع مهمة. وأيضًا تنون خطأ صيغة فعلاء مثل: أدباء - علماء - فقهاء - زعماء - شرفاء - عظماء - كبراء - كرماء - شعراء.

تحريف أسماء الاستفهام:

(مَنْ) تقول العامية فيها مينْ جاء

أين: تحذف العامية فيها همزة الاستفهام حين تصلها بواو أو فاء فتقول: وين - فين.

متى: تجعل العامية قبلها همزة استفهام وتسكن الميم وتحذف الألف الأخيرة فتقول: إمْتَ.

كيف: تنطقها العامية بكسر القاف. كم: تزيد العامية فيها ألفًا تقول كام الساعة.

وكل هذه التحريفات في العامية ينبغي تصحيحها.

تسهيل الهمزة وحذفها في الأسماء

تقلب العامية الهمزة الساكنة إلى جنس الحركة السابقة لها في الأسماء مثل:

بير في بئر - ديب في ذئب بقلب الذال دالًا - شوم في شؤم.

وتسهل العامية همزة القطع مع كسرها في ضمير المخاطب: أنت وفروعه كما سيأتي ومن تحريفاتها:

دَيْرة في دائرة - عَباية في عباءة - مراته في امرأته - ميّه في مائة - وجميع الأرقام المئوية حرفتها العامية، فتقول: ميتين في مائتين - تُلْتمية في ثلاثمائة بقلب الثاء تاء وهكذا.

ومن التحريف في الأسماء: ودن في أذن - إودان في آذان - وقه في أقة.

وحذف الهمزة في الأسماء كثير وهي تحذف في الأسماء المدودة بعامة فيقال: دوا في دواء - سما في سماء - صحرا في صحراء - كيميا في كيمياء.

وينبغي أن تعدل العامية عن حذف همزة المد. وبالمثل ينبغي أن ترد الكلمات التالية إلى أصلها المهموز في الفصحى، وهي:

فين: أصلها فأين. كسرت الفاء فيها وحذفت الهمزة.

منين: أصلها من أين. حذفت همزتها وكسرت النون قبلها.

وستذكر تحريفات الضمائر المنفصلة المرفوعة والمنصوبة. ومما حذفت فيه الهمزة ياخي أصلها يا أخي.

ياهل الخير: أصلها يا أهل الخير.

والهمزات المحذوفة في جميع الكلمات السابقة ينبغي أن تعود إليها حتى لا تشذ عن أصلها الفصيح.

القصر والمد

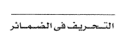
تحذف العامية الألف قصرًا في صيغ متعددة هي صيغة فاعل وفاعلة حين يسكن الحرف التالي لها مثل كَتْبه (في كاتبة) وفَطْمه (في فاطمة). وصيغة مفاعل مثل مرْجْعه (مُراجعه) بحذف الألف وكسر الميم، ويقال مراجْعينه (في مُراجعيه) بذكر نون الجمع مع الإضافة. وتحذف الألف من الخَصْرة (في الخاصرة) والعُقْبة (في العاقبة) مع ضم العين، والعيلة (في العائلة) مع قلب الهمزة ياء وكسر العين، ويَسْمين (في ياسمين). وتحذف الألف الأخيرة من الموسى فتقول موس وتجمعه على أمواس والصواب مواس. وتحذف الألف الأولى والثانية من ناداه فتقول نَدَه.

وتمد العامية الفتحة فتقول كام في كم الاستفهامية كما أسلفنا - وتقول معاك (في معك). وتمد الضمة فتقول كورة في كرة. ويطرد ذلك في الوقوف بالأمر من الفعل الثلاثي الأجوف الواوي مثل: توب - زوغ - عوم - قوم - وخود (من خذ) مع قلب الذال دالًا، وكول (من كل) والأجوف اليائي والواوي في مثل: بيع - زيد - صيد - قول.

وينبغي أن تصلح العامية هذه التحريفات في الكلمات حتى تعود بها إلى الفصحى.

للفصحى !!

تحريفات العامية للفصحى



التحريف فى الضمائر المتصلة

هاء الغيبة: تنقل العامية فى ضمتها إلى الحرف الذى قبلها وتحذف وتسكن ما بعدها وتمد الضمة فتتولد منها واو فى الأفعال مثل كَتْبُو (فى كاتبهُ) والأسماء مثل مكتوبو فى (مكتوبهُ).

وبالمثل إن وأخواتها يقال فيها: إنُّو فى (إنه) وكأنُّو (فى كأنه) ولكنو (فى لكنه).

وأيضًا مع كل مضاف إلى هذه الهاء مثل: علمو (فى علمه) وكتابو (فى كتابه) ومع ثلاثة من حروف الجر ـ هى اللام فى مثل لو (فى له) ومنو (فى منهُ) وعنو (فى عنهُ).

ياء المتكلم: تُلْحق بالأفعال والأسماء والحروف، وتقول العامية عصايتى (فى عصاى) فتضيفها إلى ياء المتكلم مرتين. وتشددها مع اللام فتقول لىَّ (فى لى) لحنًا واضحًا.

الضمائر المنفصلة المرفوعة والمنصوبة

أنا: تحذف منها العامية الهمزة إذا سبقتها واو العطف أو حرف النداء (يا) فتقول ونا (فى وأنا) ويانا يانا (فى يا أنا ـ يا أنا).

نحن: تنطقها العامية إحنا بقلب النون الأولى همزة وفتح النون الثانية مع مدها.

إنت: تنطق العامية هذا الضمير وفروعه بكسر الهمزة.

هوّ ـ هىّ: تشدد العامية الواو والياء فى هذا الضمير، وكانت تشدده قديمًا قبيلة همدان النازلة بالجيزة فى الفتوح الإسلامية. وعنها شاع فى العامية المصرية.

هم: تشدد العامية الميم فى هذا الضمير الساكن فى الفصحى.

إياك: تحذف العامية همزة القطع فى هذا الضمير المنفصل المنصوب وفروعه مع واو العطف فى إياك وإياكم فتقول فى مثل رأيته وإياك: رأيته ويّاك.

التحريف فى الحروف الجارة:

على: تحذف العامية منها اللام والألف إذا أعقبها اسم معرف بالألف واللام فى مثل: سافر ع الطائرة ـ سبح ع الماء، وكانت تنطق بذلك قديماً قبيلة بنى الحارث وأشاعتها فى مصر حين استوطنتها. وينبغى أن تردها العامية إلى نطقها الفصيح.

عَنْ: تشدد العامية نونها فى استعمالين: إذا اتصل بها ضمير المفرد المخاطب فى مثل: عَنْك تقول (عنّك) أو اتصل بها ضمير المفرد الغائب فى مثل عنه تقول عنُّو بتشديد النون وحذف الهاء مع نقل ضمتها إلى النون المشددة وزيادة واو. وحرى أن تعدل العامية عن هذا النطق إلى نطق الفصحى فيهما.

اللام الجارة: تفتح هذه اللام فى الفصحى مع جميع الضمائر ماعدا ضمير المتكلم فإنها تكسر معه مثل هذا الكتاب لى.

أما فى العامية فإنها تضم مع ضمير المفرد الغائب وجماعة الذكور الغائبين فيقال أعطيت لو الكتاب (فى أعطيت له الكتاب) بنقل حركة الهاء المضمومة إلى اللام مع حذفها ومد الضمة. ويقال (أعطيت لُهم الكتاب) بضم اللام أو حذفها.

وتكسر لام الجر مع بقية الضمائر فى لنا ـ لك ـ لكم ـ لها. ويقول السيوطى فى كتاب الهمع إن عشائر قبيلة خزاعة كانت تكسر لام الجر مع المضمر وكأنها هى التى أشاعتها بمصر، وحرى أن يُرَد نطقها إلى الفصحى.

من: حين تذكر معها نون الوقاية تشددها العامية فتقول (منى) وهو تعبير صحيح لإدغام نون من فى نون الوقاية، غير أن العامية المصرية تطرد ذلك مع ضمير المفرد المخاطب والمفردة المخاطبة والغائب المفرد فتقول: منّك ـ منّك ـ منّه. وينبغى أن تعود فيها جميعًا إلى نطق الفصحى بسكون النون.

فى حروف القسم والجواب

واو القسم: مفتوحة فى الفصحى، والعامية تكسرها مثل والنبى ـ والمصحف ـ وحياتك. ومثال واحد تفتحها فيه هو لفظ الله فتقول والله. وينبغى أن تلغى كسرها وتفتحها دائماً مثل الفصحى.

إى: بكسر الهمزة فيها وياء ساكنة، وهى حرف جواب مثل نعم تمامًا ويليها دائمًا قسم بالله مثل: إى وربى وإى والله. ومجىء واو العطف بعدها جعلت العرب يقولون فى الجواب بها «إيوه» كما ذكر ذلك الزمخشرى. ومن هذه اللهجة شاعت فى عامية مصر كلمة «إيوه» بمعنى نعم مضيفة إليها هاء السكت للوقف، وقد تفتح العامية الهمزة فتقول «أيوه» وتختصرها العامية فتقول: «أ» بمعنى

شاعت فى عامية مصر كلمة «إيوه» بمعنى نعم مضيفة إليها هاء السكت للوقف، وقد تفتح العامية الهمزة فتقول «أيوه» وتختصرها العامية فتقول: «أ» بمعنى نعم بالمد أو بدونه، وواجب أن تصحح العامية الكلمة

نعم بالمد أو بدونه، وواجب أن تصحح العامية الكلمة.

لأ: يذكر لفظ لا فى الجواب على المتكلم بالنفى، فيقال لا، غير أن العامية المصرية أضافت إليها همزة ساكنة، فيقول المصريون فى الجواب بالنفى «لأ» ويذكر عن قبيلة طيئ أنها كانت تقلب الألف الموقوف عليها همزة، وكأن المصريين أخذوا عن عشائرهم الوقف على «لا» بالهمزة، وشاعت بينهم إلى اليوم. وينبغى أن تعدل العامية عن نطقها إلى نطق الفصحى.

تحريفات متنوعة

فى النداء: تسكن العامية الحرف الأول فى العَلم إذا كان ثانيه متحركًا فى مثل:

يا محمد - يا حسين - يا سليمان.

وتحذف همزة القطع فى ثلاثة أعلام هى:

أحمد - إبراهيم - إسماعيل

وتبدل اللام فى نهاية العلم الأخير بنون فتقول: إسماعين. وتبدل ألف الوصل بألف القطع فى لفظ الجلالة للاستغاثة أو للتعظيم فتقول: يا ألله.

يا أنا: تحذف العامية همزة القطع مع (يا) من الضمير «أنا» فيقول «يانا يانا» تحسرًا على ضياع شىء.

وينادى مثل «أبوحسن» بنفس لفظ «أبو» يا أبو حسن بنطق الواو وعدم إبدالها بألف لأنها مضافة.

وتقول العامية: يابوى - ياخوى تحريفًا بدلاً من يا أبى - يا أخى. وينبغى أن تعدل العامية عن كل هذه التحريفات فى النداء فيما عدا لفظ: يا ألله.

فى التصغير

تحذف العامية فى صيغتين من صيغ التصغير أولاهما صيغة فُعَيل تجعلها فَعيل فى كثير من الاعلام مثل:

حَميد (فى حُمَيد) سعيد (فى سُعَيد).

والثانية صيغة فُعَيْعِل تفتح حرفها قبل الآخر فتقول صُغيَّر فى صُغَيِّر وكُبيَّر فى كُبَيِّر.

فى النسب

تخطئ العامية فى كلمات كثيرة بالنسب، من ذلك كتبى بسكون التاء: نسبة إلى الكتب، وصوابها كُتُبِى - حلَوانى، وصوابها حَلْوانى.

خُضَرى: نسبة إلى ما يبيعه من الخضروات، وصوابها خَضْرَواتى بفتح الخاء.

فكهانى: نسبة إلى فاكهة والصواب فاكِهانى بزيادة ألف مع كسر الكاف.

الكسر قبل هاء الوقف فى مثل:

حِدِّه - شدِّه - سِكّه - سيره - سلامِه - رياسِه - هدايِه - كلمِه - فكرِه - نكته.

وينبغى أن تعدل العامية عن كسر هذه الكلمات إلى فتحها قبل الوقف عليها.

تقاليب الحروف فى الكلمة:

تاء افتعل

الفصحى تجعل التاء بعد فاء الفعل فى صيغة افتعل والعامية تقدم التاء على الفاء فتصبح اتفعل فى أفعال كثيرة مثل:

اتبلّ فى ابتل - اترمى فى ارتمى - اتروى الزرع فى ارتوى - اتغنى فى اغتنى - اتّغاظ فى اغتاظ - اتكسى فى اكتسى - اتلوى فى التوى - اتملى فى امتلى.

وينبغى أن تعدل العامية عن هذا التحريف فى صيغة افتعل.

تحريف فى الكلمات التالية

الباط: الإبط: جعلت العامية الهمزة بعد الباء وحولتها إلى ألف وصل.

جوز: زوج: نقلت آخر الكلمة إلى أولها وضمتها، وصنعت ذلك فى كل المادة فتقول: الجواز فى الزواج وجوزوه فى زوجوه.

سقف: صفق: قلبت العامية السين صادًا وقدمت القاف على الفاء.

فعص: فى عفص البيضة بتقديم الفاء على العين.

ملص ودنه: فى صلم أذنه قدمت العامية الميم إلى مكان الصاد ووضعت الصاد مكانها.

تصنت: تنصت أى تسمع، قدمت العامية الصاد على النون.

وينبغى أن تعود العامية فى كل التحريفات التى ذكرناها إلى النطق الفصيح الصحيح. ■



من رسائل الجاحظ

٤ - فى ذكر المدينة

أمرُ المدينة عَجَبٌ، وفى تُربها وتُرابها وهوائها، دليلٌ وشاهدٌ وبرهانٌ على قول النبى صلى الله عليه وسلم: «إنَّها طَيِّبة تَنْفى خَبَثَها وتنصع طيبَها» لأنَّ من دخلها أو أقام فيها، كائنًا منَ كان من النَّاس، فإنَّه يجد من تُربتها وحيطانها رائحةً طيبةً، ليس لها اسمٌ فى الأرابيح، وبذلك السبب طاب طيبُها والمعجوناتُ من الطِّيب فيها. وكذلك العُودُ وجَميعُ البَخُور، يَضَّاعَفُ طيبُها فى تلك البلدة على كلِّ بلدٍ استعمل ذلك الطِّيب بعينه فيها.

وكذلك صَيَّاحها والبَلَحُ والأُترجُّ والسَّفَرجل، أعنى المجعول منها سُخُبًا للصِّبيان والنِّساء.

فإن ذكروا طيب سابور فإنَّما طيب سابور بطيب أرياح الرَّياحين، وذلك من ريح رَياحينها وبساتينها وأنوارها، ولذلك يَقْوَى فى زمان، ويَضعُف فى زمان.

ونحن قد ندخل دجْلة فى نهر الأُبُلَّة بالأسحار، فنجد من تلك الحدائق، ونحن فى وسَطَ النهر، مثلَ ما يجد أهلَ سابورَ من تلك الرَّائحة.

وطَيْبة التى يسمُّونها المدينة، هذا الطِّيب خلقةٌ فيها، وجوهريَّة منها، وموجودٌ فى جميع أحوالها. وإنَّ الطِّيب والمعجونات لتُحْمَلُ إليها فتزداد فيها طيبًا، وهو ضدُّ قَصبَة الأهواز وأنطاكيَّة، فإنَّ الغَوالىَ تستحيل الاستحالة الشَّديدة.

ولسنا نشكُّ أنَّ ناسًا يتنابون المواضعَ التى يباع فيها النَّوَى المُنْقَع، فيستنشقون تلك الرائحة، يُعجَبون بها ويلتمسونها، بقدر فرارنا نحن من مواقع النَّوى عندنا بالعراق، ولو كان من النَّوىَ المَعجوم ومن نَوَى الأفواه.





أفلح حيث فشلت

حفظ السلام

في السادس من سبتمبر ١٩٩٩، هاجم حشد غاضب مكتب إغاثة تابعًا للأمم المتحدة في تيمور الغربية. وقد نهبت الجماهير المبنى، وفيما يعد رد فعل مثيرًا للغثيان لما حدث في مقديشو سنة ١٩٩٣، أحرقت جثث ثلاثة من العاملين مع الأمم المتحدة في الشوارع. وأسرعت الأمم المتحدة بسحب ما تبقى من أفرادها في الإقليم الإندونيسي، وهو ما كان له وقعه السيئ على مهمتها غير المستقرة في إقليم تيمور الشرقية الذي استقل حديثًا.

وأبرزت تلك الكارثة تقريراً مستقلاً كانت الأمم المتحدة قد أصدرته قبل ذلك بأسابيع قليلة. وبما أن الورقة نشرت في وقت كان يتوالى فيه اتخاذ المئات من جنود حفظ السلام في سيراليون رهائن ـ وآخرهم جنود بريطانيون ذهبوا لانقاذ من سبقوهم من ذوي البريهات الزرقاء ـ فقد كانت رسالة للقوى التي انتقدت جهود الأمم المتحدة لحفظ السلام انتقاداً شديداً، كما كانت بمثابة «روشتة» لمزيد من القوات النشطة والسيطرة والرقابة.

أثارت تلك الأحداث ومعها تقرير الأمم المتحدة جدلاً حول ما بات أمراً مألوفاً إلى حد كبير. ويدور الجدل حول العديد من المسائل الرئيسية مثل هل يمكن جعل حفظ السلام الذي تقوم به الأمم المتحدة يعمل لمدى طويل، أم أنه محكوم على هذه الجهود بالفشل؟ وهل المعايير الدولية فعالة، أم أن العسكرية السافرة قد تكون هي الشيء الوحيد لوقف أشرار العالم ممن هم على شاكلة فوداي سنكوه؟ وهل التدخل الإنساني غير عملي، أم أن هناك طريقة ما للموازنة بين حقوق السيادة والقيم الكونية؟ شغلت مثل هذه التساؤلات اهتمام الأكاديميين والمفكرين فترة طويلة من العقد الماضي، منذ أن تحول عالم الحرب الباردة المرتب ذو الصراعات بين الدول ـ الذي قامت فيه الأمم المتحدة بدور بسيط غير مثير للجدل، باعتبارها منطقة عازلة على طول خطوط إطلاق النار والحدود (كما في قبرص والشرق الأوسط) ـ إلى هذه الدوامة الحالية من المذابح العرقية والقبلية والدينية.



ويعد هذا الجدل حول التدخل الإنساني مهماً ويتسم بحسن نواياه. وهو كذلك جدل يفتقر في أغلبه إلى الصدق. فالنقاش يطرح خيارات زائفة، على الأقل بالشكل الذي تم تاطيره به في السنوات القليلة الماضية. وفي الجزء الأكبر من فترة ما بعد الحرب الباردة، تركز الجدل الدائر حول النظام العالمي الجديد على إذا ما كانت أي من الأمم المتحدة أو الولايات المتحدة ـ وهما تعملان منفصلتين أو بالتنسيق فيما بينهما ـ يمكنها أن تصبح شكلاً من أشكال الشرطي الكوني. غير أنه يحين الوقت، بعد عشر سنوات من سقوط الاتحاد السوفيتي، للاعتراف بأن أياً من الخيارين لن يحظى بالقبول. فواشنطن ليس لديها الاستعداد لذلك، بينما الأمم المتحدة تعوزها الوسيلة (بفضل شح الولايات المتحدة في الغالب).

إلا أنه يخرج حالياً من هذا الفراغ نظام جديد على أرض الواقع، في الأزمة تلو الأخرى. ولنسمه حكم الشرطة الإقليمية. إنه نظام هجين يعتمد على كل ما تمنحه الأمم المتحدة من مشروعية وكذلك على القوة المحلية. ولكي يعمل النظام الجديد، فهو بحاجة إلى قوى وتنظيمات إقليمية تؤدي العمل البغيض الخاص بحفظ السلام وصنع السلام. غير أن هذه القوى الإقليمية يجري تدريبها والضغط عليها إلى حد كبير كي تعمل وفق معايير الأمم المتحدة، وكي تخضع في العادة لقرارات مجلس الأمن.

هذا هو النموذج الذي اتبع من أجل تيمور الشرقية في سبتمبر ١٩٩٩، عندما قبل الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون بسعادة عرض أستراليا إرسال قوات مقاتلة تتصدى لميليشيات إندونيسيا المقاتلة ـ حتى عندما بادر الرئيس الأمريكي بتنظيم رد فعل متعدد الجنسيات وترتيب قرار للأمم المتحدة. وكان تلك هي المقاربة التي اتبعت في كوسوفو كذلك. فقد أصرت الولايات المتحدة على استخدام حلف شمال الأطلنطي (الناتو) لطرد سلوبودان ميلوشيفتش ـ وفي ذهنها الطريقة التي فشلت بها قوات الأمم المتحدة فشلاً مهيناً في الحيلولة دون وقوع الفظائع المبكرة في البوسنة ـ ولكنها عملت في نهاية الأمر تحت علم الأمم المتحدة.

وكما امتد هذا النموذج بحرص شديد إلى غرب أفريقيا. ففي الصيف الماضي، أعلن كلينتون أنه سيرسل مدربين عسكريين أمريكيين إلى نيجيريا، كان ذلك اعترافاً ضمنياً ليس فقط بالشرعية الجديدة للحكومة الديمقراطية، وإنما بحقيقة أن نيجيريا، تلك القوة الرئيسية في المنطقة، لا بد أن تقوم بدور رئيسي في الحيلولة دون وقوع فظائع في سيراليون ـ بغض النظر عن السلوك الوحشي الذي ربما كانت القوات النيجيرية قد سلكته هناك من قبل.

تقرير لجنة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة برئاسة الأخضر الإبراهيمي صيف عام ٢٠٠٠



مايكل هيرش

بأرخص الأسعار

هل سينتشر هذا النموذج أكثر وأكثر؟ وهل ينبغي له أن ينتشر؟ لكي نجيب عن هذا، لا بد من مواجهة بعض الحقائق الصعبة. فالنزاع الحالي حول صنع السلام عادة ما يركز على إذا ما كان ينبغي زيادة موارد الأمم المتحدة كي تتعامل مع مواقف بعينها ـ هي في العادة الصراعات الأهلية التي تتراوح بشكل خطير بين السلم والحرب الصريحة ـ وهي تلك التي دفع إليها الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان الهيئة الدولية بشجاعة. ويحلل تقرير صدر الصيف الماضي للجنة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، التي يرأسها الأخضر الابراهيمي، أخطاء النظام الحالي تحليلاً حاداً ويضع خطة له تصحيحية. وفي اجتماع الألفية للجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في شهر سبتمبر، اعتلى المنصة الزعيم تلو الآخر ليقدم الدعم الضمني أو الصريح لروشتة الإبراهيمي. ومن بين هؤلاء الزعماء الرئيس كلينتون، الذي دعا إلى قيام الأمم المتحدة بدور أكبر في التدخلات الإنسانية.

ولكن اعتقادنا بأن نصيحة لجنة الإبراهيمي سوف تنفذ، الآن أو فيما بعد، معناه أننا نذهب بالأمر إلى نقطة الانكسار. فالمطالبة بقوة أكثر نشاطاً تتبع الأمم المتحدة، وتتضمن وحدات «متأهبة» جاهزة للقتال، ترجع إلى ما قبل انهيار الشيوعية. ولا وجود لذلك السبب القوي الذي يجعلنا نظن أنها سوف تنجح الآن فيما أخفقت فيه من قبل. وبينما كان يروج لتوصيات حفظ السلام الجديدة (التي سيتكلف تنفيذها ٢٠٠ مليون دولار أمريكي سنوياً) في نيويورك، كان الكونجرس الأمريكي الشحيح في واشنطن يسعى لتخفيض ميزانية الأمم المتحدة الحالية لحفظ السلام. فمن ناحية، حاول أعضاء الكونجرس بالفعل إلغاء مهام حفظ السلام في أفريقيا بالمرة، مراعاة للحد الأقصى للميزانية ـ بالرغم من جهود ريتشارد هولبروك مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة لإعطاء أفريقيا حجماً في اعتبارات الأمن القومي الأمريكي يزيد على أي وقت مضى.

ومن ثم يتضح عبث حث كلينتون الأمم المتحدة على الإعداد لمزيد من التدخل، في حين لم يف هو بما وعد به منذ أربع سنوات من دفع معظم ما على الولايات المتحدة من مبالغ متأخرة. وطبقاً لما ذكره رئيس ميزانية الأمم المتحدة جوزيف كونور، فإن الولايات المتحدة مسئولة عما يزيد على نصف متأخرات الأمم المتحدة التي تقدر بـ ٣,٢٤ مليار دولار. وقد اشتكى كونور أثناء اجتماع الجمعية العامة الذي انعقد بمناسبة الألفية قائلاً: «قالت الولايات المتحدة أظهروا الإصلاح وسوف ندفع. وقد أظهرنا الإصلاح [ولا وجود للمال». وبينما لا تزال الولايات المتحدة على رفضها للدفع، يزداد تردد أعضاء آخرين مثل اليابان في تسديد ما عليهم.



ومن هنا ينبغي أن نكون واقعيين بشأن ما ننتظره من الأمم المتحدة فيما يتعلق بحفظ السلام. والولايات المتحدة، باعتبارها القوة العظمى الوحيدة في العالم، لها حصة في النظام الكوني السلمي أكبر مما لأية دولة سواها. وإذا لم تفعل واشنطن المزيد من أجل الأمم المتحدة الآن ـ في وقت غير مسبوق من التفوق الأمريكي والفائض القياسي في الميزانية، وفي لحظة ليس فيها جندي أمريكي واحد يخاطر بارتداء بيريه الأمم المتحدة الأزرق في أي مكان من العالم ـ فمن غير المحتمل أن يحدث ذلك في أي وقت قريب. وليس من المحتمل كذلك أن تبرهن واشنطن على استعدادها للقيام بدور منتظم، باعتبارها «مقاولاً من الباطن» للأمم المتحدة ـ كما حدث مرتين فقط من قبل في كوريا والكويت، عندما جمعت القوات متعددة الجنسيات تحت لواء الأمم المتحدة. ويصح هذا بصورة أكبر بعد كوسوفو، التي كانت بمثابة مدخل لانعدام الخسائر بالنسبة للتدخل الإنساني الذي تقوده الولايات المتحدة.

التخبط

إلا أن هذا لا يعني أن الدافع وراء التدخل الإنساني سيتضاءل بتضاؤل ميزانية الأمم المتحدة. فقد خلق التدخل ليبقى، شاءت واشنطن أم أبت. وسوف يستمر بطريقته العشوائية، حيث جرت العادة على أن تجتذب أضخم عناوين الصحف وأشد اللقطات التلفزيونية إثارة للرعب أضخم الجهود، حتى في الوقت الذي يحلل فيه الأكاديميون والخبراء «القواعد» العديدة للتوقيت الذي ينبغي فيه أن

على عكس التقليد الطويل الخاص بالدول المتقدمة التى كانت توفر الجزء الكبير من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، نجد فى السنوات القليلة الماضية أن ٧٧ بالمائة من الجنود فى الوحدات العسكرية المشكلة.. أسهمت بهم الدول النامية

تتدخل أمريكا وغيرها من القوى الكبرى - وكأن هذه الإرشادات شديدة الدقة لها أى ثقل فى مواجهة أثر «سى إن إن».

ونجد أن المؤيدين القدامى للسياسة الواقعية، الذين يرفضون النزعة الدون كيشوتية للتدخل الإنسانى - أو الذين ينصحوننا فقط بانتظار السلام الذى يحل بمجرد استنفاد الأعمال القتالية لشهوتها الدموية، مثل الكاتب إدوارد لوتواك - يتخلون عن ابتعادهم عن الضغوط المفروضة على المسئولين المنتخبين فى عصر الديمقراطية «فائقة التمكين» (التى عادة ما تهم وسائل الإعلام فائقة التمكين) وجهلهم بها. وقد يكون الأمر كذلك هو أن التدخل الإنسانى «يجمد الصراع بطريقة اصطناعية»، كما يقول لوتواك. إلا أن الناس فى عالم، تسيطر عليه الأعراف الغربية، لا يأبهون بذلك فى واقع الأمر. فهم لا يرغبون وحسب فى رؤية المذابح على شاشات التلفزيون. وبتشجيع من المنتقدين الكثيرين الذين تتزايد أعدادهم باستمرار، سوف يطالب هؤلاء حكوماتهم دائماً بأن تفعل شيئاً بشأن هذا الأمر - وعادة ما يكون هذا الشىء سريعًا وسهلاً. ونحن نعيش الآن فى عالم تحدد معالمه المثالية الويلسونية، كما اعترف هنرى كيسنجر على مضض. وكان ليون ويزيلتير قد كتب فى صحيفة «ذا نيو ريببليك» إبان حرب كوسوفو، ملخصاً الوجدان الشعبى بقوله إن أى «مكان يطرد فيه البريئون من الرجال والنساء والأطفال ويقضى عليهم، لهو مكان يتسم بالأهمية. ذلك أنه مكان يتساءل عن الفلسفة التى نزعم أننا نعيش بها».

وبذلك سوف يستمر التدخل. غير أننا إذا تمسكنا بالنظام الحالى، فإن هذا التدخل مقضى عليه بأن يظل على مستوى الهواة ومتأخراً وموارده ضعيفة بصورة تدعو للأسى، كما أظهرت تجارب البوسنة وكوسوفو وسيراليون. وقد يكون هذا عالماً ويلسونياً، ولكنها ويلسونية شحيحة غارقة فى أمورها الذاتية. وكما بولغ فى موت الدولة القومية أيما مبالغة، فقد كانت هناك كذلك مبالغة فى فكرة أن حاجات «المجتمع الدولى» سوف تفوق المصالح القومية. وربما لا تكون لدى الأمريكيين فى الوقت الراهن فكرة واضحة عن ماهية مصالحهم القومية، إلا أن المصلحة التى هم على يقين تام منها هى أن أبناءهم وبناتهم لن يموتوا بعد اليوم فى المعارك.

وما لم تكن الولايات المتحدة على رأس من يتولون أمر العناية بالأمم المتحدة، فليس من المحتمل أن يملأ غيرها الفراغ. والواقع أنه رغم كلام رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير وغيره من الزعماء الغربيين المؤيد للأمم المتحدة، فإن حفظ السلام الذى تقوم به الأمم المتحدة الآن قد ألقى على عاتق العالم النامى. ويقول تقرير الإبراهيمى:

على عكس التقليد الطويل الخاص بالدول المتقدمة التى كانت توفر الجزء الكبر من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة خلال الخمسين سنة الأولى من عمر الهيئة الدولية، نجد فى السنوات القليلة الماضية أن ٧٧ بالمائة من الجنود فى الوحدات العسكرية المشكلة.. أسهمت بهم الدول النامية.

الخروج من المأزق

ويرسم التقرير صورة قاتمة. إلا أنه قد تكون هناك طريقة للخروج من هذا المأزق - إذا تم تعديل لغة النقاش تعديلاً شديداً لتبرير التفويض الإقليمى. ويغير ظهور شرطة الأمم المتحدة لفرض العقوبات الكثير من الأشياء. منها أنه قد يسمح لنا فى النهاية بأن نرمى وراء ظهورنا الجدل الذى لا ينتهى بين مؤيدى المعايير والمؤسسات الدولية (كالأمم المتحدة) وهؤلاء الذين يروجون لواقعية القوة تحق الحق. وفى ظل النظام الجديد، وبدون قرار من مجلس الأمن، سوف يصبح تدخل القوى الإقليمية غزواً - بغض النظر عن نبل دوافعه - وسيحمل معه تهديداً للهيمنة الإقليمية. وهو لن يحظى بترحيب الأطراف المحلية ويبذر بذور الصراع الذى يقع فى المستقبل.

ومن ناحية أخرى، فإنه بدون قوة أو تحالف القوى التى تمثل القوة العسكرية الإقليمية، فمن المؤكد أن الأمم المتحدة، التى تعانى على الدوام من نقص الأموال، سوف تظل تخسر مصداقيتها، كما خسرتها فى البوسنة وتيمور الشرقية وسيراليون قبل دخول القوى الإقليمية. وقد أجبرت الظروف الراهنة أتباع السياسة الواقعية وأتباع النزعة العالمية الليبرالية، الذين طال أمد خلافهم، على الوقوف جنباً إلى جنب. ومن المستحيل فى كثير من المواقف أن يوجد أى الاتجاهين دون الآخر.



ويوحى هذا بما قد سيكون عليه أهم دور للأمم المتحدة فى المستقبل - وهو إضفاء الشرعية على القوى المحلية. وربما ترى بلاد كثيرة أن مجلس الأمن الحالى قد يبدو أقرب إلى المحكمة السرية منه إلى مصدر التشريع الدولى. ومن المؤكد أن صورة المجلس قد تتحسن إذا جعلت القوى الكبرى الأخرى مثل ألمانيا واليابان أعضاء دائمين، وبالتالى يتخلص المجلس من ممارسات حقبة الحرب العالمية الثانية البالية. إلا أنه سواء أكان مجلس الأمن به عيوب أم لا، فهو لا يزال قوة فريدة. ذلك أنه المحكمة الفعالة الوحيدة والمستودع الفريد للقانون الدولى المستمد من السوابق الخاص بالتعامل مع التطهير العرقى وغيره من أشكال الرعب الإنسانى. وعليه، فلا بد أن يظل بمثابة الفيصل فى التدخلات.

وسوف يساعد استخدام قوات حفظ السلام الإقليمية التى تحظى بموافقة الأمم المتحدة على حل مشكلة مهمة أخرى، وهى كيف نجعل التدخل الإنسانى متوافقاً مع المصلحة القومية. فاستراليا، التى تراقب الفوضى فى تيمور المقابلة لها على الجانب الآخر من البحر، وربما تخشى تدفق ركاب القوارب عليها، كانت شديدة الحرص على التدخل مجاناً. وقد لا يتصرف غير الأستراليين فى المواقف المشابهة بالشكل الذى تصرفوا هم به، إلا أن هناك أمارات تبشر بالأمل. فبينما انتهز فى الماضى الكثير من الفاعلين الإقليميين فرصة نوع من الشماتة الجيوبوليتكية - استغلال نقاط ضعف جيرانهم فى الحرب - فإن عدداً قليلاً من الحكومات التى تتزايد أقلمة اقتصاداتها القومية يرغب الآن فى المجازفة بالاضطراب الاقتصادى وتدفقات اللاجئين، التى هى من أهم نتائج الصراع الذى تدور رحاه على مقربة منها. ومن هنا تأتى قوة التنظيمات الإقليمية المتزايدة فى أنحاء الأرض، من المنتدى الإقليمى لاتحاد دول جنوب شرقى آسيا (الآسيان) إلى منظمة الدول الأمريكية (أواس) التى كانت فى يوم من الأيام غير مؤثرة. والكثير من هذه الجماعات بدأ كهيئات اقتصادية ولكنه صار بعد ذلك قوى أمنية.

ولا تزال النزعة الإقليمية تعالج مشكلة أخرى كانت تشغل جهود حفظ السلام التى تقوم بها الأمم المتحدة، وهى كيفية السيطرة على القوات متعددة الأجناس التى غالباً ما تتبع عادات عسكرية مختلفة وتعمل فى ظل إساءة فهم كل منها للأخرى، على نمط ما أصاب بناة برج بابل من فوضى. وأخيراً فإن الرؤساء الأمريكيين وغيرهم من زعماء القوى الكبرى، الذين يواجهون مشاكل الآن فى الحصول على اعتمادات الأمم من مجالسهم النيابية، قد يجعلون الأموال الخاصة بالنزعة الإقليمية فى المستقبل تحت مسمى المساعدات الثنائية.

والآن ما لا يسر

طبيعى أن تكون هناك أماكن كثيرة قد تثبت فيها استحالة الحلول الإقليمية التى تقرها الأمم المتحدة، أو تكون أمراً لا يمكن التنبؤ به على أحسن الفروض. ومن الواضح أن الدول الخمسة دائمة العضوية فى مجلس الأمن تتمتع بالحصانة، بما لها من أصوات تتسم بالقداسة. كما أن الحلول المحلية لا تجعل الأمور أيسر على الدوام. فأى قوة إقليمية يمكنها التدخل فى الهند وباكستان؟ والصين وأفغانستان؟ فلا وجود للدولة التى يمكن الوثوق بها بالقدر الكافى لقيامها بهذا الدور. وفى الوقت ذاته فإن نيجيريا حديثة العهد بالتعاون، التى تحررت من ماضيها الذى لم يكن خاضعاً للأعراف، قد يظن ظان أنها ستصبح الشرطى الإقليمى الذى يستمد مشروعيته من الأمم المتحدة فى غربى أفريقيا. إلا أنه ليس فى شرقى القارة من يرغب فى تحرك الأثيوبيين العنيدين أو الكينيين - وهما القوتان المهيمنتان فى المنطقة - لحل مشاكلهم فى أى وقت قريب. وفى أفريقيا الوسطى، تحارب القوى الإقليمية هناك بالفعل فى جمهورية الكونغو الديمقراطية. وفى أمريكا الجنوبية، تتعايش شيلى والأرجنتين والبرازيل فى عدم ثقة يجيش فى نفوس جيوش كل منها. وتبين هذه المواقف كلها أنه

السلام الهجين



في يوغوسلافيا، كانت واشنطن بحاجة إلى مساعدة موسكو؛ وبحاجة إلى الأمم المتحدة لإدخال موسكو في العملية. وبدعم من قرار مجلس الأمن وقوة حفظ السلام، أثبت الروس أهميتهم في إجبار ميلوسيفتش على الاستسلام. واضطر الناتو، إلى اللجوء إلى مشروعية الأمم المتحدة لنيل ما يريد

لا تزال هناك حاجة إلى مقدرة قوية على حفظ السلام داخل الأمم المتحدة كذلك. وعلى عكس قوات الأمم المتحدة، فإن القوى الإقليمية نادراً ما تبقى على التزامها لفترات طويلة - فقد اضطر الأستراليون على سبيل المثال لفرض ضريبة خاصة لتمويل مغامرتهم في تيمور الشرقية وتركوها بعد خمسة أشهر فقط على الأرض.

إلا أن هناك طرقاً إقليمية للخروج من الكثير من تلك المآزق - ويعتمد الكثير من هذه الطرق على المساعدات الأمريكية، ودعم المنظمات الإقليمية، وقبل كل ذلك على نوع من الثبات طويل المدى كانت سياسة حكومة كلينتون الخارجية تفتقر إليه. فقد دفعت واشنطن بوينس آيريس على سبيل المثال إلى خلق دور لحفظ السلام (وأعطت الأرجنتين دوراً صغيراً في التدخل في هايتي). إلا أن البنتاجون جعل تدريباته العسكرية المشتركة الموسعة في أمريكا اللاتينية أكثر اعتماداً على التعاون الإقليمي برعاية منظمة الدول الأمريكية التي لم تشب بعد عن الطوق - وهي التي حالت دون وقوع حرب بين الإكوادور وبيرو في منتصف التسعينيات ووجهت اللوم إلى رئيس بيرو السابق البرتو فوجيموري بسبب التلاعب في الانتخابات. وفي جنوب شرقي آسيا، من المعتقد أن منتدى الآسيان الإقليمي قد يزداد قوة بمشاركة الصين، وأن يحمل علم الأمم المتحدة في كمبوديا في نهاية الأمر، إذا تصرفت بكين التصرف اللائق.



وعموماً فإنه يبدو أن الحالات التي قد تفلح فيها النزعة الإقليمية تزيد على تلك التي قد لا تفلح فيها. ففي العام الماضي حددت دراسة قام بها مجلس الاستخبارات القومي ٢٣ دولة بها حالات طوارئ إنسانية قائمة بالفعل، وذكرت أن تسع دول أخرى يحتمل أن تظهر فيها أزمات. ومن بين تلك الحالات الاثنتين والثلاثين، قد تستفيد الأغلبية العظمى من حفظ السلام الإقليمي أو حلول فرض السلام - مع بعض الاستثناءات الرئيسية، كالهند وباكستان وروسيا وربما نيجيريا نفسها. بل إن النزعة الإقليمية باتت في بعض الحالات تقليداً. فالولايات المتحدة تقوم منذ مدة طويلة بدور الشرطي الإقليمي إلى الجنوب من حدودها، وأقرب ما كان ذلك في هايتي. وقامت المملكة العربية السعودية بهذا الدور في حرب الخليج، حيث جعلت التدخل الذي تقوده الولايات المتحدة مستساغاً في العالم العربي (وإن لم يكن كذلك بالنسبة لأسامة بن لادن).

وليس هناك ما هو أفضل من كوسوفو لبيان المقاربة الجديدة لصنع السلام وحفظ السلام. وبعد ما أصاب الولايات المتحدة من إخفاق في البوسنة، دخلت أزمة كوسوفو وهي عاقدة العزم على إدارة الحملة من خلال حلف الناتو وحده. وفي البداية لم يعط أي دور للأمم المتحدة. ولم يحتمل الروس واحتجاجاتهم أحد وقوبلوا بدبلوماسية الرفض واللامبالاة. وقال مسئول أمريكي أثناء الحرب: «إننا نحاول وحسب أن نجعلهم يظنون أن لهم دوراً».

إلا أن هذا كله تغير بنهاية حملة القصف التي شنها الناتو طيلة ثمانية وسبعين يوماً. فقد كان ميلوسيفتش أشد صلابة مما توقعه أحد، وواجه كلينتون بحلول أوائل يونيو التوقع المخيف سياسياً الخاص بإصدار أوامر الغزو البري. وكانت واشنطن بحاجة إلى مساعدة موسكو؛ وكانت بحاجة إلى الأمم المتحدة لإدخال موسكو في العملية. وبدعم من قرار مجلس الأمن وقوة حفظ السلام التي تحظى بموافقة الأمم المتحدة، أثبت الروس أهميتهم في إجبار ميلوسيفتش على الاستسلام. واضطر الناتو، وهو أقوى شرطي إقليمي في التاريخ، إلى اللجوء إلى مشروعية الأمم المتحدة لنيل ما يريد.

طريقة المدفع

من المفارقات أن الكثير من هذه الرؤية «الجديدة» الخاصة بحفظ السلام منصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة (في الفصل الثامن الذي طال تجاهله). إلا أن عدداً قليلاً من المراقبين ربط بين ذلك القسم والفصل السابع الأكثر استخداماً، الذي يفرض الرد على ما يهدد السلام. وتحظى النزعة الإقليمية بفقرة وحسب من تقرير الإبراهيمي الذي تحويه سبعون صفحة. وحتى المراقبين الدهاة مثل ستانلي هوفمان، الذي كان لماحاً في اتخاذه موقفاً وسطاً بين طرفي الواقعية التقليدية والنزعة الدولية الليبرالية في كتابه المهم الصادر في ١٩٩٨ بعنوان «الاضطرابات العالمية»، كانوا يغفلون في الغالب احتمال المقاربة الهجين. ويعترف هوفمان في كتابه بأن مجلس الأمن هو «المصدر الرئيسي للسلطة» فيما يتعلق بالشرعية الكونية. إلا أنه يقلل من أهمية الصلة المحتملة بين سلطة الأمم المتحدة والنزعة الإقليمية، حيث يرفض المنظمات الإقليمية باعتبار أنها «كثيرا ما تتورط في النزاعات التي بين دول المنطقة، أو داخل كل منها، أو تسلبها تلك النزاعات تأثيرها، أو أنها تفتقر إلى وسائل فرض القرارات».

ويظل هذا صحيحاً في بعض الأحيان. ويتوقف تحسن الأمور أكثر وأكثر على مبادرة الدولة التي سوف تستمر بلا شك في الهيمنة خلال القرن الحادي والعشرين، وهي الولايات المتحدة. والواقع أن مسئولي حكومة كلينتون أصروا على أنهم ينظرون إلى حفظ السلام منذ مدة طويلة على أنه نموذجهم المثالي، مشيرين إلى الجهود الإقليمية مثل المبادرة الأفريقية لمواجهة الأزمات. إلا أن مقاربتهم العشوائية أضاعت الكثير من الفرص. فلو كان كلينتون قد اعترف قبل ذلك بإمكانيات العمل الإقليمي، على سبيل المثال، لأتيح له استغلال عروض نيجيريا وتنزانيا وغانا وغيرها من الدول لإرسال قوات حفظ سلام إلى رواندا في المراحل المبكرة من الإبادة الجماعية التي حدثت سنة ١٩٩٤. في النهاية فإن تلك القوات بقيت على أرض الوطن، لأنه كانت تعوزها وسائل النقل والمعدات. وقد تحسر الرئيس الأمريكي بشدة على عدم اتخاذه إجراء ما في رواندا.

وإذا كانت هناك بدائل، فلماذا جرى تهميش الخيار الإقليمي؟ أحد الأجوبة هو أن الانتقال إلى النزعة الإقليمية من الناحية البنائية يعد مرتقى شديد الانحدار. ولا تزال الحكومة الأمريكية برمتها تعتمد على العلاقات الثنائية. فالسفراء الأمريكيون في الدول المختلفة أشد نفوذاً بكثير من نظرائهم في المنظمات الإقليمية؛ وفي وزارة الخارجية الأمريكية يدير الموظفون الضعاف معظم السياسة الإقليمية. ويميل صنع القرار إلى اتباع الهيكل التنظيمي. والسبب الآخر هو أن قليلين في واشنطن يهتمون بمواجهة احتمال أنهم قد يضطرون للعمل بقدر أقل من الفردية ويصبحون أكثر انشغالاً بجداول أعمال الآخرين. وبالنسبة للأمم المتحدة، فهي لا ترغب في الوقوف موقف المتفرج من قواتها.

ولن تبدو النزعة الإقليمية في جاذبية مبادرات الأمم المتحدة. فأي نظام يأتي به النيجيريون الآن إلى سيراليون، على سبيل المثال، محكوم عليه بأن يكون أقل قوة من ذلك الذي وعد به اتفاق لومي الذي أبرم تحت رعاية الأمم المتحدة (وإن لم يتحقق). وفي آخر مرة تدخل فيها النيجيريون في ذلك الصراع احتلوا فريتاون بعشرة آلاف جندي، بينما أتاحوا للمتمردين الهروب إلى الريف - وتجارة الماس. وأياً ما كانت أساليب النيجيريين، فقد نجحوا في وقف أعمال القتل وتقطيع الأطراف. وكما قال أحد مخططي البنتاجون بإيجاز: «لكي يتحقق للولايات المتحدة المزيد من النجاح في النزعة الإقليمية، فإن عليها في واقع الأمر أن تعترف بالأهداف الإقليمية» - وكان لا بد أن يضيف إلى ذلك الأساليب الإقليمية. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة والأمم المتحدة يمكنهما أن يجعلا دعمهما مشروطاً بمراعاة الفاعلين الإقليميين لمعايير السلوك الدولي.

وبذلك نجد أن أي نظام للشرطة الإقليمية التي ترعاها الأمم المتحدة سيكون بعيداً عن النموذج المثالي. فهو حل يتسم بالفوضى، وهو في كثير من الأحيان غير متسق ويتم التوصل إليه بغير نظام، كما ينطوي على الكثير من المخاطر. إلا أنه في بيئة من البدائل الصارمة - حيث الدور الأمريكي الذي تقرر أن يكون في حده الأدنى، والأمم المتحدة التي تعاني نقصاً شديداً في الأموال ولا تحظى بالدعم الواجب - قد لا تكون هناك طريقة عملية أخرى أمام المجتمع الدولي لوقف الفظائع التي لم يعد يبدو أنه قادر على تحملها. ■

بترتيب خاص مع مجلة «Foreign Affairs»

ترجمة: أحمد محمود

السلام الهجين



بدلاً من استعارة الانتماء لأوروبا أو أفريقيا

عروبة مصر

التاريخ يحسمها.. والمستقبل فى صالحها!

ذوقان قرقوط

**أما كفانا تشتتًا وهروبًا من المسئولية؟
أبعد استعارة الانتماء إلى أوروبا بدافع الغرور أو مركب
نقص، أو الانتماء إلى أفريقيا.. أو لمحمد على الألبانى،
أو لعله يجيئ من يقول بانتمائنا إلى النيل..
وربما غدًا إلى منابعه فى بحيرة ألبرت؟**

إن هوية مصر العربية ليست هوية مستعارة على نحو ما حاول بعضهم استعارة هوية أفريقية لها أو متوسطية أو أوروبية إلخ هربًا من المسئولية، بل هى هوية عربية أصيلة: عرقًا ولغةً وتاريخًا وجغرافية مثلها مثل فلسطين والعراق والسعودية واليمن وسوريا، إلا أنها أكبر مسئولية، فمصر هى بالعرق أو بالجنس جزء من هذه المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط التى يمكن أن نعتبرها منطقة اللغة العربية ونسميها الوطن العربى، وهى منطقة متصفة بسمات الوحدة الطبيعية والوحدة البشرية والوحدة التاريخية المتصلة المتجانسة عبر العصور (كما يقرر الدكتور يوسف أبو الحجاج وآخرون، فى بحوث فى العالم العربى) ولعل تجانسها هو سبب استقرار اللغة العربية فيها، فقد اندفع العرب بالإسلام وبالعربية إلى أسبانيا واستقروا قرونًا، إلا أنهم وإن كانوا خلفوا لدى انحسارهم آثارًا خالدة لم يتركوا من العربية شيئًا يذكر.

وفى الشرق، على تخوم المنطقة العربية، وليس على تخوم الإمبراطورية، سادت اللغة العربية فى ظل سيادة الإسلام واستمرت هى اللغة الدينية والحضارية (واللغة المحكية) قرونًا عديدة، وكانت وسيلة التعبير الوحيدة لجهابذة العلم والمبدعين فى الأدب والفقه، تفتح آفاقًا رحبة، جديدة للفكر والابتكار، إلا أن اللهجات المحلية الخاصة «القومية» ما لبثت أن تماسكت وانتعشت، على الرغم من خشية اتهامها باعتبارها «لغات زندقية»، تغذيها مشاعر قومية، أمسكت بها عن الزوال والتلاشى، فظلت على شكل لهجات محكية.



وعلى عكس الفرس الذين كان لهم ماض عريق فى الحكم والحضارة، لم ينسوا أبدًا أن العرب أدالوه، لم يكن للعنصر التركى عمومًا ثم للأتراك العثمانيين خصوصًا حين وفودهم إلى عالم الإسلام وولوجهم إلى الحكم، ماض يذكر أو حضارة: كان الإسلام وسيلتهم الوحيدة للظهور على المسرح العالمى، ومع تلازم الإسلام للغة العربية كانوا الوحيدين من بين الشعوب الوافدة من السهوب على العالم الإسلامى الذين احتفظوا بلغتهم الخاصة، وجعلوها لغة للدولة وتمسكوا بها بعنجهية كجامع لقوميتهم، وهى لغة أقل ما يقال عنها إنها لهجة أقوام رعاة من السهوب لا تمت بصلة إلى اللغات العريقة ولا لأية حضارة غير حضارة الإسلام، لم تتميز بأحرف خاصة ولا بنمط كتابة، فاتخذت كالفارسية والأوردية طريقة الكتابة باللغة العربية، وما أن انهارت الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى وانفصم ما بينها وبين تمثيل الإسلام على المسرح العالمى، حتى أقلعت عن أية صلة باللغة العربية فاتخذت قالبًا لها الحروف اللاتينية.

وأيا ما كان الرأى فى أسباب هذا التمايز فى اللغات وبقائه واستمراره بين أمم إسلامية انتظمتها روح ثقافة واحدة، يصدح فيها الأذان بدينها يوميًا خمس مرات بلغة واحدة، ومهما تشعبت الآراء فيها وتغلب اجتهاد على آخر، يبقى للجانب العرقى وللأصول التاريخية الواحدة الجانب الأقوى، سواء فى انبعاث اللغة الفارسية وإحيائها أو فى تمسك الأتراك بلغتهم أو باستعادة الأسبان للغتهم، وليس من المجافاة للحقيقة القول هنا أن تقبل شعوب المنطقة العربية للدين العربى واللغة العربية هو التجانس العرقى.

أصل واحد:

ذلك أن جماعات بشرية تمت إلى سلالات واحدة، أخذت منذ أقدم العصور تجوب أرجاء هذه المنطقة وتتخير أماكن المكوث فيها، ومما عرف من التاريخ حتى الآن وما كشف من علم الأجناس لم يذكر أن شعوبًا أخرى من جنس مخالف لجنس شعوبها سبقت إلى استيطان هذه المنطقة، وإنما يرد ذكر أمم، من خارج هذه المنطقة، غريبة عن مسار الحياة فيها، غزت سكان هذه المنطقة وحلت فيها «حكامًا» أو الأصح حلت فى أطرافها، وتمركزت فى مخارجها، كالقوط واليونان والفرس والرومان، مددًا طالت أو قصرت، إلا أنه ما من أحد يستطيع القول أن أمة من الأمم توصلت بذلك الغزو، إلى تغيير التركيب الأنتولوجى الأساسى لهذه المنطقة، وضمن هذا الإطار نفسه، لا خارجه كما يفعل الاستعمار يجب التماس أسباب تميز الأقلية البربرية فى المغرب.

فمن قبل أن توجد هذه الأمم «الغازية» وتتشكل فى دول، بل قبل أن تصل الموجات البشرية القادمة من شمال شرقى آسيا إلى أوروبا، إلى القارة المواجهة، وتبدأ بمناصبتنا عداءها المستحكم، كانت شعاب منطقتنا هذه من الخليج إلى المحيط مفتوحة للأقوى من تلك الجماعات البشرية المتحدرة من سلالة واحدة ولمن يستطيع أن يطرقها تلمسًا لمناطق العشب فى الجهات الممطرة منها، ومناطق النباتات الطبيعية وأحواض الأنهار، فما لبثت طبيعة المنطقة الجغرافية ودواعى حركة الاستقرار والتبادل البشرية أن قضت بظهور مراكز تجمع سكانية كبرى فى أماكن غنية جدًا، نموذجها: الفرات والنيل وفى أماكن أقل غنى مثل سوريا وفلسطين وتونس وليبيا أو الحجاز ونجد، متباعدة بعض الشىء، إلا أنها غير منقطعة الصلة بعضها ببعض كأنما هى سلسلة واحات ولكنها مؤهلة، تقع على صفحة يائسة من الصحارى والسهوب وبذلك لم يتكون فيها «عرب سعيدة» واحدة فحسب، على حد قول الدكتور جمال حمدان، وإنما حلقات سعيدة مترابطة عبر هذه المنطقة المترامية الأطراف الممتدة من حضرموت وقتبان فى الجنوب إلى أور فى الشمال الشرقى، إلى صيدون «صيدا» فى الشمال الغربى، إلى قرطاجة وإلى مصر فى الجنوب الغربى فاليمن، فكانت هى الدائرة التى نشأت فيها وسادت معظم الحركات التاريخية وجرت فيها أهم فصول الحياة البشرية.

ومصدر واحد أيضًا:

فى صدد البحث عن أى هذه المراكز فى هذه المنطقة أسبق فى العمران وتشييد الحضارة: سومر أم أكاد أم مصر، لفت شونيفرت أنظار العلماء إلى حقيقة طريفة، عظيمة الدلالة فى هذا الأمر وهى أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح وتأنيس الماشية والماعز والضأن، وإن ظهرت كلها فى مصر وبلاد ما بين النهرين، من أقدم العهود المدونة، لا توجد فى حالتها البرية الطبيعية فى مصر، بل فى بلاد آسيا الغربية وبخاصة فى بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة، يريد الاستدلال من هذا على أن الحضارة - وهى هنا زراعة الحبوب، واستخدام الحيوانات المستأنسة - قد ظهرت فى العهود القديمة غير المدونة فى بلاد العرب، ثم انتشرت فى صورة «مثلث ثقافى» إلى ما بين النهرين (سومر وبابل وآشور)، وإلى مصر وإن كان ما وصل إلى علمنا عن تاريخ بلاد العرب القديمة حتى الآن، يبلغ من القلة جدًا لا نستطيع معه إلا القول إن هذا مجرد فرض جائز الوقوع، بيد أننا إذا تفحصنا المعتقدات الدينية، ولا شك أن العلاقات فيها حميمة فإننا نجد فيها إشارات قد تؤيد ما ذهب إليه شونيفرت فى بلاد ما بين النهرين وفى مصر، فإن آلهة سومر وأكاد وبابل لم تكن سوى نسخة من آلهة مصر، طرأ عليها تبديل وتحوير وظل «سن» إله القمر، كبير آلهتها سائدًا إلى ما بعد أيام إبراهيم الخليل، وكان القمر إلها فى مصر، بل لعله أقدم ما عبد فيها من الآلهة، قبل أن تتفوق فيها عبادة الشمس وتتطور وفى أسطورة أوزوريس، أكبر آلهة مصر القديمة أنه سافر إلى اليمن حيث تعلم زراعات عديدة رآها لأول مرة ونقلها إلى مصر، وأورد ديودور الصقلى، وهو يسرد أسطورة إيزيس، عن لسان قدماء المصريين، علاقاتها بمدن تقع فى بلاد العرب.



ويرجع «جواد على» الأسباب إلى الأصول الواحدة، ويعتبر المؤرخون لا يخالف منهم إلا قليلاً، أن البلاد المواجهة للمحيط الهندى هى المخزن الرئيسى لأنها - فى علم التاريخ - كانت

ترى مـاهولة دائمًـا ومكتظة، إلا أن تعليل ذلك مازال يعوزنا: وهى توصف بأن الجبال التى تشكلها فى مواجهة المحيط الهندى تطوقها كالمعصم، تتصل اتصالاً وثيقًا من الشرق بسهل غرينى متدرج، آخذ فى الاتساع من قطر إلى الإحساء، فمنخفض الكويت إلى أن ينفتح على العراق، كما أن سلسلة الجبال الغربية، أو بالأحرى سلسلة الهضاب، لأنها لا تعلو أكثر من ألف متر إلا فى عدد من القمم التى تتجاوز ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، تمتد من عدن جنوبًا إلى الإسكندرونة شمالاً فتحتضن سوريا وفلسطين ومديان والحجاز واليمن؛ وعلى حين يحول المحيط العربى الهندى ومياه الخليج من الشرق دون التوسع السكانى إلى الخارج فى الجنوب والجنوب الشرقى، فلا يجد الناس أمامهم إلا المنحدرات والوديان والسهول، فإن عيون سكان الجبال الغربية الغنية، على العكس تتجه دائمًا إلى الخارج، عبر البحر الأحمر، البحيرة العربية التى كانت إلى أزمان قريبة مغلقة عند باب المندب، أو البحر الأبيض المتوسط إلى السواحل المقابلة من أفريقيا، أو عبر سيناء التى يسميها الدكتور عباس عمار فى كتابه الرائع المعبر الشرقى إلى مصر صعودًا أو إلى ما يليها بمحاذاة الساحل أحيانًا.

هكذا لا فرق بين الأقوام التى عمرت مصر من الشمال عبر سيناء والأقوام التى عمرتها من الجنوب فكلهم من أصل واحد، الفرق الوحيد ربما أن الأقوام القادمة عبر سيناء كانت أسبق إلى الحضارة كما تدل دراسة مقابر بنى حسن، وكانت أكثر عرضة لتدفق سيول الأقوام اللاحقة من الشرق، كما يشير بناء «حائط الأمير» الذى أقيم لصدها عن ورود النيل بقطعانها، الذى ينوه إليه سيمون لاكوتور فى كتابه عن مصر، ولا تخفى أسباب تأخر بناء الحضارة فى جنوب الوادى عنها فى شماله عن فطنة المؤرخ.

ولقد أمكن تحديد تاريخ الهجرات الكبيرة وأزمان حدوثها، على وجه التقريب، وجرى الاستناد فى ذلك على الاعتقاد بفكرة الطفرة السكانية، وحدوث تغيرات مناخية وأحيانًا بسبب «الجفاف» فى رأى هينتنجتون «Huntington»، ولم يؤخذ بعين الاعتبار التدافع والتنازع بين السابق واللاحق منها، ربما لعدم توفر الأدلة والمعلومات اللازمة، كما لم تؤخذ بعين الاعتبار الأسباب الأساسية الدافعة، ولم تؤخذ بعين الاعتبار الحركة المحيطة بشبه الجزيرة العربية من تقلص وامتداد، ويكاد الإجماع ينعقد على أن حدوث تلك الهجرات كان يتم فى فترات زمنية متقاربة، فقد قرر جيمس هنرى برستد، وهو أكبر الدارسين فى هذا الباب، أن «تاريخ الهجرة الأولى إلى مصر يرجع بلامراء، إلى ما قبل العصور التاريخية، لكن الثابت أن هذه الغزوة تكررت بعد ذلك مرارًا فى العصور التالية، ويرى آخرون ويؤيدهم برستد أن موجة أمت وادى النيل، واستقرت فيه عن طريق باب المندب هى الموجة التى يطلق عليها «موجة الجزريين» نسبة إلى الجزيرة العربية، وذلك حوالى ٣٥٠٠ ق.م فى الوقت الذى اتجهت فيه موجة الأكاديين، وقبائل من العموريين الذين كان منهم البابليون ونابغتهم حمورابى إلى العراق، كما اتجه إلى العراق أيضًا العموريون بعد ذلك بحوالى ألف سنة، إلا أن المطاف انتهى بأكثرهم إلى الاستقرار فى سوريا وفلسطين، وفى نفس الوقت توزعت القبائل الكنعانية فى أجزاء كثيرة من سوريا وفلسطين ولبنان قادمة من شرق الجزيرة العربية بدلالة وجود أسماء أماكن وجزر ومدن وقرى أقامها الكنعانيون فى لبنان وفلسطين، فضلاً عن وجود مثل هذا التشابه فى المقابر والهياكل والمساكن، كما نجد تشابهًا الآن بأسماء قرى عامرة، مسكونة وأخرى خرائب فى جنوب سوريا وأسماء قرى ومدن فى جنوب شبه الجزيرة، وقد استقر اليبوسيون وهم أحد بطون الكنعانيين فى القدس وما حولها، واستقر الفينيقيون وهم بطن آخر من الكنعانيين فى لبنان وعلى الساحل الشمالى من فلسطين وتفاخروا بامتلاكهم شواطئ المتوسط وتلقب بعضهم بملوك العالم وملوك الأقطار الأربعة.

ويذكر إسرائيل ولفستون (أبو ذئيب) ـ فى تاريخ اللغات السامية (مطبعة الاعتماد / القاهرة) ـ وإن كانت الأمانة تنقصه فى بعض ما يذكره أحيانًا ـ أن قبائل «معين» كانت تسكن جوف اليمن فنزحت فى مرحلة أولى واستوطنت بلدان شمالى الجزيرة العربية حيث أثرت فى لغة القبائل الحجازية وأقلامها وفى حضارتها تأثيرًا عظيمًا، ثم عرف أنها تفرقت فى الألف الثانى قبل الميلاد، وانتشرت انتشارًا واسع النطاق فى جميع أنحاء الحجاز وهضاب طور سيناء إلى مصر، وتفرقت فى جنبات وادى النيل بدلالة الكتابات التى اهتدى إليها الباحثون وجاء فيها ذكر لبطون تعرف باسم «معين مصران» تؤيدها نقوش عثر عليها فى بلاد اليمن وورد ذكرها فى التوراة فى أخبار الأيام الأولى باسم «معونيم» وفى أخبار الأيام الثانية باسم «بعل جور»، حيث يذكر أبو ذئيب أنها هى التى تصدت لبنى شمعون فمنعتهم من التوغل فى أرض الجزيرة ومزقتهم شر ممزق، وقد حافظت الدولة التى شكلها أحد فروعهم فى غزة بفلسطين على وجودها حتى جاء الإسكندر، فوقفت فى وجهه ما يقرب من ستة أشهر وبعد تدميرها اضطر «معين» إلى الانسحاب إلى طور سيناء.

وثمة أمر آخر لم يعره أحد من الباحثين بعد اهتمامه فى سكنى المنطقة العربية، بل ولم يلتفت إليه وهو التسرب ـ إذا صح التعبير ـ الذى يجرى من البادية إلى الحضر بجماعات أو أفراد أو بيوت محدودة تتفرق كأنما هى طلائع وتتخير سكناها غالبًا على حواف المعمور، ففى كل عصر وتاريخ كل دولة من دول هذه المنطقة تسمع بذكر جماعات من البدو تتعامل هذه الدولة معها سلبًا أم إيجابًا ثم يختفى ذكرها وما نلبث أن نسمع بذكر جماعات أخرى غيرها حلت محلها، مما يدل على أن سيل هذه الجماعات لم يكن ينقطع باتجاه العمران، وإنها كانت كلما تأنس ظروفًا مواتية، تستقر وتندمج فيما يليها، ولعل هذا ما يفسر تقدم أو تأخر حدود هذه الدول فى البوادى المحيطة بها.

وذلك كان شأن الآشوريين مع «البدو» فقد كانوا يتوغلون فى بلاد العرب، أحيانًا كثيرة للسيطرة عليهم فى مناطقهم؛ وإذا كان «حائط الأمير»، كما ذكر جان وسيمون لاكوتور، فى كتابهما: مصر تتحرك الذى شيد بين مصر وسيناء قد درس ولم تنقطع سيول قطعان البدو عن ورود مياه النيل من هذه الجهات، إلا عندما تكون الحكومات قادرة على السيطرة على سيناء نفسها، بل والامتداد إلى فلسطين، فإن الآشوريين جعلوا قاعدة حكمهم اضطرارا ولا شك فى قلب صحراء العرب. ويؤخذ من سجلات الآشوريين أن مواقعهم مع البدو امتدت من «قرقر» شمالى مدينة حماة فى سوريا، حيث اشتهرت بالمعركة مع «جندب» أحد مشايخ العرب إلى «أدومو» فى شبه الجزيرة التى يسمونها «قلعة العرب» وهى التى تطلق عليها المصادر العربية اسم «دومة الجندل» ولقد «بادت» هذه القبائل الواردة فى سجلات الآشوريين و«بادت» تلك الوارد ذكرها فى تاريخ المصريين، كما جاء بعدها غيرها هنا وهناك وباد أو الأصح أنه اندس فى المعمور واندمج وذاب، ولم تنقطع مع ذلك سيول القبائل، وحتى الآن.



ولا أظن أننا نجد أوضح مسلكًا إلى عمران مصر إلا أن كتابة المؤرخين الغربيين، كثيرًا ما توقعنا فى الالتباس وكالعادة تسهل علينا مجاراتهم فى آرائهم دون تمحيص، مثلاً كما جرى بشأن الهكسوس والليبيين مع أن أمر البت فى أصل هذه الأقوام لا يحتاج إلى عناء كبير إذا حَسنت «النية»، ففى الهكسوس إننا لا نعتقد أن تكهن المؤرخين الآن، باعتبارهم غرباء عن المنطقة، أقرب إلى الصحة من معلومات قدامى المصريين أنفسهم عن الهكسوس: فقدامى المصريين كانوا يعتبرونهم «شيوخ الصحراء الشرقية وقبائل آسيا الجنوبية الغربية» وهذا الاعتبار وحده يحسم الأمر.

والأغرب تشتت المذاهب فى أمر «الليبيين» والذهاب إلى احتمال أن

يكونوا من أصل أوروبى والوصول إلى التقرير بأن الليبيين بعكس المصريين كانوا يكتبون من الشمال إلى اليمين (رجاء الاطلاع على كتاب الدكتور على فهمى الخشيم فى اللغة)، لكن كبير هؤلاء المؤرخين ـ وهو برستد ـ سرعان ما يتراجع عن هذا الرأى بعد صفحة واحدة من كتابه الضخم لينقض ما ذهب إليه، إذ يعجز عن أن يبين كيف ركب البحر أو اجتاز المسافات الطويلة عبر أسبانيا إلى ليبيا هذا «العنصر الأوروبى» كما يقال، لينشئ حضارة فى ذلك الوقت الذى كانت أوروبا فيه بالكاد مسكونة بعد، ثم يقفز إلى مصر ليحكمها، بينما الإجماع منعقد على أن اتجاه الحضارة، بل والعمران كان يسير من الجنوب إلى الشمال، ثم إذا ببرستد ينبذ فى تحليله اللاحق وجود أية روافد بشرية يعتد بها يمكن قدومها إلى وادى النيل من غير باب المندب والبحر الأحمر أو من غير سيناء وصحراء العرب، المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتلك المعابر، إذ من بين الطرق المؤدية إلى مصر، بقيت سيناء «حتى منذ الأزمان التى كانت فيها الآلهة هى التى تحكم مصر»، كما تشير الميثولوجيا المصرية أهم قنطرة ثابتة مفتوحة دائمًا للهجرات على نحو ما يقرر عباس مصطفى عمار، تقطعها إليها بشكل موجات فردية أو بشكل موجات فردية وجماعات قليلة أو بشكل غزوات كبيرة منظمة، سواء أكان ذلك بدافع الطمع فى الثروة أو هربًا من قوة عاتية تدفعها من الخلف، فإننا فى جميع الأحوال لا نجد قبيلة فى سيناء ليست لها فروع ممتدة ومتفرقة فى مصر، كما أننا لا نجد قبائل سيناء قد لملمت نفسها ذات مرة وانكفأت داخل سيناء، قاطعة علاقاتها بأصولها المشرقية، فليدلنا الضالعون فى العلم على قبيلة كانت تنحدر من «آدم» مباشرة، نشأت فى سيناء ولم تكن أصولها ممتدة ضاربة فى الأردن وفى سوريا وفى الحجاز وفى مصر.

وهذا ما يجعل مصر ـ باستثناءات شاذة ـ تلتفت بوجهها إلى المشرق إذ أن نظرة إلى الخريطة البشرية توضح لنا أن مصر طوال تاريخها المعروف تنتمى إلى آسيا العربية، أكثر مما تنتمى إلى أفريقيا لأنها على حد قول الدكتور عبد المنعم أبو بكر (الأهرام ١٩٦٩/٩/٢٩)، وهى فى موقعها هذا منذ الأزل بينها وبين تجمعات العرب البشرية علاقات حضارة وشيجة، لم تنقطع طوال الزمن، وإنما نمت وتبلورت فى مفاهيم جديدة.

لا فرق بين الأقوام التى عمرت مصر من الشمال عبر سيناء والأقوام التى عمرتها من الجنوب، فكلهم من أصل واحد. الفرق الوحيد ربما أن الأقوام القادمة عبر سيناء كانت أسبق إلى الحضارة كما تدل دراسة مقابر بنى حسن، وكانت أكثر عرضة لتدفق سيول الأقوام اللاحقة من الشرق، كما يشير بناء «حائط الأمير» الذى أقيم لصدها عن ورود النيل بقطعانها



مميزات حضارة واحدة:

لم تتوقف الصلات والتفاعلات بين الأقطار العربية ومختلف الأقاليم عند الصلة العرقية الواحدة التى لم يعد هناك موجب للشك فيها؛ وإنما هذه الصلات لم تنقطع أبدًا، بل كانت تتزايد مع الزمن، ففى كتاب ميلاد الحضارة يكتب الدكتور أحمد فخرى مستندًا إلى أقوال العلماء (المجلة التاريخية المصرية عدد أول أكتوبر ١٩٥٠ ص٦-١٠) يكتب أنه لكثرة ما شاهده علماء الآثار من تأثير فن العراق فى الفن المصرى حملهم على القول باحتمال وقوع هجرة بشرية واسعة النطاق من بلاد الرافدين إلى وادى النيل منذ عصر ما قبل الأسرات (العصر الناسى فى مصر والسومرى فى العراق ٥٠٠٠ق.م) فمما عثر عليه من ذلك العصر المبكر أختام أسطوانية، مأخوذة عن الأختام الأسطوانية التى كانت معروفة فى العراق من العصر الذى يطلق عليه الآن عصر ما قبل اختراع الكتابة، وكما عثر على ما يشير إلى تأثير العراق فى مصر، عثر على ما يشير إلى تأثير مصر فى العراق. وينتهى «ول ديورنت» من دراسته إلى القول إنه لم يكن التشابه بين مصر والعراق كالشبه بين قطرتين من الماء فحسب، وإنما كان الشبه كذلك فى أثرهما فى حضارات بلاد الشام وسيناء وفى التوراة وما جمعه الإسرائيليون وخلفوه من تلك العهود (قصة الحضارة، ج٢ ـ ترجمة محمد بدران ص ٤٤ـ٤٥).

ولا غضاضة على مصر فى أن يكون العراق قد سبقها، لأنه لم يكن غضاضة على مصر نفسها فى أن يبدأ فيها نشوء الحضارة بالدلتا ـ قبل الجنوب ـ لموالاتها لسيناء وبلاد الشام ولسبقها لجنوب الوادى بالتجمعات السكانية، ثم تنشأ فى طيبة فإن الأصول التى استمدتها الحضارة فى مصر من أرض دجلة والفرات، سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة بيئة خاصة فذة، راحت تعبر عن المنطقة بأكملها: تعبير الجزء المترع عن الكل ـ أغنى تعبير، وبلا ريب كان أغنى ما قدمه التاريخ المعروف وأعلاه شأنًا وأرفعه وأعظمه.

وقد التقت حضارتا مصر والعراق فى حضارات أخرى من حضارات المنطقة وتداخلتا فيها ـ فثمة قرائن قوية توحى بوجود صلات بالغة القدم بين حضارات ممالك السبئيين والمعنيين والحضريين والقتبانيين الراقية فى الجنوب وحضارة ما بين النهرين، كما كان للأدوميين فى المنطقة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة وبين المؤابيين والعمونيين فى شرق الأردن، ثم الأنباط الذين جاءوا بعدهم علاقات بقيت وثيقة بأصولهم فى الجنوب، حتى ليكاد يخيل للدارس أنها هى الأقوام التى عمرت سيناء لا ينفصل بعضها عن بعض إلا بالاسم (د. حازم نسيبة ـ قومية عربية ـ ترجمة عبد اللطيف شرارة).



إن وحدة العناصر السكانية كانت تنزع بأقطار هذه المنطقة منازع صلات أكثر حميمية، إنها كانت تنزع من التشابه الحضارى والتقارب فى الأساطير والعبادات، إلى التشارك فى ابتداع وسائل التعبير، فإذا نحن تجاوزنا «المدارس» القديمة فى النظر إلى اللغة واعتبرناها كائنًا حيًا يتطور بتطور الإنسان وقدراته العقلية وحاجاته، لا أنها قديمة قدم الله ولا أنها لغة الله ولغة الوحى، كما كان يقال، وكان القصد بهذه وتلك الإنقاص من تأهل العرب بجهدهم وأهليتهم لحمل رسالة الإسلام.

لعل أول من سبق إلى القول بوضع اللغة كان «ابن جنى» وإن وضعها لم يكن فى وقت واحد، بل على دفعات إذ تلاحق تابع منها بفارط على حد قوله فى كتابه «الخصائص»، ثم القاضى عبد الجبار الأسد آبادى فى «المغنى الذى دلل على أن اللغات تتطور عضويًا، ثم تلاهما ابن خلدون.

إذا كانت اللغة العربية قد شرفت حقًا بالقرآن الكريم وأن القرآن الكريم قد صادف فيها أغنى اللغات وأغزرها تجربة وأفصحها بيانًا وأقدرها على توفير الإعجاز، إلى آخر ما نعتز بوجوده فيها من صفات، فليس ذلك متأتيًا من أنها كانت قديمة قدم الخليقة، أو كانت لغة آدم فى الجنة.. أو.. أو.. وإنما لأنها حصيلة تلك الحضارات القديمة الرائعة التى نشأت فى جنبات هذا الوطن وورثة تجاربها، استطاع أهلها بما هيئ لهم من ظروف فى وسط تلك الحضارات، أن يصفوها ويقطروها فيرتقوا بها وترتقى بهم، حتى إذا ما آن أوان رد فعلهم على حصار الأمم الغازية لبلادهم من حولهم وتضييق الخناق عليهم فى شبه جزيرتهم من الخارج ومحاصرتهم بالعقائد الغريبة من الداخل، عند دوران القرن السادس الميلادى، كانت قد كانوا أهلاً لحمل الرسالة إلى العالم.

ولا شك فى أن لهجات «محلية» و«إقليمية» عديدة، بل ولا حصر لها للتفاهم وجدت وفقًا للمجتمعات البشرية سبقت تكون اللغة، وراحت الحاجة تزداد إلحاحًا لتحويل رموز «البغمات» المحلية إلى ما يشبه القواعد للتفاهم تيسيرًا للمصالح المتشابكة.

ابتداءً توصل قطبا تلك الحضارات: مصر والعراق إلى أسلوب واحد للتعبير بالصور: فسميت الكتابة المصرية بالهيروغليفية وكانت ترسم على أوراق البردى لتوفرها فى مصر ومجموع صورها خمسمائة، وسميت العراقية بالمسمارية لأن الصور كانت تحفر على ألواح من الطوب وكان مجموعها ثلاثمائة صورة، ولوول ديورانت رأى لم يقطع به بعد، بانتظار بت المختصين مؤداه أن الكتابة التصويرية التى كان قدماء المصريين يستخدمونها قبل عصر الأسرات، كانت قد انتقلت إلى مصر من العراق مستندًا إلى أنه «كلما رجعنا إلى الوراء فى دراسة المصرية القديمة زاد ما نجده فيها من صلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية، حتى نكاد نقول إنها لغة واحدة»، وأيا كان من أمر انتشار الكتابة واتجاه انتشارها، فإنها أصبحت متقدمة تمامًا فى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، وبالكتابة يبدأ التاريخ.

ولقد ظل رجال العلم الحديث أمدًا طويلاً، يرون أن الأبجدية الفينيقية الشهيرة مشتقة مباشرة من الهيروغليفية لما بين البلدين من صلات وثيقة، بلغت قبل أن تقوى جذور الإقليمية حد اعتبار فينيقية امتدادًا للأراضى المصرية، وعلى قلة الآثار الفينيقية المتبقية إلى الآن، فإن الفن الفينيقى يشير إلى تبعيته التامة للفن المصرى، وكذا سائر مظاهر الحضارة الفينيقية، ومن ذهاب البعض إلى أن الفينيقيين هم الذين كانوا أول من عمم طريقة الكتابة بالحروف الهجائية، أخذوا أصولها من مصادر مصرية.



ولقد كشفت الحفريات فى ناحية بنت جيل (رأس شمرة) شمالى اللاذقية بسوريا على الساحل الفينيقى عن كتابات اتضح إنها من الأبجدية الأوغاريتية المؤلفة من ثلاثين حرفًا، متأثرة بالهيروغليفية وبالكتابة المسمارية، وقد أوردت جميع الحروف على ترتيب الأبجدية الآرامية المكونة من (٢٢) حرفًا صامتًا، وهى تشكل كذلك إحدى الحلقات المفقودة التى يبحث عنها، ولوحظ أنه استعمل فيها نظامًا أبجديًا على أساس مختلف إذ كتبت الأبجدية بقلم على ألواح الطين. ولذلك اتخذت علامات مسمارية أو إسفينية، مستعينة لا شك بما ابتكره الكنعانيون من تبسيط، كذلك وجدت كتابة بهذا الخط فى بيت شمش، وهناك ما يحمل على الظن بأن هذه الكتابة كانت فى القرون السابقة، بل ربما كانت هناك بالإضافة إلى هذين النوعين من الكتابة اللذين تم التوصل إليهما فى سيناء وفى الساحل اللبنانى والسورى أنواع أكثر تعقيدًا استخدمت ولم تصلنا، المهم فى ذلك كله هو ظهور هذا الواقع المتشابك بين أطراف عديدة فى الآثار المكتشفة التى تشير إلى الإسهام والمشاركة.

واقتبس الآراميون عن الفينيقيين لغتهم، فنمت وانتشرت بانتشار تجارتهم ونفوذهم وبما أدخل عليها وغزت سائر المشرق وحلت فيه محل الهيروغليفية والمسمارية البابلية والأبجدية الفينيقية، ففيما اكتشف منها فى تل العمارنة ـ عاصمة أخناتون ـ أمنحتب الرابع ـ تظهر أن الحكام المصريين كانوا يخاطبون أمراء سوريا باللغة الآرامية، مكتوبة بالخط المسمارى أى أن تلك اللغة كانت هى اللغة الدبلوماسية المتعارف عليها فى العالم المتحضر حينذاك، وكان هذا العالم لا يعدو الشرق العربى الآن وبلاد فارس، (جون ويلسون: الحضارة المصرية، ترجمة: د. أحمد فخرى)، وكانت تلك الكتابات بالخط المسمارى الأكادى قبل أن تأخذ الآرامية شكلها الأخير، وقد سهلت ببساطة أبجديتها على الجنوب اشتقاق لغتهم مباشرة من الكتابة السينائية التى كان لها على الفينيقيين كذلك فضل تحقيق المرحلة الابتدائية.

بات بحكم الثابت الآن أن تلك «اللغات» التى يجمع المؤرخون مع ذلك، على أنها من عائلة لغوية واحدة، بل ومن أصل واحد، لم تكن فى حقيقتها إلا لهجات، ضاع غيرها كثير للغة واحدة لم تكن قد اكتملت بعد، ويرجع ما بين هذه اللهجات من أوجه الخلاف إلى عوامل عديدة مثل الزمن وجغرافية المكان وانعدام الوحدة السياسية والأوضاع الدينية.. إلخ لا إلى الخلاف فى المنشأ الجنسى، وهذا ما يدعو الباحث المتعمق إلى القول بأن هذه المناطق عثرت فى اللغة العربية بمجئ الإسلام بالقرآن على ضالتها: على اختصار لجهدها فوجدت فيه ما يعبر أحسن تعبير عما تريد فلم تكره على تبنى اللسان العربى كما يقال، وإنما تقبلته برضى، كما استقبلت حكم العرب المسلمين.

المقصود الأهم، ليس تقديم دراسة فى اللغة وأصول نشأتها، وإنما بعد بيان الأصول العرقية الواحدة لهذه المنطقة، إظهار مشاركتها فى تطوير اللهجات التى انتهت إلى اللغة العربية، وأصبحت لغة القرآن، وعليه فاللغة الصفوية، لغة سكان الصفا، الدولة المشهورة التى قامت جنوب سوريا ممتدة من شمال الأردن إلى النمارة - كانت لهجة عربية قريبة من لغة القرآن أو هى عربية الكتابة كما يدل على ذلك أقدم نص يرجع إلى القرن الرابع الميلادى وهو نقش النمارة وهى مرتبطة ارتباطًا عضويًا بجنوب شبه الجزيرة.

وباتساع أثر التجار الآراميين اتسع أثر لغتهم وبانتشار الآراميين انتشرت الأبجدية الفينيقية - الكنعانية لغة واحدة فقط، راحت تنمو وتتقدم وتنتشر بجانب الآرامية حيثما كان فى جنبات المنطقة، هى اللغة العربية وذلك مع انسياح العرب المستمر، فقد كانت فى بوادى الشام والعراق، فى المدن والقرى المتاخمة وعلى الأخص فى حمص وقنسرين ووادى الأردن وفى الشام والأنبار والمدائن والموصل والرها ونصيبين.. إلخ. فى العراق والجزيرة، هى اللغة الدارجة، كما راحت تنتشر فى الشمال الأفريقى وفى مصر، بدلالة مراكز الملاحة العربية المنتشرة فى عهد البطالمة ووجود الكتابات العربية فى المعابد المصرية.

يخطئ من يظن أن اللغة العربية مجرد أبجدية: حروف ترص وتراكيب تنشأ فى بناء أصم، إنما هى كائن حى لا تحمل من المعانى والأفكار التى تعبر عن الأفراد فحسب، بل هى ما يلخص وهى تقوم بهذا الواجب بين الأفراد والشعوب والوجود الحضارى للمجتمع وللأمة، لذلك فإن الباحث فى اللغة العربية يجب أن يجد مفتاح فهمها وغناها وسعتها فى هذه المجتمعات الحضارية التى انتهت بتطورها عبر العصور إلى إخراج اللغة العربية، فقول بعض الباحثين فى تاريخها ممن مس بعض جوانب الحقيقة بهذا القول، بأن قبائل جمة، آرامية وكنعانية وآمورية ومعينية.. إلخ، امتزجت بالـ «عرب» فى الجزيرة العربية أو على تخومها وتركت فيهم آثارًا ظاهرة - صبحى الصالح - ليس كل الحقيقة، فالوصول إلى استجماع هذه الحقيقة لا بد من الأخذ بعين الاعتبار إلى جانب تمازج هذه الحضارات، الهجرة السلبية منها، هجرة أقوام من الحضارة إلى البادية، على غرار عودة إبراهيم الخليل من الاستقرار فترة، ثم معاودة الترحال، وعودة قبائل «معين» فى العراق مرة إلى حياة البادية وعودة القبائل الليبية بعد أن اجتازت النيل إلى الغرب، إلى أرض مصر مرة ثانية للاستقرار فيها.. إلخ. وتمازج البداوة بالحضارة فى جميع مراحل تاريخ هذه الأقوام. ونشوء اللهجات المحلية والإقليمية فى كافة هذه المجتمعات الحضارية قبل أن تنفتح بعضها على بعض فى الإسلام، فها هنا مصدر سعة التعبير فى اللغة العربية وكثرة المفردات وتنوع الدلالات.

كتابة المؤرخين الغربيين، كثيرًا ما توقعنا فى الالتباس وكالعادة تسهل علينا مجاراتهم فى آرائهم دون تمحيص، مثلاً ما جرى بشأن الهكسوس والليبيين مع أن أمر البت فى أصل هذه الأقوام لا يحتاج إلى عناء كبير إذا حَسُنت «النية»، ففى الهكسوس لا نعتقد أن تكهن المؤرخين الآن، باعتبارهم غرباء عن المنطقة، أقرب إلى الصحة من معلومات قدامى المصريين أنفسهم عن الهكسوس



الحكم الأجنبى ومحاولات التحرر بالمسيحية العربية

لم تكن هذه المنطقة التى يسكنها العرب الآن ويعيشون على سطحها، غائبة عن الصراع الطويل الذى نشب فى العصور القديمة بين الشرق ممثلاً فى الفرس حينئذ والغرب ممثلاً فى اليونان والرومان، الذى أدى بكورش Xerkes أن يصل إلى محاربة الغرب فى عقر داره، فى ماراثون وإلى أن يرد الغرب الكيل كيلين فيجتاز البحار إلى احتلال الشرق، الذى كان يتمثل فى المنطقة العربية وما وراءها، وإنما كان الصراع فى حقيقته وجوهره هو عليها وبالذات على الطرق التى تخرج منها أو تؤدى إليها جالبة سلسبيل الحياة إلى المجتمعات البشرية.

ولقد أدى هذا الصراع إلى تناوب السيطرة على هذه المنطقة التى يسكنها العرب ومع أنه ما كان فى قدرة هذا الحكم الأجنبى أن يتغلغل ويغير من طبيعة الشعب إذ بقى طيلة وجوده لم يتعد بعض الثغور والبؤر، «محاصرًا» لا حاكمًا، فالإسكندرية وإن بقيت عاصمة البلاد إلا أن اسمها أصبح Polis، الحاضرة وأصبح الوادى هو الريف Chorix وكان مغزى هذا الثنائى ازدهار الحضارة المصرية من خلال معاملتها فى معابد إدفو وإسنا وفيلة وطيبة ودندرة، حيث كان وراء نشاط المعماريين والرسامين فى زخرفة المعابد ونقش الأساطير الكونية وعلاقتها بمصير الإنسان على الأرض، اعتزاز واضح بخلود مصر من خلال أن الاعتقاد بتخليد هذه الطقوس على الحجارة الضخمة وهو أقوى مواد الكتابة، سيجعلها تخلد لأن خلودها خلود لمصر وللكون بأسره.

ويذكر هيرودوت ما يؤكد على امتناع المصرى عن الاندماج ، إذ كان ينفر من الإغريقى ويعاف تقبيله كالعادة عند التحية، كما يرفض أن يستخدم سكينًا أو مقلاة أو مرجلاً صاحبه إغريقى، وحرم على المصريين تذوق لحم العجل المذبوح بسكين إغريقية، وقد ظلت المعابد طوال تاريخها قلاع المقاومة ضد الغزاة وكانت مراكز الثقافة الوطنية، وقد حظر دخولها على غير المصريين. وإذا ارتاب الكهنة فى أن يتوصل الأجانب إلى معرفة سر السحر المصرى المنقوش على حوائط المعابد ويبطلوا مفعوله، لجأوا إلى تحويل الكتابة المصرية إلى طلاسم ورموز ذات شفرة خاصة لا يعرفها سوى خاصة الخاصة من الكهنة.

ولم تختلف طبيعة الحكم الرومانى إلا فى أن مدته كانت أطول وأنه كان أشد صلفا وأكثر عنتًا، فمن المعروف أن علية القوم من أهل المدن فى بلاد الرومان نفسها كانت تنفرد بحقوق لا يتمتع بها عامتها ولا يرقى إليها أهل الريف فيها، فما بالك بأهل المدن وبأهل الريف فى البلدان الأجنبية التى فتحت بحد السيف، إذ لم يكن من حق الشعوب الأخرى أن تنال من الاعتبار إلا بمقدار علاقتها بالتاريخ الرومانى على حد تعبير البان ويدجرى، من هنا كان لا بد للإدارة الحاكمة فى المقاطعات الخاضعة للحكم الرومانى من أن تكون منفصلة تمامًا عن الشعب المحكوم، ولم تكن القوانين التى فتحت الأبواب لتسرب عناصر عربية إلى الحكم فى أواخر الحكم الرومانى، بهدف تحرير الشعوب العربية بمقدار ما كانت دليلاً على تنازلات الحكم الرومانى نفسه، فما لبثت السلطة المركزية أن تفككت وإذا بدوقيات مصر الخمسة تستقل الواحدة عن الأخرى بحكومتها وحاميتها، تجهل الواحدة منها ما تفعله الأخرى حتى دخل العرب المسلمون الإسكندرية.

هكذا يمكن القول بأن «المسيحية» الأولى كانت مسيحية عربية، لم يشرف القرن الثالث من تاريخها على نهايته، حتى كانت لها مراكز ثابتة ينتشر منها المبشرون إلى من جاورهم من الأمم فى الشمال الغربى من سوريا وفى الشمال الشرقى من العراق وفى الغرب والجنوب من الحبشة، فمن بيت المقدس ومن دمشق ومن أنطاكية ومن الرها انطلق المبشرون إلى حيث العرب، أى إلى حيث مركز القبائل، وحينئذ كما يؤكد د. أسد رستم، ويأخذ عنه د. عباس مصطفى عمار، بدأت تطرق الأسماع أخبار أساقفة بصرى وتدمر.. إلخ. ولم يشعر معتنقو هذا الدين الجديد بشىء من الطمأنينة على دينهم إلا حين انتشرت الكنائس فى بلاد العرب الصخرية وقام فيها كرسى دينى عرف بكرسى فلسطين الثالثة امتدت فروعه إلى آيلة وفاران وجبل سيناء وغيرها Palestine Tertur.

كانت رغبة شعوب المنطقة فى «الخلاص من الحكم الأجنبى» ظاهرة بكيفية أو بأخرى، وظهور «المسيحية» وانتشارها شكل مرحلة جديدة فى تبلور واشتداد نزعة التحرر من خلالها، فقد عثرت فيها هذه الشعوب على طريق الخلاص، وفى هذا اختلفت شعوب شرقى البحر الأبيض المتوسط وجنوبه عن الشعوب غربه وشماله لأسباب عديدة، فكان أن تولدت عوامل الحرص على وحدة الإمبراطورية، وهى وإن بدت بطيئة ولكنها كانت فعالة فى تحول القياصرة، وبالنتيجة إلى اعتناق الدين الجديد وحرف تجاهه، إذ مهما حيك من قصص حول اعتناق قسطنطين للمسيحية، فإنها كانت محض أساطير، فشتان ما بين الإيمان بمرسوم كما يجرى فى الغرب والإيمان العفوى فى الشرق للتوافق بين آفاق الدين الجديد والأمانى الدفينة التى يغذيها الإنسان فى دخائله للخلاص من وضع مهان فيه والانتقال إلى وضع أفضل، كما كان الحال حينئذ بين الغرب الحاكم والشرق المحكوم.

فماذا يهم الإنسان غير ما هو فيه، فإن ذهب به همه إلى أبعد: إلى الجنة أو جهنم فإنما هو ناجم عما هو فيه ودواء له، فلم يكن تعطش ذلك العالم الذى ولدت فيه المسيحية إلى القوة الروحية ناجمًا من فراغ، وكانت خشية الإمبراطورية الرومانية من هذه القوة الروحية دافعها إلى الاضطهاد لإيقاف الانسياق إلى التحرر بالمسيحية. ومن هنا جاء المجمع النيقى الأول (٣٢٥م) لتلافى هذا «التحرر» فى الانسياق الماضى فيه، الذى كان سيؤدى إلى انفراط الامبراطورية إلى اتجاهين، لذلك عاد الامبراطور قسطنطين بإيمانه وقد عاد يجمع فى يديه كل السلطة فى العالم الرومانى شرقه وغربه - بعد أن قسمه إلى إدارتين - يحشد جميع القوى السياسية والدينية فى مجمع نيقيا المسكونى لإعطاء الإمبراطورية المهددة بالانهيار، وبالتالى المهددة بانعتاق جزئها الشرقى من نيرها، دعمًا بوحدة أيديولوجية، فكان لا بد لذلك من تغليب المفهوم التقليدى الملكى عن «الرب المعذب» على ذلك المفهوم المنطلق من النظر إلى يسوع المسيح على أنه رسول وكانت تمثل هذه النظرة الإسكندرية وعلى رأسها «أريوس» الليبى الأصل، ومن ورائه «المنطقة العربية».

من هنا، من مجمع نيقيا، تبدأ حقبة الاضطهاد الثانية فى تاريخ المسيحية، وهى الحقبة التى تشتد فيها محاربة الدولة والكنيسة الرسمية (التابعة لها) لمسيحية الشرق لإعادتها إلى عقيدة الغرب، باعتبار أن المسيحية أصبحت عقيدة الدولة، ولكن بتفسيرها الخاص لها: اليونانى - الرومانى - وليس بعقلية اعتناق المناطق الشرقية لها، وبدت ملامح الانشقاق واضحة بين العقليتين وبين المفهومين، إلا أنه على الرغم من تمسك هذه المناطق بثقافاتها وبهويتها المتميزة عن المحتل رغم جبروته، وبدينها قبل ظهور المسيحية، ثم بعد ظهورها بتمسكها العنيد بتفسيرها الخاص لها المتميز الأكثر إنسانية وتحملها الاضطهاد والتشرد فى مرحلتى تاريخها قبل صدور مرسوم ميلانو ٣١٢، وهو المرسوم الذى جعل المسيحية دين الدولة وقنن الاضطهاد لفرضها وتعميمها، على الرغم من توفر

خصائص التفرد، هذه كلها لم تتوصل هذه المناطق التى يكاد ينظمها نزوع واحد للتحرر من الحكم الأجنبى إلى الاستقلال عنه، ولئن كان مجمع خلقيدونيا عام ٤٥١م الذى انقسمت بعده المسيحية نهائيًا فصارت مسيحيتين، يدل على شىء بذلك، فإنما يدل على استعصاء هذه المناطق الشرقية التى انفصلت بدينها عن روما، على الاندماج مع أنها أحق بزعامة المسيحية، لكن الثابت فى التاريخ أن الزعامة الدينية لابد من أن تظللها قيادة مدنية سياسية لتمكن لها.



المعروف أنه عندما أصبحت كنيستا أنطاكية والإسكندرية صاحبتى العقيدة المركزية، أى منذ تأسيسهما حتى مجمع خلقيدونيا عام ٤٥١م، قد حصلتا على «صلاحيات الإدارة الذاتية والمستقلة»، وعندما اعترفت الدولة على تملك أهل مصر للأراضى، أخذت الكنيسة فيها والأديرة تضيف باستمرار إلى ممتلكاتها وأصبحت أقاليم بكاملها تخضع لسلطانها (أبو سيف يوسف، وجاك تاجر)، كما أصبح للبطاركة والأساقفة سلطات مدنية، بل وكانت لهم سلطات قضائية، وتوطد نفوذهم ليمارسوا حق الإشراف على الإدارة الحكومية، ولم يجئ القرن السادس حتى صارت الكنيسة المصرية تعد أكبر الملاك، تتمتع بحق الجباية الذاتية وحق الحماية الذى حرم منه كبار الملاك، على ما تؤكد نفس المصادر، وكانت الكنيسة المصرية بلغت ذروة نفوذها فى عهد البطريرك ديستوريس الذى قيل إنه كان «سيد البلاد المطلق» (صبحى وحيدة) وكان ينسب إليه، كما يذكر جاك تاجر قوله: «إن البلاد لى بأكثر مما هى للأباطرة، وإننى أطالب بالسيادة على مصر» وهو كلام غير مستغرب، لأن تقدير عدد أتباعه فى رأى أبو سيف يوسف بكتابه (الأقباط والقومية العربية) كان ستة ملايين على عقيدة واحدة مقابل مائتى ألف، إذ يؤخذ من كتاب أميلينو عن حياة شنودة أن عوامل الاستقلال كانت آخذة فى التوافر فإن عوامل استقلال إقليم أخميم كان يتجلى فى عجز الدولة والامبراطور عن الوقوف فى وجه المد «العربى» وهجمات القبائل البدوية.

ولا أظن أننا نسقط على حركة «الرهبنة» التى نشأت وتفاقمت «نزوعًا» إلى الاستقلالية عن روما لم يكن فيها، فمما لا شك فيه أنه كانت لحركة الرهبنة التى انطلقت من مصر جذور تاريخية فى حياة المنطقة لم يكن الحكم الرومانى وهيمنته بعيدين عنها، بل تسلطه واستبداده، يلاحظ هذا بوضوح من طبيعة وظروف الأقاليم التى انتشرت فيها: كان أهمها الإقليم الطيبى فى الصعيد وفى الصحراء الشرقية، فى حماية القبائل، وما لبثت - إذ اتسع نطاقها - أن تحولت إلى حركة جماهير معظمها من الفلاحين الهاربين من قراهم، طابعها المميز خضوعها لنظام موحد، يعكس النظم الإدارية والعسكرية إلى حد بعيد، يشمل أديرة عديدة من الصعيد الأعلى، ثم انتشرت هذه الأديرة فى طول البلاد وعرضها من أعالى الصعيد إلى شمالى مصر عند وادى النطرون، ومما يلفت النظر فى هذه الحركة نظام «رهبان الشركة» الذى كانت المعيشة فيه «بمقتضى حياة جمعية».

فمن منظار الحكم الرومانى المسيطر المستبد من جهة ومن منظار الأهالى من جهة أخرى إذا لم يكن فى هذه الحركة سمات للتحرر والانعتاق، فماذا يكون إذن؟

وبالتأكيد، لم تكن «الحركة الديرية» حركة تصوف منقطعة، منعزلة عما يجرى حولها، فإننا نراها إبان احتدام صراع بطاركة الإسكندرية ضد المذهب الرسمى للدولة تشكل فرقًا منظمة من وادى النطرون ومريوط تظهر فى مدينة الإسكندرية لتساندهم، كما شهدت البلاد

ظل رجال العلم الحديث أمداً طويلاً، يرون أن الأبجدية الفينيقية مشتقة مباشرة من الهيروغليفية لما بين البلدين من صلات وثيقة، بلغت قبل أن تقوى جذور الإقليمية حد اعتبار فينيقية امتداداً للأراضى المصرية، وعلى قلة الآثار الفينيقية المتبقية إلى الآن، فإن الفن الفينيقى يشير إلى تبعيته التامة للفن المصرى، وكذا سائر مظاهر الحضارة الفينيقية



«ألوية شنودة الأخميمى تنطلق من الإقليم الطيبى لتمحو آثار الوثنية.

من هنا يجىء السؤال: لماذا إذن والحالة هذه لم تتحرك المنطقة للاستقلال والتحرر من الحكم الأجنبى؟

ما دامت البلاد قد أخذت تشهد بالتأكيد «مرحلة تحطيم البنى الإقليمية، وتلاشى المعتقدات المحلية وموت آلهتها، وانفتاح الواحات الحضارية بعضها على بعض، وكأنها تتهيأ.

لا شك أنها مرحلة تستحق الدراسة، وما أكثر ما يستحق الدراسة فى بلادنا!

ظهور الجيل العربى

بدأ ذكر العرب، كجيل جديد من سكان هذه المنطقة الممتدة من «الخليج إلى المحيط» التى تعددت أسماؤها بعد أن أخذ يتردد فى عدد من النصوص فى سجلات ملوك الآشوريين التى بدأت تصف بعض الشخصيات بأنهم «عرب» أو أنهم ملوك أو ملكات على «بلاد العرب» - بدون تحديد المدى لمفهوم بلاد العرب، وجاء أوله بمناسبة معركة «قرقر» التى جرت بين شلمناصر الثالث (حكم من ٨٦٠ إلى ٨٢٥ ق.م فى العراق) وبين ملك دمشق الآرامى وحلفائه، وكان أحدهم «جندب»، أحد مشايخ العرب، وأكمل نص لسجل هذه المعركة ما أورده الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى (العرب فى العصور القديمة - دار النهضة العربية - القاهرة) هو: «قرقر عاصمة المملكة أنا خربتها، أنا دمرتها، أنا حرقتها بالنار، ١٢٠٠ مركبة، ١٠,٠٠٠ جمل لجندب العربى، هؤلاء تألبوا علىَّ».

ثم يتوالى ذكر الحروب مع العرب وقبائل العرب فى سجلات الآشوريين طوال ثلاثة قرون تقريبًا حتى عهد نبوخذ نصر أو بختنصر، كما فى الكتب العربية، يرد فيها اسم عدد من القبائل البائدة مثل غبادير وثمود والقبائل الباقية مثل تيم، وتمتد غزوات ملوك الآشوريين لهذه القبائل إلى سيناء وأحيانًا إلى الاصطدام بفرعون مصر، وتوغل البابليون فى شبه الجزيرة العربية وأخضعوا واحة «أدومو» التى عرفت فيما بعد بواحة دومة الجندل ظنًا منهم أنها معقل العرب وبإخضاعها يكونون قد أخضعوا العرب، ولكن برزت لهم أيام الدولة البابلية الحديثة، واحة تيماء اضطرت الملك نابونيد أن يقيم فيها فترة حكمه، ويبدو أن قبيلة تيم الشهيرة هى التى كانت تملكها.



وقد اختلف الرأى فى أصل هذه التسمية: عرب وعربى وعروبة، كما اختلفت الآراء فى نطقها فى بداية ما نعرف من انتشارها، فقيل إنها كانت تعنى «أربى» وكانت فى لغة الآشوريين غرب، أى تعنى اتجاهًا جغرافيًا، كما قرئت «أروب» و«أربى» و«عربى».. إلخ، وعلى أية حال فالرأى السائد بين العلماء أن تلك اللفظة أو العبارة الواردة لأول مرة فى أخبار تلك الحملات التى كان يقوم بها ملوك الآشوريين على ما حولهم من البوادى فى القرن التاسع ق.م - إلى أن يكتشف غيرها - أيا كان نطقها، كانت تعنى البدو من ساكنى الأطراف الشمالية للجزيرة العربية (بادية السماوة وشبه جزيرة سيناء وشمالى الجزيرة العربية)، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم اليونانيون بادئ ذى بدء اسم سراكيونى Sarakenai، على ما يذكر مكسيم رودنسون فى كتابه (محمد: طبعة دى سوى) وأطلق عليهم فى اللاتينية Saracini، أى الذين يعيشون فى الخيام، اشتقاقًا من كلمة Skene وتعنى خيمة، والمقصود «بيت الشعر».

والملاحظ أن هذه الصفة كانت تختلف فى بدايات إطلاقها باختلاف اللغات واللهجات التى تصفها من مواقع الحضارات التى تحيط بالمنطقة والتى بدأت تتعامل معها.

فإذا نحن نحينا جانبًا الأساطير التى روجت حول الإسكندر تمهيدًا لفتوحاته فى الشرق بأنه فى الحقيقة ابن الإله آمون رع وليس من صلب فيليب المقدونى، كما يقول مؤرخه كاليثينس Callisthincs (مصر وعالم البحر المتوسط: إعداد وتقديم د. رءوف عباس) أو ما تطرق إليه د. جواد على من ترويج الشائعات بأن أصل اليونان من العرب، فإن أول احتكاك جدى كان بين اليونان وهؤلاء العرب هو عندما تصدى زعيم عربى لجيوش الإسكندر فى غزة ليصدها عن المضى فى طريقها لاحتلال مصر، وإعاقتها مدة ستة شهور بتحالف مع جيوش عربية أخرى من سيناء اضطرت الإسكندر إلى نصب آلات القتال فأحرقتها وأرغمت المقدونيين المتحصنين على التراجع وأوشك جيش الإسكندر على الهزيمة لولا المدد، وتسمى المصادر الأجنبية زعيم هذا الصمود باسم باتس Batis لعله باطش بالعربية، وقد علل الدكتور فيليب حتى وهو يحمل ما كتبه هيرودوت وبيلينوس وغيرهما من الكلاسيكيين عدم ذكر هذه الأقوام الآهلة للأقسام الشرقية من مصر والمتصلة بطور سيناء بصفة «عرب» بأن كلمة عرب لم تكن تعرف بعد، علمًا على فئة متميزة، فعدم ورودها لا يمكن أن يكون لعدم الاتصال لأن هذا الاتصال كان طبيعيًا يجرى مجراه منذ القدم، بل لأن قدماء المصريين كانوا يصفونهم بكلمة «عمو» Ammou التى تعنى عندهم معنى «عرب» أى بدوى وآسيوى.

لعل المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) هو الوحيد الذى أشار إلى علاقة شبه الجزيرة العربية بمنطقة الحضارات المحيطة بها بجملة مقتضبة وإن كانت معبرة قال: «إن أمة واحدة سكنت العراق والشام والجزيرة الفراتية والجزيرة العربية، وإن الشعوب الآشورية والآرامية هى فروع أمة واحدة (الكلدانية) وأن لسانها كان واحدًا، إلا أن بلوغ ذلك المستوى الرفيع من الرقى والتقدم بتماسك شخصية الفرد، والفصاحة والبلاغة فى الشعر والحكمة، مما أقر الإسلام الأخذ به ولم ينبذه، يبقى بدون تفسير كاف مقنع حتى الآن.

من هنا ذهب قائلون فى تفسير هذا الرقى البالغ المعجز فى «لغة العرب»، التى هى أساس رقيهم، أنها «لغة قديمة قدم الله» أو قدم الخليقة وأن آدم كان يتكلمها، أو أنها كانت على الأصح لغته، حتى لقد نسبوا إليه شعرًا حفظه العرب وتناقله الناس، هزئ به المعرى بسخريته اللاذعة فى رسالة الغفران وهو يصف بصورة رائعة آدم بين الجنة والأرض، وأيا كان حسن النوايا الدافع إلى هذا الكلام فإن المقصود كان هو التقليل من جهد العرب للوصول إلى مستوى حمل رسالة الإسلام كدين تميز إلهه بالرحمة والعدل ومقت الظلم والحقد.

حقيقة كان ظهور العرب على ذلك النحو المعجز بدون تعليل إنسانى فى ذلك الزمن، إلا إرادة السماء مدعاة للإذهال لدى الذين لم يفطنوا لحكمة التطور فى الكون. فظهورهم فجأة هكذا فى التاريخ، وعلى نحو يكاد يظهر أنهم فى أوج مراحل تطورهم كان مثار الكثير من الاجتهادات والتفسيرات الغربية. نختار من بينها مثالين: أحدهما من بلاد الشام والآخر من أرض الكنانة، يدلان - عند غياب العلم - على ألا فرق بين تعليل يساق منذ أربعة عشر عامًا وتعليل فى القرن العشرين، ففى دمشق كان أحد أبرز القادة القوميين يفسر أعجوبة نهضة العرب الجاهليين بأنها الفارق بين العرب والأمم الأخرى أن العرب ولدوا أطفالاً بكامل أسنانهم ولا يلفت أنظار تلاميذه إلى الأثر المتبادل بين هؤلاء العرب والحضارات المحيطة التى كانت لا تزال مدفونة، ولم يكن - فى دراساته العليا فى السوربون بباريس - يهتم إلا بما كان حينئذ مفتونًا به: الحضارة اليونانية. وعندما صارت الحضارات العربية القديمة تنبش ويكتب عنها كان ذهنه قد أصبح عصيًا على القراءة، وأغرب من هذا ما طالعنا به فى مصر الدكتور لويس عوض فى كتابه فقه اللغة، إذ تساءل من هم العرب وما موقعهم من

الحضارات حولهم فى مصر والعراق، وانتهى من تحليله المسهب إلى أن ثمة مخزنا بشريا عظيما خرج منه عديد من أقوام منطقة الشرق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، كانت المنطقة المحيطة ببحر قزوين من ميديا عبر جبال القوقاز حتى البحر الأسود، وآخر هذه الموجات كانت الموجة العربية التى وفدت إلى شبه الجزيرة على المستوى الجماعى فى الشرق القديم (مقدمة فى فقه اللغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٣٠)، ولم يذكر كيف تقدموا ولا كيف تيسر لهم الانتشار وهيئ لهم ذلك الرقى، ولا علاقة للغتهم بماضيهم ذاك! وبما وبمن حولهم.

فمن يقرأ المقريزى فى كتابه: «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب». أو كتاب الدكتور عباس مصطفى عمار: «المدخل الشرقى لمصر»، أو كتاب أحمد لطفى السيد (باشا) الملقب بأستاذ الجيل الذى توقف فيه عند نهاية جزئه الأول لأمر لازال مجهولاً، يلاحظ أنهم فى تاريخهم للقبائل البدوية العربية التى عنوا بها لم ينطلقوا من فراغ ومن أن أرض مصر كانت قبلها خالية، كما أراد بعض المؤرخين حينما اعتبروا أول قدوم للقبائل العربية إلى مصر إنما كان بطلب من ولاة مصر المسلمين، فالبدو فى مصر كما فى جميع أمصار الوطن العربى، أصل الحضر يشهد بذلك، كما يقول لطفى السيد فى كتابه «العليقات» التدقيق فى نسب أهل الأمصار فإنك تجد أوليتهم من جانب المصر وبواديه وأنهم أيسروا فبنوا الدور والقصور ولهذا نجد التمدن غاية يسعى وراءها البدوى وكذلك رائد القبائل البدوية كلها ولا يختلف هذا عن رأى ابن خلدون.

كانت طلائع هذا «الجيل العربى» فى المشرق أوضح وأكثر رسوخًا بسعة الانتشار وكثرة تأسيس الإمارات والممالك، فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد أصبح العرب الأنباط الذين لا يعرف على وجه الدقة متى تقدموا من الجنوب يهيمنون على الطرق التجارية بين مصر والشام والجزيرة العربية وجنوب الجزيرة، وفى مستقرهم الجديد ظلوا كعادة الذين يؤسسون الإمارات والممالك من القبائل، أهل إبل وماشية معًا أى مهيئين للتنقل، وفى القرنين الأخيرين قبل الميلاد صارت مملكتهم هى المتنفذة فى فلسطين الجنوبية وفى الأقسام الشمالية من الحجاز وبين النبط وحكومة «سبأ وذى زيدان» إمارات ومشيخات.

وعلى كل، منذ بداية التاريخ الميلادى على الأقل، صار المرء أينما سرح نظرة فى بلاد الشام وسيناء وأطراف مصر والعراق بامتداد شبه الجزيرة العربية، إلى قوس جبال طوروس الشاهقة فى الشمال، حيث ديار بكر، نجد قبائل عربية تفترش البوادى وجيوبها فى المعمور، تتنقل فى رحلتين دائمتين بين مصايفها ومشاتيها مرتبطة بمراكز مشيخاتها وإماراتها أو ممالكها الثابتة فيما يشبه رحلتى الشتاء والصيف لقريش اللتين يبدو أنهما خالدتان فى حياة البدو الرحل (د. فكتور سحاب: إيلاف قريش، رحلة الشتاء والصيف، المركز الثقافى العربى ـ بيروت)، وهما رحلتان خالدتان فى حياة البدوى العربى بشكل أو آخر، فإننا نرى الأمراء السعوديين الآن، رغم بعد الزمن ببعضهم على انطلاقهم من حياة البداوة بين الدرعية موطنهم فى السعودية وديار حمص، ديار رحلتهم فى الصيف، لا يزالون يحنون إلى مناخ الصحراء فيرتحلون كل عام.

ويذكر أن قبائل العرب فى بلاد الشام وما بين النهرين، راحت فى عام «الوفود» ترسل وفودها إلى المدينة، وليس من شك فى أن قبائل مصر فعلت فعلها، إن لم تذكر ـ وقد أسلم بعضها مثل بنى التمر وقضاعة وكان منها من يفترش أرض مصر لورود ذكرها فى استقبال عمرو بن العاص، وبعضها لم يسلم فظل على نصرانيته، وكان أحد وفود بنى تغلب لا يزال على وثنيته فاعتنق الدين الإسلامى، وقد عقد النبى مع المسيحيين منهم معاهدة سمح لهم فيها بالاحتفاظ بدينهم (الوثائق السياسية جمع محمد حميد الله، دار النفائس بيروت)، ويظن أن ما شرط فيها من عدم تعميد أبنائها كان من اقتراح أسر «تغلب» نفسها، فى حين أن د. خليل عبد الكريم فى كتابه «دولة يثرب» ـ دار سينا، يرى أنه ترك للأبناء حريتهم فى الاختيار، وعلى كل فمن المعروف أن المسيحية استمرت طويلاً فى هذه القبيلة، رغم ولائها للدولة وللإسلام، وكان شاعرها أشهر ثانى اثنين من شعراء عهد بنى أمية كله، وقد حرم الخليفة عمر ومن جاء بعده استخدام أية وسيلة من وسائل الضغط عليها لفضل ما قدمته فى حروبها إلى جانب الإسلام، ومشهور هو فتاها ببسالته ونخوته الذى شق صفوف المقاتلين فى حرب الإسلام بفارس قاصدًا المرزبان وعاد شاهرًا سيفه يثير حمية الفرسان وهو ينادى: أنا قتلت المرزبان!

يخطئ من يظن أن اللغة العربية مجرد أبجدية: حروف ترص وتراكيب تنشأ فى بناء أصم، إنما هى كائن حى لا تحمل من المعانى والأفكار التى تعبر عن الأفراد فحسب، بل هى ما يلخص وهى تقوم بهذا الواجب بين الأفراد والشعوب والوجود الحضارى للمجتمع وللأمة، لذلك فإن الباحث فى اللغة العربية يجب أن يجد مفتاح فهمها وغناها وسعتها فى هذه المجتمعات الحضارية



لذلك فإن الجزية التى كانت تفرض مقابل الحماية، كانت قبيلة تغلب تدفعها باسم صدقة أو زكاة لا باسم جزية، وقد جرى الأمر على هذا النحو مع قبائل أخرى كقبيلة الجراجمة (بجوار أنطاكية) وغيرها من القبائل التى كانت تقيم شمال بلاد فارس، ولابد أنه كانت لدى الخليفة عمر أسباب شبيهة منها اشتراك المصريين فى صفوف المسلمين وراء أمره بمعاملة البلدان التى فتحت صلحًا.

إن المخطوطات التى عثر عليها مؤخرًا فى شرق الأردن تدل على أن معظم السكان كانوا من العرب المرتحلين، مستعدين أن يعتنقوا وحدانية الإسلام الخالصة، الإسلام الذى يرى أن إبراهيم وموسى وعيسى كغيرهم من الأنبياء هم رسل الله، وهم أنبياء مبشرون بالإسلام، مرهصون بخبره، فها هنا مفتاح الإجابة عن التساؤل الكبير الذى يدور فى أذهان المؤرخين حول تقرير بلاد الشام فى معركة واحدة (اليرموك ـ ٢٠ آب / أغسطس ٦٣٦م / أوائل رجب ١٥ هجرية)، التى وجد فيها المحتل الإغريقى نفسه وحيدًا وقد انفض عنه الشعب كله بعد أن انسحب النصارى العرب منه وتمرد النصارى الأرمن، فانسحب الجيش البيزنطى ووصلت الجيوش الإسلامية إلى دمشق دون قتال، كما تقرر مصير العراق وما بين النهرين فى معركة «القادسية» ومصير مصر فى معركة واحدة، فقد آل التطور بمفاهيم الدين والنظرة إلى الحياة والكون إلى ما يشبه التلاؤم مع شبه الجزيرة.

ففى ذلك، ابتداءً كما يقول روجيه جارودى فى (فلسطين أرض الرسالات) يكون مفتاح فهمنا لوصول الجيوش العربية ـ الإسلامية بتلك السرعة الخاطفة إلى سفوح جبال طوروس، حدود التماس بين المد من داخل المنطقة العربية وموجات الأقوام الأخرى، لا فى الاستبداد القمعى الذى مارسه الأباطرة البيزنطيون فأيدوا به الكنيسة الرسمية فى اضطهادها للكنيسة الشرقية، كما يحلو تصويره فى نظر بعض المؤرخين، لا ولا أيضًا بسبب ما راج على أثر نظرية «هنتنجتون» أن القحط والجفاف والفقر والطمع فى ثروات الحضارات.. إلخ كانت وراء استبسال الجيوش العربية ـ الإسلامية ـ فتلك نظرية سقطت وبار الأخذ بها (كتابنا الجامعى: تاريخ العالم الثالث ـ جامعة دمشق ١٩٨١ـ١٩٨٢)، وكما ثبت زيف مقولات العصور الوسطى، وبخاصة التى صدرت عن «كاثوليكية» أسبانيا المعادية للعرب من مسلمين ومتنصرة التى تمخضت عن محاكم التفتيش وافتراءاتها. ومع ذلك لا نزال نجد بين ظهرانينا ممن يفترض أنهم أقرب إلى تفهم حقائق التاريخ العربى يأخذون بمثل تلك الآراء والمقولات المستهجنة، فيعتبرون أن دافع تلك السرعة الخاطفة كان «استبسالاً من بدو أو شبه بدو للفوز بالغنائم السمينة والفيوء الضخمة التى نهبت من المستعمرات، كذا (خليل عبد الكريم: دولة يثرب، بصائر فى عالم الوفود، دار سينا ـ القاهرة)، وهو فى كتابه هذا عندما يتعرض للـ«فتوح» يسميها: «فتوح النهب والاستيلاء والاستيطان والاستعمار التى ابتليت بها الشعوب المجاورة» (كذا)، بل والأغرب أننا لا نزال نجد بين ظهرانينا حتى الآن ـ رغم ما تكشف من الحقائق وبدد من الزيف الذى غلفت به حياة العرب فى «الجاهلية» لطمس مستواهم والتقليل من شانهم والازراء بدورهم، وذلك بقصد إعلاء مستوى البلدان المجاورة، نرى من لا يزال يردد مقولات العصور الوسطى فى أوروبا، بل ما يتضمن أشد ظلامية منها.

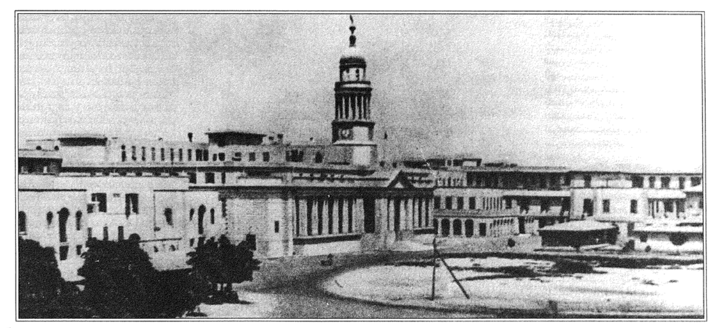
وقد راق للبلاذرى أن يرى فى سرعة وصول الجيوش العربية الإسلامية إلى جبال طوروس «فتحًا سهلاً» فى حين أنه ما كان فتحًا سهلاً ولا انتصارًا حربيًا وإنما كان تحريرًا. وهو ما قرره البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق من أنه السبب فى «إطلاق نصارى بلاد الشام على عمر بن الخطاب بلسانهم السريانى لقب «فاروق»»، ومعناه المحرر المنقذ، وما كان من تقليس المقلسين بين يدى أمراء الجند المسلمين وفى استقبالهم عندما يمرون بمدنهم وقراهم فى حمص وفى معرة النعمان وفى شيزر.

وكان هذا هو الشأن فى العراق ومصر. فقد كان أبو بكر يقارن العقيدة التى يدين بها عرب العراق النصارى فيجدها أقرب إلى الإسلام منها إلى نصرانية الرومان التى أراد هرقل فرضها، وكذلك كانت عقيدة قبط مصر (أبو سيف يوسف: الأقباط والقومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص٣٢) فهم يؤمنون بما جاء فى القرآن عن السيد المسيح عيسى بن مريم ويرون كما يرى المسلمون أن من الكفر القول بأنه إله أو بأنه ثالث ثلاثة آلهة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾. فقد أرسل الخليفة أبو بكر وعمر إلى أمراء الجيوش أن يحسنوا عرض الإسلام على الناس ولا يطمعوا أو يفرحوا بأموال الجزية ويذكروهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (عبد الرحمن الشرقاوى، الصديق أول الخلفاء ـ الأهرام ١٢/٨/١٩٨٧).

بالنظر لما بدا لنا مما تقدم من مدى انتشار هؤلاء العرب وامتداد الموجة بهم فى أطراف شبه الجزيرة فأصبحوا فى «سلع» على منطقة تمتد من فلسطين وعبورًا فى طور سيناء حتى مشارف النيل فى مصر، متوسعين فى بلاد الشام حتى الرافدين، وإذا كان بنو حفنة الذين عرفوا باسم الغساسنة قد اتخذوا حوران كلها والجولان وشرق الأردن وباديتها إلى باب الجابية فى دمشق، منازل مستقرة لهم وافترشوا ما يتداخل من البوادى حتى حدود اللخميين فى الحيرة (العراق)، وأن عرب تدمر يسيطرون على السهول الممتدة المتداخلة مع المعمور فى جميع الجهات ويتغلغلون إلى الحكم والنفوذ قبل أن تتشكل دولتهم، وبالمقابل كان شأن العرب على ساحل الخليج حتى جبال طوروس (بكر وتغلب) ناهيك عن الأقوام المستقرة من قبل فى العصور الخوالى، فماذا يكون قد بقى تحت الحكم البيزنطى.

وها هنا تفسير أسباب إحاطة البيزنطيين للمعمور بأبراج المراقبة، وأسباب سلوكهم لطرق مستقيمة، معلاة عن سطح الأرض تتوسطها أبراج مراقبة ومخابئ وقلاع ودهاليز. فعلى ضوء هذه الوقائع الأثرية يجب أن نقرر من كان يدفع لمن، من أجل أن يحميه فى أواخر العهد البيزنطى.

فهل تخامرنا، بعد أن نأخذ علمًا بكل هذا، أية غرابة أو شك فى صحة ما أثر عن عمرو بن العاص من قول، ردًا على مساومة قسطنطين بن هرقل له للرجوع عن «الفتح»: هذه البلاد لنا وليست لكم، أنتم غرباء فيها، لأنه لا يعقل أن يكون شخص كعمرو بن العاص جاهلاً على الأقل بأخبار الأنباط وعرب الزباء فى تدمر والضجاغمة وسليح بين غوطة دمشق والأردن والغساسنة وعرب الصفا وأخبار العمالقة، ثم المناذرة فى العراق وتغلب وبكر؟ ■



مستشفى فؤاد الأول «التابع لقصر العينى» عند افتتاحه

بدأت بالتعريب وانتهت بسيادة اللغة الإنجليزية

مدرسة الطب المصرية

ممرضات مستشفى قصر العيني والتدريب على استعمال الأقنعة الواقية من الغازات السامة أثناء الحرب العالمية الثانية

من أبى زعبل إلى قصر العينى

محمــــد فــؤاد الذاكــرى

■■ مرت الأمة العربية في تاريخها بمرحلة من الإبداع العلمي والحضاري امتدت من أواخر القرن السابع إلى القرن الثالث عشر للميلاد، ثم تباطأ الإنتاج العلمي العربي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبحلول القرن السادس عشر واجهت الأمة العربية تراجعًا علميًا حضاريًا بما يشبه العقم في الإنتاج، وقد استمر هذا الوضع طويلاً، والتعليم الطبي العربي لا يخرج عن هذه القاعدة، إذ مر بمراحل مد وجزر وهو ما يتناوله كتاب (تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية) الذي يركز بشكل خاص على التعليم الطبي في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، لأن هذه المرحلة امتازت بقيام مدارس طبية يتم التعليم فيها بما يشبه التعليم في أيامنا الحاضرة. وفي حدود معرفة المؤلف فإن موضوع الكتاب وعرض المدارس الطبية خلال القرن التاسع عشر لم يكتب عنه باللغة العربية بشكل منهجي حتى الآن، وإنما وردت عنه نبذ وفقرات في مؤلفات ودوريات مختلفة غير مستكملة شرائط البحث العلمي.

لكل عمل كبير رائد، قصة وتاريخ. ومدرسة (أبي زعبل) الطبية في مصر، قصتها وتاريخها لا يخلوان من الإثارة والمغامرة. ففي العام ١٨٢٤م أوفد الخديوي محمد علي، حاكم مصر فرنسيًا يدعى فلوران تورنو Florent Tourneau مندوبًا عنه إلى فرنسا للتعاقد مع ضباط لتدريب الجيش المصري، ومع أطباء لتأمين الخدمات الصحية لذلك الجيش.

وقد تعرف تورنو على طبيب شاب يدعى (أنطوان برتلمي كلوت)، فوقع معه عقدًا مؤرخًا في ٢٢/١٢/١٨٢٤م ليعمل في مصر رئيسًا للأطباء والجراحين في الجيش المصري لمدة خمس سنوات، وبراتب قدره ثمانية آلاف فرنك فرنسي، على أن يبدأ سريان مفعول العقد من يوم مغادرة الدكتور كلوت ميناء مرسيليا مبحرًا إلى مصر، وفي اليوم الواحد والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٢٥م استقل الدكتور الباخرة من مرسيليا متجهًا إلى مصر برفقة السيد تورنو المذكور ومصطحبًا عشرين طبيبًا آخرين تعاقدوا أيضًا للعمل في مصر.



وصل الدكتور كلوت إلى القاهرة في الثامن من مارس عام ١٨٢٥، ويذكر في مذكراته المنشورة بالفرنسية أنه فور وصوله قابل السيد (بوزاري Bozary) الطبيب الأول للخديوي محمد علي، فطلب منه الذهاب إلى الخانقاه حيث مركز تجمع القوات العسكرية النظامية، وهناك بدأ بتنظيم الأوضاع الطبية، واهتم بمستشفى المعسكر الذي كان شبه متهدم، والفوضى تشيع فيه، فبادر إلى تنظيفه من ناحية التمرين والإطعام والمحاسبة وجميع الشئون الأخرى المتعلقة بتشغيله بأعلى مردود، ولما كان هذا المستشفى مما يصعب الاعتماد عليه بسبب صعوبة ترميمه وإصلاحه، وبناء على اقتراحه أقيم مستشفى جديد، عام ١٨٢٦ في ضاحية أبي زعبل.

لم يكن من السهل استقدام أطباء أو صيادلة من أوروبا، لأن استخدامهم في ذلك الوقت يتطلب وجود تراجمة لهم وهو أمر غير متيسر. ولم يكن الجيش المصري هو وحده الذي يشكو نقص الأطباء، بل كان الشعب المصري بمختلف فئاته يشكو ذلك.

لذلك أرسل الدكتور كلوت إلى الخديوي محمد علي باشا كتابًا يقول فيه: إن مؤسسات النفع العام لا بد لتأمين استمراريتها من أن تكون بأيد وطنية، لأن ارتباطها المباشر بجهات أجنبية يعرضها لاحتمالات التعثر أو التوقف في أداء خدماتها ويقترح إنشاء مدرسة للتعليم الطبي ضمن الخطوط العامة التالية:

١ - أن يلتحق بالمستشفى الذي أقيم حديثًا في أبي زعبل، مائة وخمسون شابًا مصريًا، يتقنون لغتهم العربية وأن يعهد إلى أساتذة يوضعون تحت إدارته بشئون التدريس.

٢ - أن يسير التعليم الطبي بالاستناد إلى اللغة الفرنسية وبواسطة تراجمة أكفاء يقومون بترجمة الدروس الفرنسية إلى اللغة العربية ليستوعبها الطلاب.

٣ - أن يجري توزيع المقررات التالية على سني الدراسة:الفيزياء، الكيمياء، النبات، التشريح، الفسيولوجيا، علم الصحة، المفردات الطبية (الفارماكولوجيا)، السموم، التشخيص المرضي الداخلي والخارجي.

٤ - تكليف أعضاء المجلس الصحي، برئاسة وزير الحربية، بالإشراف المباشر على سير الامتحانات.

٥ - تكون مدة الدراسة خمس سنوات، ويجري توزيع الخريجين على المشافي والقطاعات الحربية.

وفور اطلاع محمد علي باشا على هذه الاقتراحات، وافق عليها بمجموعها وأصدر أمرًا بتسميته مديرًا لهذه المدرسة.

كانت أول مهمة قام بها هي تعيين الجهاز التعليمي بعد الأخذ بعين الاعتبار مقدرة الأطباء الموجودين، فوزع المهمات التدريسية كما يلي:

* الطبيب الإيطالي جيتاني Gaetani : للتشريح العام والوصفي والمرضي.
* الطبيب دوفيفينو Duvigeam : لعلم الأمراض وللعيادات الداخلية.
* السيد برنار Bernard : لتدريس علم الصحة Hygiene الخاصة والعامة والعسكرية بالإضافة إلى الطب الشرعي.
* الصيدلاني برتلمي Barthelemy : لتدريس علم الأدوية وفن التركيب وفن المداواة ومبحث السموم.
* الصيدلاني فيغاري Figary : لتدريس علم النبات بالإضافة إلى إدارة حديقة النباتات الطبية المقامة في ساحة المستشفى.
* السيد سيليزيا Celisia : لتدريس الكيمياء والفيزياء.

أما الطلاب فتم تحديدهم بمائة وخمسين طالبًا، وذلك انتقاء من بين طلاب الفقه والعلوم الدينية وخاصة من طلاب الأزهر وتأمين معيشتهم على حساب الدولة مع رواتب شهرية تعطى لهم وكان النظام العسكري مطبقًا عليهم.

واجهت المدرسة الجديدة صعوبة كبيرة تمثلت في تأمين التواصل والتفاهم بين الأساتذة الذين يجهلون الفرنسية وكان من الصعب ولضيق الوقت أن يتعلم الأساتذة العربية والطلاب الفرنسية، وقد حل الدكتور كلوت والعاملون معه هذه المشكلة بتعيين ثمانية مترجمين أكفاء تسمح لهم ثقافتهم ومعلوماتهم بالقيام بترجمة صحيحة ودقيقة في مجالات علمية، وأخذ كل مترجم يترجم درس الأستاذ في الفرع المكلف به بعد أن يكون قد فهمه، هذا الإجراء كان صعبًا ومعقدًا في بادئ الأمر إلا أن العادة والتكرار جعلاها أقل صعوبة، فللحصول على نص دقيق بالعربية، كانت النصوص الفرنسية المخطوطة أو المطبوعة تعطى للمترجمين فيدرسونها ويترجمونها إلى العربية، ثم يقوم المترجم بترجمة عكسية لها أي يعيد ترجمة النص إلى الفرنسية أمام الأستاذ، وبعد اطمئنان الأستاذ إلى صحة الترجمة، يصار إلى تدقيق النص العربي من الناحية اللغوية من قبل أشخاص يتقنون اللغة العربية ومن ثم يعطى للطلاب ليدرسوه.



وقد بذل أساتذة المدرسة والمترجمون واللغويون جهودًا كبيرة للتغلب على الصعوبات التي واجهتهم والمتمثلة في تعريب الكثير من المصطلحات الطبية والفنية التي لم تكن موجودة في الطب التقليدي بسبب التقدم الكبير الذي طرأ على العلوم الطبية في القرن التاسع عشر في البلاد الأوروبية، ولخص المرحوم الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق المنهج الذي سلكوه في اختيار صياغة المصطلح الطبي قائلاً:

وسلكوا في سبيلها ما يأخذ به المشتغلون باستعراب الطب اليوم:

* أحيوا من مصطلح الطب العربي الإسلامي ما رأوه وافيًا بالغرض.
* واجتهدوا في وضع مقابل بالعربية لما جد من مصطلحات.

لم يكن من السهل استقدام أطباء أو صيادلة من أوروبا، لأن استخدامهم في ذلك الوقت يتطلب وجود تراجمة لهم وهو أمر غير متيسر. ولم يكن الجيش المصري هو وحده الذي يشكو من نقص الأطباء، بل كان الشعب المصري بمختلف فئاته يشكو من ذلك

١ - تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية
محمد كمال شحادة
سوريا: منشورات جامعة حلب، ٢٠٠٠.

٢ - مذكرات الدكتور كلوت بك (بالفرنسية)
القاهرة: مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٤٩.

٣ - بناء أسس التطبيب بمصر في القرن ١٩ (بالفرنسية)
سيرج جاكايو
باريس: منشورات البحث في الحضارات، ١٩٨٦.

* أما ما لم يهتدوا فيه إلى لفظ عربي مناسب، فلجأوا فيه إلى التعريب.

كذلك عمل الدكتور كلوت على إنشاء مدرسة ملحقة بمدرسة الطب مهمتها الرئيسية تعليم اللغة الفرنسية لطلاب الطب، وعندما أعيد تنظيم التعليم الطبي فيما بعد، أدخل تعليم اللغة الفرنسية في برنامج المدرسة الطبية.



كلوت بك

تدريس التشريح

كانت المشكلة الأخرى التي واجهت الدكتور كلوت تتعلق بدراسة التشريح وتدريسه، ويكتب حول هذا الموضوع بقلمه من مذكراته:

عندما أنشئت المدرسة، نقل لي وزير الحربية رغبة محمد علي باشا بألا أمس جثث الموتى، وكان من الصعب عليّ أن أقتنع بمثل هذه الرغبة وبالالتزام بها، فبدون التشريح لا يكون تعليم طبي، فاتصلت بالشيخ العروسي وهو شيخ الإسلام، وكان يتمتع بشهرة وبنفوذ ديني كبير في كل البلاد المصرية، وكنت أهتم به كثيرًا، وباعتباره مسنًا فقد كنت كثير الالتقاء به للكشف عن صحته ولمعالجته، وكان يعاملني بعطف ظاهر. ولكني كلما تطرقت إلى موضوع التشريح يرفض إعطاء أية موافقة للقيام به، وكانت حجته الأساسية هي أن الجثث يمكن أن تتألم، وكنت أتظاهر بقبول هذه الفكرة مع تأكيدي له بأن الجثة في كل الأحوال، سرعان ما تبدأ بالتفسخ وتصبح فريسة للدود، وكنت أقول له أن الدين مادام يقبل الطب والمداواة ويحث عليهما فيجب أن تكون الوسائل المادية المؤدية إلى تعليم هذا العلم مقبولة، ومن هذه الوسائل التشريح الذي هو ضروري جدًا لتدريب الطبيب واطلاعه على تفاصيل الجسم البشري، وكان الشيخ العروسي يجيبني دومًا، بأن المؤلفات المنشورة عن شئون التشريح تكفي لتثقيف الطلاب وتعريفهم به، وفي ذات يوم جربت في محاولة لإقناعه، أن أقدم له مقارنة تثبت أن العلم النظري لا يمكن أن يعطي معلومات كاملة، وكانت المقارنة ما بين جسم الإنسان والساعة، وبينت له أن الساعاتي لكي يستطيع تصليح الساعة لا بد له من أن يعرف كل أجزائها بشكل واقعي وعملي. وكذلك الجسم لا بد من معرفة أجزائه وأجهزته لكي يتمكن الطبيب من إصلاحه في حالة المرض، لقد بدا لي أن هذا المثال أدخل في نفسه القناعة ولكنه لم يرد أن يعبر عن ذلك صراحة، إلا أنني شعرت بموافقته الضمنية على دراسة التشريح والقيام به، عندما طلب مني التحفظ ومراعاة السرية عندما أود القيام بتشريح الجثث لتعليم طلاب الطب.

وكانت تنتظر الدكتور كلوت مهمة أخرى تتمثل في إقناع الطلاب بضرورة التشريح وإزالة ما في نفوسهم من كراهية ورهبة تجاهه، فاحضر من فرنسا هيكلاً عظميًا عرضه في الصف ليعطي به أول درس في التشريح وكان يردد: هل يعتبر جرمًا أن تكون بين أيدينا عظام تخلفت من جثث منبوشة من قبل ضبع أو ابن آوى مبعثرة في إحدى المقابر المجاورة ولغاية تدريسية؟ واقتنع بعض الطلاب بالفكرة واستجابوا بأن جلبوا ما وقع تحت أيديهم من العظام البشرية وتم تأمين عدد كاف منها لدراستها وتدريسها، أما تشريح الجثث فقد استطاع أن يقوم به بدعوى أنها جثث لعبيد وثنيين، لا يدينون بأي دين سماوي أي ليسوا من أصحاب كتاب.



كل هذه الاحتياطات فيما يتعلق بدروس التشريح، لم تمنع الطالب (حسن الأشموني) من محاولة اغتياله، ففي العشرين من يونيو عام ١٨٢٩م كان الدكتور كلوت يحضر درسًا للدكتور شروبيني Cherubini في مادة الفسيولوجيا فتقدم الأشموني منه في نهاية الدرس وناوله رسالة مكتوبة باللغة العربية لإلهائه، واستل في الوقت عينه خنجرًا كان مخبأ تحت ثيابه وضربه على رأسه فانزلقت عليه شفرة الخنجر، ثم عاد وطعنه ثانية فأصابه في ذراعه اليمنى. وأمام هذا المشهد استولى الذعر على الأستاذ الفرنسي والمترجم ففرا من قاعة الدرس وتركاه ينزف دمًا، وعلى الأثر قامت ضجة كبيرة في الصف، هجم الطلاب فيها على المعتدي وجردوه من سلاحه، حافظ الدكتور كلوت على ثباته وأمر بحبس المعتدي في سجن المستشفى وقام بتهدئة الجميع لأنه خشي أن يؤدي هذا الحادث إلى مضاعفات غير محمودة.

متحف للتاريخ الطبيعي

طلب الدكتور كلوت موافقة وزير الحربية لتعيين السيد ريجيس Regis المختص بالعلوم الطبيعية للإشراف على تأسيس متحف للتاريخ الطبيعي، ولكن طلبه جوبه بالرفض من قبل الوزير بحجة عدم وجود مخصصات، إلا أن كلوت الخبير بالأنظمة واللوائح تعلم كيف يواجه الصعوبات فبادر إلى تعيين الشاب ريجيس بصفة صيدلاني وكلفه بمهمة الإشراف على جمع نماذج من الحيوانات والحشرات لتأسيس متحف طبيعي ممتاز تابع للمدرسة الطبية، حيث تم الاحتفال بتدشينه في فترة الاحتفال بانتهاء السنة الدراسية الثانية من تأسيس المدرسة، ونتج عنه تبادل ناشط بين نماذج من مجموعات المدرسة ونماذج من مختلف المتاحف الطبيعية في أوروبا، وبذلك أمكن تأمين مجموعات كاملة لرباعيات الأرجل والحشرات والطيور والعنكبوتيات والأسماك والأصداف.

أما حديقة النباتات الطبية فاقيمت في الباحة الداخلية للمستشفى، فاضفت مسحة جمالية إضافة لكونها ضرورية للتدريس، وتولى إدارتها صيدلاني من مدينة جنوا الإيطالية هو فيغاري Figari، وخلال فترة تقل عن ثلاثة أشهر، وصلت البذور والشتلات لأنواع كثيرة من النباتات، وكان الأستاذ دوليل Dolille مدير حديقة النباتات في جامعة مونبلييه بفرنسا، يمد باستمرار حديقة أبي زعبل بكثير من النباتات المهمة والنادرة.

نشاط مدرسة أبي زعبل الطبية

كانت السنة الدراسية تبدأ في أول شهر شوال وتنتهي في أول شهر رمضان، ويخصص شهر رمضان بكامله ليكون عطلة سنوية. وحرص المشرفون على المدرسة وبتوجيهات من الدكتور كلوت أن يعهد إلى الأساتذة الذين يدرسون أحد الفروع الطبية من الناحية النظرية أن يقوموا هم بأنفسهم بتدريب طلاب المدرسة على التطبيقات لذلك الفرع، وذلك لئلا يكون ثمة فروق أو تضارب في الآراء ما بين الدروس النظرية وتطبيقاتها العملية أو السريرية. ونصت أنظمة المدرسة على أن يخضع الطلاب لامتحانات شهرية فيما تعلموه، وحينما يحوز طالب الدرجة الأولى في الامتحان، يعهد إليه برئاسة الشعبة التي فحص فيها. وتطلب الأمر كثيرًا من الجهد بذله الأساتذة والطلاب ولكن فائدته كانت كبيرة في حث الطلاب على العمل لخلق روح المنافسة العلمية فيما بينهم. وبدأت الامتحانات العامة للسنة الدراسية الأولى (١٨٢٧ - ١٨٢٨) في الخامس والعشرين من شهر شعبان وكانت اللجنة الفاحصة برئاسة الطبيب بوزاري، وعضوية الصيدلاني المفتش (السالندري Alessandri) والطبيبين (ديباغي Dibaggi) و (دوساب Dussap) وأساتذة مدرسة أبي زعبل الطبية، وذلك باحتفال رسمي حضره عثمان باشا رئيس الأركان العامة والكولونيل (العقيد) سليم بك مساعد رئيس الأركان والعديد من ضباط الجيش كما حضره قناصل فرنسا وإنجلترا وروسيا والنمسا وهولندا وسردينيا وكثير من الشخصيات البارزة، استمرت الامتحانات خمسة أيام وكانت النتيجة نجاح عشرين طالبًا بدرجة ممتازة وثمانية وثلاثين بدرجة أولى، وثلاثة وأربعين بدرجة ثانية. أما طلاب مدرسة اللغة الفرنسية، فقد خضعوا أيضًا للامتحان والنتيجة نجاح ثلاثة وثلاثين طالبًا بامتياز، وثلاثة وعشرين بدرجة متوسطة وخمسة وأربعين بدرجة دون المتوسط، وقد منحت مكافآت إلى جميع المتفوقين في الامتحانات الطبية وفي امتحانات اللغة الفرنسية.



وبالنسبة للامتحانات العامة للسنة الدراسية الثانية من تأسيس المدرسة (١٨٢٨ - ١٨٢٩) فقد بدأت في اليوم الأول من شهر مارس من سنة ١٨٢٩، وذلك في مدرج المستشفى. ومن تقرير تركه لنا الدكتور كلوت في مذكراته نستنتج أنه تم تدريس المواد التالية للطلاب: التشريح والفسيولوجيا، علم الصحة، علم الأمراض (الباثولوجيا)، فن المداواة وعلم الأدوية، الفيزياء، النبات، كما خص المترجمين بالكثير من الثناء وأشاد

بالمترجم (يوحنا عنحورى) قائلا: إن السيد عنحورى يستحق التقدير، لا لأنه ترجمان بارع فقط، بل أيضًا لنشاطه الكبير ولمثابرته في البحث عن المصطلحات الطبية في بطون الكتب، وعن مفردات العلوم الطبيعية، وهي إنجازات كبيرة تحققت بفضل هذا العالم المتعاون معنا.

ولم يفته أن ينوه بنتائج مدرسة تعليم اللغة الفرنسية الملحقة بالمدرسة الطبية وأبدى رضاه عن نتائج الامتحان الذى جرى بعد الانتهاء من فحوص المدرسة الطبية مباشرة من قبل لجنة برئاسة السيد (كونيغ Koenig) الذى كان يتقن اللغتين العربية والفرنسية مما جعله قادرًا على الحكم على قوة الطلاب، أما امتحانات السنة الثالثة (١٨٢٩ ـ ١٨٣٠) فكان من المفترض أن تبدأ جلسات الفحوص النهائية فى ١٣ فبراير من عام ١٨٣٠، وعبّر محمد على باشا عن رغبته فى حضورها شخصيًا إلا أن ظروفًا طارئة منعته من ذلك، فكلف وزير الحربية لينوب عنه ، وهذا التغيير استدعى تأجيل البدء بالامتحانات ليوم تالٍ وقد تسابقت شخصيات بارزة للحضور إلى القاعة الكبرى للمستشفى من بينهم شيخ الإسلام ورؤساء مختلف الطوائف الدينية وإبراهيم بك ابن أخ محمد على وجنرالات وضباط من رتب عالية فى الجيش.

كانت اللجنة الفاحصة برئاسة الدكتور (باريست Pariset) الذى سبق أن صدرت تسميته أستاذ شرف بالمدرسة فى فرمان (مرسوم) واحد، وعضوية الدكتور (بوزارى Bosari) والصيدلانى (اليساندرى Alessandri) مدير مدرسة الصيدلة وعضو المجلس الصحى، والدكتور كلوت مدير المدرسة الطبية وعضو المجلس الصحى وأستاذ الأمراض والعيادات الخارجية، وعدد من أساتذة المدرسة، وبعد إلقاء الخطابات والكلمات بدأت الامتحانات بشكل علنى أمام جمهور من المستمعين.

كان من المقرر أن تنتهى الدراسة فى مدرسة أبى زعبل الطبية فى نهاية السنة الدراسية الرابعة (١٨٣٠ ـ ١٨٣١) للطلاب الذين قبلوا فى المدرسة منذ افتتاحها عام ١٨٢٧، إلا أن صعوبات عديدة سببت إضاعة الكثير من الوقت على الطلاب فقد تقرر بعد مداولات طويلة تمديد الدراسة سنة خامسة وصادق على هذا القرار أعضاء المجلس الصحى ووزير الحربية وتأجيل امتحانات السنة الرابعة إلى السنة الدراسية التالية.

وهكذا فإن طلاب السنة الخامسة الذين اجتازوا هذه الامتحانات بنجاح، كانوا أول فوج من الأطباء المصريين يتخرج من مدرسة أبى زعبل، وأدى الخريجون قسم أبقراط الطبى على غرار ما كان يحدث فى جامعات أوروبا.

واتخذ النص المعتمد فى جامعة مونبلييه بفرنسا، أساسًا تمت ترجمته إلى اللغة العربية مع إجراء بعض التعديلات على النص العربى، التى تقتضيها الاعتبارات الدينية الإسلامية، وأصبح كما يلى:

«أقسم بالله العظيم ونبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، على أن أكون أمينًا حريصًا على شروط الشرف والبر والصلاح فى تعاطى صناعة الطب وأن أسعف الفقراء مجانًا ولا أطلب أجرة تزيد على أجرة عملى، وإنى إذا دخلت بيتًا فلا تنظر عيناى ماذا يحصل فيه ولا ينطق لسانى بالأسرار التى ائتمنونى عليها، ولا أستعمل صناعتى فى إفساد الخصال الحميدة ولا أعاونها على الذنوب، ولا أعطى سمًا البتة، ولا أدل عليه ولا أشير به، ولا أعطى دواء فيه ضرر على الحوامل، ولا إسقاط لهن وأكون موقرًا وحافظًا المعروف مع الذين علمونى، ومكافئًا لأولادهم بتعليمى إياهم مما تعلمته من آبائهم. مادمت حريصًا على عهدى وأمينًا على يمينى، فجميع الناس يعتبرونى ويوقرونى، وإن خالفت ذلك أكون المرذول المحتقر، والله شهيد على ما أقول. قد تم العهد».

ويلاحظ مؤلف الكتاب أن نص القسم يشكو من ركاكة واضحة بدون تفسير مقنع فى حين أن أكثر الترجمات التى أنجزت آنذاك فى مدرسة أبى زعبل، كانت نصوصها أفضل من الناحية الصرفية والنحوية ومن ناحية سلامة الأسلوب الإنشائى.

من الواضح أن الطلاب المتخرجين كانوا يتمتعون بكفاءات طبية ممتازة بالإضافة لإتقانهم اللغة الفرنسية مما يسمح لهم بالتوسع فى دراستهم الطبية بتلك اللغة وبناء على اقتراح الدكتور كلوت وموافقة الخديوى محمد على باشا فقد تقرر إيفاد اثنى عشر من أولئك الخريجين إلى فرنسا وهم:

أحمد الرشيدى، حسين الرشيدى، محمد منصور، حسين الهيهاوى، إبراهيم النبراوى، مصطفى السبكى، محمد الشباسى، محمد السكرى، محمد الشافعى، أحمد بخيت، محمد على البقلى وعيسون النحراوى.



وصدر المرسوم الخديوى بتاريخ ١/٤/١٨٣٢م والمتعلق بالموافقة على تشكيل ذلك الوفد، نص يسمح لكلوت بمرافقة الوفد، ويمنحه إجازة مدفوعة الأجر لمدة مائة وعشرين يومًا تبدأ من يوم وصوله إلى مدينة مارسيليا وحتى تاريخ إبحاره فى العودة وذلك مع الاحتفاظ بكافة حقوق رتبته العسكرية، وفى ١٧/٨/١٨٣٢ غادر الموفدون ميناء الإسكندرية وصلوا بعدها ميناء مرسيليا بعد رحلة بحرية استمرت أربعة وثلاثين يومًا، وبعد زيارة بعض المؤسسات الطبية فى مرسيليا ومدينة ليون، نجح الدكتور كلوت فى مسعاه لتشكيل لجنة فاحصة من شخصيات طبية فرنسية مرموقة لتقيِّم المعلومات الطبية للطلاب الموفدين، وتم الامتحان فى رحاب الأكاديمية الطبية الملكية فى باريس يوم الأحد فى ١٨ نوفمبر عام ١٨٣٢، وحضر جلسة الامتحان عدد كبير من أعضاء الأكاديمية الطبية ومن الأطباء البارزين، منهم طبيبا الملك البارون دوبوا Duboisi والدكتور مارك، وكانت الضجة الكبرى التى أثارتها الصحف حول كلوت وطلابه المصريين النجباء سبب الإقبال على الحضور، ونتائج الامتحانات جيدة جداً، وعبَّر الحضور مرارًا عن استحسانهم بالتصفيق الحاد، حيث اختتم الدكتور دوبوتيرن Dupuytren جلسة الامتحانات بخطاب هنأ الطلاب المصريين قائلاً: إن إجاباتكم الصحيحة على أسئلتنا، جعلتنا نعتقد أنكم ستكونون الخلف الصالح لابن سينا والرازى والزهراوى.

حرص الدكتور كلوت قبل أن يغادر باريس أن يعهد إلى لجنة من أعضاء الأكاديمية الطبية وبعض الأطباء بالاهتمام بشئون هؤلاء الطلاب، من ضمنها إجراء امتحان دورى كل ثلاثة أشهر ترسل نتائجه إلى مصر بهدف الاطلاع على سير دراستهم لتقديم التوجيهات والمساعدات اللازمة لهم.

قصر العينى

طالب الدكتور كلوت بنقل المدرسة الطبية والمستشفى بأبى زعبل إلى القاهرة، لأن الخانقاه بقربهما وهو معسكر يضم حوالى ستين ألف جندى فرغ من الجنود بعد بدء الحملة المصرية على سورية عام ١٨٣١، ولم يعد المستشفى يخدم سوى عدد محدود من المرضى القادمين من القاهرة، وهذا لم يكن كافيًا للتطبيقات والدروس السريرية لطلاب الطب، لكن هذه المبررات وغيرها لم تقنع محمد على باشا، لعدة سنوات، وأخيرًا بعد إلحاح متواصل اقتنع بنقل المدرسة الطبية والمستشفى من أبى زعبل إلى القاهرة، وفى عام ١٨٣٧ صدر الأمر بنقلهما إلى مبانى قصر العينى الذى يقع بين القاهرة القديمة وبولاق مقابل جزيرة الروضة على الضفة الغربية لنهر النيل الذى أنشأه عامى (١٤٦٦ ـ ١٤٦٧) أحمد بن العينى، أحد كبار آمرى سلاح الفرسان فى ذلك الوقت، وفى فترة الحملة الفرنسية كان المبنى بملكية إبراهيم بك المملوكى وحول إلى مستشفى عسكرى، أما محمد على باشا فاصلحه وحوله إلى مدرسة تحضيرية عسكرية عام ١٨٢٥ والقصر يتألف من طابق أرضى يعلوه طابقان وتتألف أجنحته من صفوف مزدوجة من قاعات فى كل واحدة منها خمسون سريراً يفصل بينها ممرات عريضة، أما الطابق الأرضى فهو مؤلف من أقبية مقنطرة للتخزين، وتقوم أربع مجموعات سكنية منفصلة بمحاذاة الجناح الجنوبى للقصر، خصصت إحداها للمدرجات ومخابر الكيمياء وغرف الفيزياء والعلوم الطبيعية والثانية لقاعات النوم والطعام وفى الثالثة أسست الصيدلية المركزية أما الرابعة فشغلت بالمطابخ والحمامات والمغاسل، كما جهزت حديقة نباتات جديدة على قطعة من أراضى جزيرة الروضة، ومن النتائج الإيجابية التى تحققت أنه أصبح للمرضى المدنيين الحق ولأول مرة فى الاستفادة من خدمات المستشفى وكانوا قبل ذلك لا يقبلون فيه إلا بإذن خاص من الباشا.

أوضاع المدرسة الطبية

خلال السنوات العشر الأولى من تأسيسها (١٨٢٧ ـ ١٨٣٧) تخرج فيها أربعمائة وعشرون طبيبًا وفى ١٨٣٧ عام انتقالها إلى قصر العينى كان عدد طلابها خمسمائة طالب، فى عام ١٨٤٩ غادر الدكتور كلوت مصر عائدًا إلى مرسيليا وذلك بعد زمن قصير من وفاة محمد على باشا، ويعلل «جرجى زيدان» ذلك بسبب وحشة بينه وبين الخديوى عباس الأول فبدأت أوضاع المدرسة تسوء ودبت فيها الفوضى، رغم المحاولات المبذولة لإصلاح الأمور، تراجعت خدماتها التعليمية، وبناء على نصيحة طبيب ألمانى، استبدل الخديوى (عباس) المعلمين الفرنسيين بأساتذة ألمان وتم التعاقد مع الدكتور (جريسنجر Griesinger) أستاذ علم الأمراض (الباثولوجيا) فى جامعة كييل الألمانية، ليكون مديرًا لمستشفى قصر العينى والمدرسة الطبية ورئيسًا للمجلس الصحى، وطبيبًا خاصًا للخديوى الذى عمد إلى إرسال بعثة من خريجى المدرسة الطبية إلى ميونيخ، لم تفلح كثيرًا ربما بسبب عدم تمكن أفراد البعثة من اللغة الألمانية.

أما الخديوى الجديد سعيد باشا بن محمد على فقد عمد فى عام ١٨٥٥ إلى إغلاق المدرسة الطبية بعد أن ساءت أحوالها كثيرًا وإرسال جميع

كانت تنتظر الدكتور كلوت مهمة أخرى تتمثل فى إقناع الطلاب بضرورة التشريح وإزالة ما فى نفوسهم من كراهية ورهبة تجاهه، فأحضر من فرنسا هيكلاً عظميًا عرضه فى الصف ليعطى به أول درس فى التشريح وكان يردد: هل يعتبر جرمًا أن يكون بين أيدينا عظام تخلفت من جثث منبوشة من قبل ضبع أو ابن آوى مبعثرة فى إحدى المقابر المجاورة ولغاية تدريسية؟

طلابها إلى القطاعات العسكرية، أما الأساتذة فقد تم الاحتفاظ بهم للاستفادة من خدماتهم في معالجة مرضى قصر العيني.

وفجأة رجع الدكتور كلوت إلى القاهرة لتقديم واجبات الاحترام لابن أميره السابق، الذى بادر بتكليفه بإعادة تنظيم الخدمات الطبية المصرية المدنية والعسكرية بما فيها شئون المدرسة وتم ذلك فعلاً في ١٠ سبتمبر عام ١٨٥٦ باحتفال كبير، لكنه اضطر إلى مغادرة مصر نهائيًا عام ١٨٥٨ لاعتلال في صحته، وانطوت صفحته إلى الأبد حيث توفى في مرسيليا عام ١٨٦٨.



تعاقب أطباء عديدون على إدارة المدرسة، ففي (فبراير) من عام ١٨٦٢ لم يبق في المدرسة سوى خمسة وعشرين طالبًا، لكن الدكتور (محمد على باشا البقلى) الذى تولى إدارة المدرسة في عام ١٨٦٣ استطاع بإخلاصه ومقدرته الإدارية والعلمية أن يقوم بإصلاحات كبيرة في المدرسة، من أهمها التدريس باللغة العربية الفصحى من قبل أساتذة مصريين تابعوا دراسات اختصاصية في أوروبا، أى بدون مترجمين ولم يبق في المدرسة آنذاك إلا أستاذ فرنسي واحد، وكان يوجد في المدرسة ١٨ أستاذًا مصريًا و١٩٥ تلميذًا في عام ١٨٧٦ كما يذكر الدكتور سيرج جاكايو وهو مصدرنا الثاني بعد مذكرات الدكتور كلوت التي انقطعت برحيله.

استقال الدكتور البقلى بعد خلاف بينه وبين وزير المعارف على مبارك في أواخر عام ١٨٧٥، فاستلم الإدارة الطبيب غايلاردوت Gaillardot ومع بداية الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ كان التعليم في مدرسة الطب غير منتظم وغابت مقررات مهمة عن المجال التدريسي كعلم الجراثيم والمخابر غير صالحة للعمل، واستطاع الدكتور عيسى بك حمدى الطبيب الخاص للخديوى ومدير المدرسة الجديد أن يدخل بعض الإصلاحات كان لها أثر في إعادة تنظيم الأوضاع والحصول على مخصصات مالية لإقامة بناءين كبيرين في الباحة المركزية للمستشفى أحدهما للمخابر والثاني لقاعات التدريس، في عام ١٨٨٧ تشكلت لجنة برئاسة أرتين باشا لإجراء التعديلات والإصلاحات الضرورية في النظام التدريسي ومن توصياتها إقرار نظام أساسي أصبح فيه جميع الطلاب خارجيين يداومون على المدرسة والمستشفى ويعودون إلى بيوتهم وملزمين بدفع رسوم تسجيل بدلاً من أن تدفع لهم الحكومات مرتبات شهرية كما في السابق، ومدة الدراسة ست سنوات، يقدم الطلب بعدها رسالة (أطروحة) حول موضوع طبي أصيل.

وعند نجاحه في الرسالة يمنح لقب دكتور في الطب، وأصبح المستشفى بإدارة الدكتور ميلتون Milton الذى بادر بافتتاح العيادات الخارجية عام ١٨٨٥.. وسرعان ما نشبت الخلافات من جديد، واستقال المدير عيسى بك حمدى واستلم مكانه حسن باشا محمود الذى يوصف بعدم الكفاءة لكنه مدعوم من السلطة، وفي عهده توقف إرسال البعثات الطبية إلى أوروبا، كما تناقص عدد المقبولين في المدرسة، ثم تولى الإدارة إبراهيم باشا حسن يساعده الدكتور كيتينج Keatinge، الذى عمل على زيادة المدرسين الأجانب كان من نتيجته إدخال اللغة الانجليزية في التدريس تدريجيًا، وفي عام (١٨٩٧) حلت نهائيًا مكان العربية، وتم حذف رسوم التسجيل وإعادة دفع المكافآت للطلاب.

يذكر الدكتور جاكايو أن المدرسة حققت في فترة إدارة كيتينج (١٨٩٣ ـ ١٩١٩) تقدمًا ملحوظًا، وفي عام (١٩٠٢) قبلت الجمعية الملكية للأطباء والجراحين في بريطانيا أن يتقدم المجازون من الأطباء من قصر العيني لامتحانات شهادتي الـM.R.C.S والـM.R.C.P في لندن بعد أن يعملوا مدة سنة في أحد المشافي البريطانية.

بعد إلحاح متواصل اقتنع محمد على بنقل المدرسة الطبية والمستشفى من أبى زعبل إلى القاهرة، وفى عام ١٨٣٧ صدر الأمر بنقلهما إلى مبانى قصر العينى الذى يقع بين القاهرة القديمة وبولاق مقابل جزيرة الروضة على الضفة الغربية لنهر النيل الذى أنشأه عامى (١٤٦٦ ـ ١٤٦٧) أحمد بن العينى، أحد كبار آمرى سلاح الفرسان فى ذلك الوقت



عندما أصبح سعد زغلول باشا وزيرًا للمعارف عام ١٩٠٨، اقترح أن يكون التعليم في جميع المدارس العليا باللغة العربية ومن قبل مصريين، إلا أن الأجهزة الصحية ومن ورائها البريطانيون أقنعوه (أو أجبروه على التظاهر بالاقتناع) بقلة عدد المصريين الذين يستطيعون ملء كل فراغات التعليم العالي، وبعدم قدرة اللغة العلمية العربية على استيعاب المصطلحات والتعابير العلمية الحديثة المتكاثرة باستمرار، لذا فقد ركز جهوده على زيادة البعثات إلى أوربا وأمريكا، لكن المستشفى بقي يشكو الإهمال وأفاد اللورد كرومر في تقريره أنه لم يعد يلبي الشروط المطلوبة والمطلوب بناء مستشفى جديد، لهذا السبب توقفت أعمال الصيانة والتطوير فيه مما أعطاه مظهرًا بائسًا وتراجعًا في خدماته وسببت ظروف الحرب العالمية الأولى بعض التحول، فالتعبئة زمن الحرب أدت إلى نقص في الجهاز التعليمي الأجنبي، وكان الفضل للمساعدين المصريين الذين حلوا محلهم في استمرار أعمال المدرسة بشكل ناجح.

مدرسة الصيدلة

في عام ١٨٢٧ أسس الصيدلاني اليساندرى Alessandri تحت إشراف الدكتور كلوت مدرسة لتخريج صيادلة عسكريين وذلك في قلعة القاهرة بالقرب من الصيدلية المركزية التي كان يديرها اليساندرى نفسه ثم جمعت مدرسة الطب ومدرسة الصيدلة في أبى زعبل، وذلك لأن دروس الفيزياء والكيمياء والمفردات الطبية والنبات يمكن أن تعطى لطلاب الصيدلة من أساتذة مدرسة الطب، الأمر الذى يحقق وفرًا كبيرًا، وفي عام ١٨٣٢ تخرَّج أول فوج من الصيدلة مع أول دفعة من خريجى مدرسة الطب، كما انتقلت مدرسة الصيدلة إلى مبانى قصر العيني بالقاهرة مع مدرسة الطب والمستشفى وكانت مدة الدراسة خمس سنوات، في عام ١٨٨٧ صدر نظام أساسي جديد للمدرسة وبموجبه أصبح طالب الانتساب لمدرسة الصيدلة يجب أن يكون حائزًا على شهادة الدراسة الثانوية، كما أصبحت مدة الدراسة أربع سنوات، وأغلقت في نهاية القرن التاسع عشر بسبب نقص عدد الطلاب فيها ثم أعيد افتتاحها عام ١٩١٠ وتقلصت مدة الدراسة فيها إلى ثلاث سنوات يحصل الخريجون بعدها على لقب مجاز في الصيدلة والكيمياء.

مدرسة التثقيف الطبي للنساء

كانت الأمراض الزهرية تفتك بالجيش المصرى، وأصبح ذلك مصدر قلق كبير لمحمد على باشا الذى طلب من الدكتور كلوت أن يجد حلاً لهذه الأوضاع الصحية السيئة. ومن الواضح أن الرجال لا يمكن أن يتحقق لهم الشفاء التام إذا لم تتم معالجة النساء بشكل فعال، ظهرت الصعوبة حول النساء المصابات بالمرض ويكمن وجه الصعوبة أن الأطباء الرجال لا يمكنهم معالجة النساء بسبب عدم سماح التقاليد آنذاك، لاسيما إذا كان الأمر يتعلق بأمراض زهرية وبأعضاء تناسلية، كان الحل أن تتم معالجة نساء من قبل نساء، ولكن كيف يمكن إقناع أولى الأمر بقبول فكرة تعليم الفتيات من قبل أساتذة أوروبيين، فطرحت فكرة تعليم نساء من الرقيق من السودانيات والحبشيات حيث لم يكن في الحصول عليهن أية صعوبة، فتجارة الرقيق كانت لاتزال موجودة آنذاك علمًا بأنها ألغيت في مصر في عهد الخديوى إسماعيل، وكان مشروع الدكتور كلوت يقتضي بتعليمهن القراءة والكتابة أولاً ثم يجرى تثقيفهن وتدريسهن على النمط نفسه الذى تم به تدريس طلاب الطب، وقد وافق محمد على باشا على الخطة وأمر بشراء عشر فتيات تم وضعهن في مكان مجاور للمدرسة الطبية بأبى زعبل مع ضمان كل ما يلزم من مقتضيات الكساء والمعيشة تحت إشراف اثنين من الخصيان وبعناية تركى مسن وعائلته، بدىء بتدريسهن اللغة العربية، وفي الوقت نفسه وضع لهن كتاب يتضمن مبادىء الولادة وأمراض النساء والأطفال وشرح ما تضمنه من معلومات، وما حصل أن أربعًا منهن توفين أما الست الباقيات فقد حققن تقدمًا سريعًا جدًا، وأصبحن يمارسن بحذق وإتقان عمليات الجراحة الصغرى وبنى لهن مستشفى صغير مجاور لمقر سكنهن يستقبلن فيه النساء الحاملات أو المريضات لتجرى معالجتهن.

كانت الخطوة التالية إدخال طالبات مصريات في مدرسة التثقيف الطبي للنساء كما سماها الدكتور كلوت في مذكراته حيث يقول أنه أخذ على عاتقه جلب ست عشرة فتاة عربيات مصريات أدخلن إلى المستشفى بصفة مريضات وذلك ليستطيع تعليمهن بشكل سرى لا يجلب الانتباه، وقد احتفظ كلوت بهن بهذه الصفة طيلة سنتين كان يجرى خلالهما تدريسهن بالطريقة نفسها التي سلكها مع السودانيات والحبشيات، كما يذكر بأن المصاريف المترتبة على تدريس الطالبات كان يتحمل أعباءها من ماله الخاص وفي ذات يوم من عام ١٨٣٩ قام وزير التعليم مختار بك بزيارة المدرسة الطبية وتفتيشها، فقدم له كلوت الطالبات السودانيات والحبشيات وكان الوزير سعيدًا بما وجده عندهن من درجة ثقافية، وبدت سعادته أكثر عندما دخل القاعة بإشارة من كلوت فوجد ست عشرة طالبة مصرية، وحين وجه إليهن الأسئلة كان معجبًا جدًا وبادر إلى معانقة كلوت أمام جميع الحاضرين تعبيرًا عن رضاه العميق. ومنذ ذلك الوقت أصبح من المسموح به تعليم المصريات في المجالات الطبية وحددت مدة الدراسة في هذه المدرسة بست سنوات، فالسنتان الأولى والثانية كانتا مخصصتين لتعليم اللغة العربية، أما البرنامج الدراسي للسنوات الأربع التالية فتضمن دروسًا نظرية وعملية مأخوذة من مقررات مدرسة التوليد بباريس، مضافًا إليها دروس في التشريح

والفسيولوجيا والجراحة والمفردات الطبية والصيدلة، وهؤلاء الخريجات كن يعرفن بالحكيمات. إن هذه التسمية لا تعنى أنهن يمارسن أعمالهن كطبيبات وإنما كن فى الواقع قابلات وممرضات فى آن واحد. ولقب الحكيمات، لتمييزهن عن القابلات الشعبيات (الدايات) وفى كل الأحوال كان لهن دور إيجابى كبير فى رفع المستوى الصحى المصرى.



أما أشهر الأطباء والصيادلة الذين عملوا فى مدرستى الطب والصيدلة فى مصر أو تخرجوا منها، ففى مقدمتهم الدكتور كلوت ومن مؤلفاته: (القول الصريح فى علم التشريح) ترجمة يوحنا العنحورى، طبع عام ١٨٣٢ وهو أول كتاب طبى فى مدرسة أبى زعبل، و(الدرر الغوال فى معالجة أمراض الأطفال) ترجمة محمد الشافعى طبع عام ١٨٣٢، و(نبذة فى أصول الفلسفة الطبيعية) ترجمة إبراهيم النبراوى طبع عام ١٨٣٦، و(نبذة فى التطعيم ضد الجدرى) ترجمة حسن غانم الرشيدى الذى عُين معلمًا للعلوم الطبية عقب عودته من بعثته إلى أوروبا وتمتاز مؤلفاته بوضوحها وسلامة تعبيرها، وأهمها:

(بهجة الرؤساء وأمراض النساء) طبع عام ١٨٤٤، (الروضة البهية فى مداواة الأمراض الجلدية) طبع عام ١٨٤٧ فى مجلدين، (عمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج) فى أربعة أجزاء كبيرة طبع فى عام ١٨٦٧.

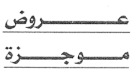
و(محمد على باشا البقلى) له مؤلفات جيدة منها: (روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى) طبع عام ١٨٤٣، (غاية الفلاح فى فن الجراح) وهو كتاب يبحث فى العمليات الجراحية طبع عام ١٨٦٤ فى جزءين، وله كتب أخرى لم تطبع. والجدير بالذكر أنه أصدر مجلة شهرية عام ١٨٦٥ أطلق عليها اسم (اليعسوب) وكان يساعده فى تحريرها الشيخ إبراهيم الدسوقى مصحح المطبعة الأميرية فى بولاق، وتعتبر المجلة الطبية الأولى التى صدرت باللغة العربية.

ومن الأطباء البارزين نذكر: أحمد ندا بك متوفى (١٨٧٧)، وله كثير من الكتب من تاليفه أو ترجمته عن اللغة الفرنسية، عبدالعزيز الهراوى باشا من خريجى قسم الصيدلة عهد إليه بمنصب مدير معمل البارود بمصر القديمة وقد اشتهر بالرسالة التى قدمها إلى مدرسة الطب بفرنسا ونال بها درجة الدكتوراة وأثبت فيها إمكان استخراج جميع الألوان من نبات الحناء، وحسين عوف متوفى (١٨٨٣) حيث تخصص فى طب العيون وعين أستاذًا للمادة وتخرج على يده أطباء عديدون فى هذا الفن. وسالم سالم باشا المتوفى (١٨٩٣) الذى تولى رئاسة المدرسة الطبية والطبيب الخاص للخديوى توفيق، محمد عبدالسميع الذى شارك فى الثورة العرابية وسافر إلى التل الكبير لمعالجة الجرحى، وعلى رياض بك متوفى (١٨٩٩) وهو من كبار علماء الصيدلة والكيمياء والطبيعة، ومحمد الدرى باشا متوفى (١٩٠٠) الذى كان شغوفًا بالعلم، أنشأ مطبعة خاصة به متقنة يطبع بها مؤلفاته ومؤلفات زملائه بدون مقابل، ترك مجموعة تشريحية عظيمة وصورًا ملونة لجميع الأمراض، كانت معروضة فى متحف مدرسة الطب فى قاعة خاصة حملت اسمه. ومحمود رشدى البقلى ألف قاموسًا طبيًا بالفرنسية والعربية، طبع فى باريس ١٨٦٩، يقع فى ٣٥٨ صفحة ويشتمل على نحو ٧٠٠٠ مصطلح.

لقد بدأ التدريس الطبى فى مصر باللغة العربية منذ عام ١٨٢٨ واستمر مدة سبعين عامًا، وكانت تجربة رائدة وناجحة، إلا أن المستعمر البريطانى الذى استولى على مصر إثر ثورة عرابى، بدأ بتقليص دور اللغة العربية فى التدريس تدريجيًا، ولم يمض عام ١٨٩٧ حتى أصبح التدريس الطبى يتم بكامله باللغة الإنجليزية، وبلغ عدد ما ترجمه وألفه أساتذة مدرسة الطب فى مصر ستة وسبعين كتابًا اشتملت على ألوف المصطلحات، هذه الحركة الناشطة والجدية التى قام بها مترجمون ومصححون ومدققون عرب وأجانب لنقل النصوص والكتب الطبية الأجنبية إلى اللغة العربية، أمنت منذ بداية تاسيس مدرسة الطب فى أبى زعبل التدريس باللغة العربية وأدت بعد زمن قصير إلى تعريب كامل المقررات فى علوم الطب والصيدلة.

تعتبر هذه الكتب أول كتب طبية تظهر فى العالم العربى وباللغة العربية وبالأساليب المرتكزة على المفاهيم العلمية الحديثة، الأمر الذى يسجل لأساتذة مدرسة الطب المصرية أسبقية رائدة يحق لهم أن يفتخروا ويعتزوا بها على مر العصور، وأن تكون دافعًا نحو تكثيف الجهود لتعريب التعليم الطبى فى الجامعات العربية وهو حلم ليس بمستغرب إذا تضافرت الجهود المخلصة والإرادة الطيبة ولنا فى سيرة هؤلاء الأطباء الأوائل وكفاحهم وجهودهم أسوة حسنة حيث نجحوا وتألقوا فى مؤلفاتهم وتراجمهم بأسلوب علمى عالٍ آنذاك وصياغة لغوية متقنة.

وقت الزيارة .. مصريات بالملاءات اللف، الزى السائد لسيدات القاهرة إلى وقت قريب



كتب عربية

المحنة الآسيوية
قصة صعود وهبوط دول المعجزات الآسيوية
رمزي زكي
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠، ١٦١ صفحة



لم يكن أحد يتوقع، مهما جنح به الخيال، أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه في دول جنوب شرق آسيا.

فالأزمة التي ضربت دول النمور الآسيوية في عام ١٩٩٧، انقضت مثل الصاعقة بلا إنذار مسبق، بدأت الأزمة أولاً من «تايلاند» أضعف الحلقات في سلسلة النمور، وانفرطت تاليًا حبات السلسلة، من كوريا إلى سنغافورة وماليزيا وهونج كونج وتايوان وأندونيسيا والفلبين، وتباينت التحليلات حول الأسباب التي أدت إلى الأزمة، البعض أرجعها إلى هشاشة الجهاز المصرفي والفساد الإداري، والبعض رأى أن ثمة مؤامرة غربية رأسمالية هدفت إلى وضع حد للمعجزة الآسيوية الكاسحة، آخرون اعتبروا أن صعود دول النمور ونجاحاتها التي فاقت التوقعات في الاستثمار والتنمية ومعدلات النمو، إنما ترجع أساسًا إلى استفادتها من أجواء الحرب الباردة وتدفق الاستثمارات عليها.

المؤلف يبدأ من تحليل عوامل نجاح دول النمور، وبعضها داخلي مثل رخص الأيدي العاملة والدور المهم الذي قامت به الدولة في بناء شبكة بنية تحتية على درجة عالية من التقدم والكفاءة، والاستثمار الجيد في البشر بالإنفاق الجيد على التعليم والصحة والإسكان، ثم حزمة من السياسات المالية والنقدية التي تم وضعها بعناية لإبعاد شبح التضخم عن هذه الدول وتجنب الوقوع في فخ المديونية الخارجية وتشجيع الصادرات وتكوين قدر كبير من الاحتياطيات الدولية.

وهناك دوليًا قدرة هذه الدول على الاستفادة من تناقضات الحرب الباردة، وكانت نتيجة هذا كله أن حققت هذه الدول معدلات نمو اقتصادي اعتبرت من أعلى المعدلات عالميًا عبر تفوقها الاستثنائي في مجال التصدير وزيادة معدلات الادخار. وكان منطقيًا أن ترتفع مستويات المعيشة بشكل لافت وصل إلى عشرة أضعاف خلال فترة ثلاثين عامًا، من ١٩٦٠ إلى ١٩٩٥ وبعد عامين بالضبط بدأت رياح الأزمة تهب وكانت أسبابها كما يجملها المؤلف - دون أن ندخل في تفاصيلها - انفجار الديون الخارجية مما سبب عجزًا في ميزان المدفوعات، وقد حدث الانفجار في الديون بسبب التوسع الشديد في الاستثمارات، وانخفاض أصول عشرات المشروعات بسبب المضاربات على أسعار أسهمها في البورصات الآسيوية، وانخفاض قيمة العملات المحلية مما أدى إلى هروب الاستثمارات ونشوء ما يعرف بظاهرة «الاقتصادات المنفوخة» التي ولدتها أنشطة المضاربات بفعل فتح الأسواق النقدية والمالية على مصراعيها أمام الأجانب.

وبسرعة تحركت «طفايات الحريق» - وهو التعبير الذي اختاره المؤلف للمؤسسات المالية الدولية مثل صندوق النقد والبنك الدوليين - لتضع روشتتها التقليدية لإصلاح حال اقتصادات النمور، وهي لم تفعل في الحقيقة سوى مضاعفة أزماتها وربطها أكثر بالاقتصاد الرأسمالي العالمي.

المؤلف بعد أن يقدم لنا تحليله المهم لأسباب الأزمة وتداعياتها عالميًا وعربيًا، يقدم لنا عشرين درسًا وعبرة - لمن يعي - لما جرى في دول النمور، التي ربما بدأت الآن التغلب على بعض مظاهر الأزمة.

□ □ □

معجم مراد
القانوني والاقتصادي والتجاري
عبدالفتاح مراد
القاهرة: المؤلف نفسه، ٢٠٠١، ٢٢٤٠ صفحة



يمثل هذا المعجم حصاد الحياة القضائية والعلمية لمؤلفه، الذي عمل بالقضاء والتدريس فجمع بين الخبرات العملية والنظرية والأكاديمية، وهو يتضمن شرحًا تفصيليًا لمصطلحات القانونية والتجارية المستعملة في الدول الناطقة بالإنجليزية، وما يقابلها في الشريعة الإسلامية واللغات الأخرى، ويشتمل على نحو ٥٠ ألف مصطلح تتعلق بجميع فروع القانون العام الداخلي مثل القانون الإداري والدستوري والإدارة العامة والقانون الجنائي والقانون العام الخارجي مثل القانون الدولي العام وقانون المنظمات الدولية والتنظيم الدولي المعاصر ومصطلحات الجات ومنظمة التجارة العالمية والعولمة والمصطلحات الواردة في فروع القانون الخاص مثل القانون المدني والقانون الاقتصادي والتجاري والقانون البحري وقانون العمل والتشريعات الاجتماعية وتشريعات الطيران الداخلي والدولي والنقل الجوي والمصطلحات الواردة في فروع القانون المختلطة مثل القانون الدولي الخاص وقانون المرافعات المدنية والتجارية ومصطلحات البنوك والتأمين والبترول ومصطلحات الشريعة الإسلامية والتشريعات المقارنة القديم منها والحديث.

كما يتضمن ما يزيد على نحو ٥آلاف مصطلح آخر تتعلق بالمبادئ القانونية العامة والأقوال المأثورة بمختلف اللغات ومنها اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية مترجمة إلى اللغات العربية.

وإلى جانب المصطلحات يتضمن المعجم ستة ملاحق إضافية باللغتين الإنجليزية والعربية وهي:

ملحق بأحدث المختصرات القانونية والاقتصادية والتجارية المستعملة في الدولة الناطقة بالإنجليزية ومعناها باللغة العربية.

بيان بالاختلافات القانونية بين بعض المصطلحات الإنجليزية المستعملة في بريطانيا ونظيرتها المستعملة في الولايات المتحدة، بعض العناصر اللاتينية الداخلة في مكونات الكلمات الإنجليزية، أسماء عملات بلاد العالم وعواصمها واللغة الرسمية المستعملة فيها، المختصرات المتعلقة بالمراجع العلمية للباحثين والمؤلفين والعلماء، ملحق بالأرقام الرومانية القديمة ونظيرتها في اللغتين الإنجليزية والعربية.

□ □ □

أزمة الحماية الدينية
هاني لبيب
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢١٠ صفحة



منذ انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق الأقليات في عام ١٩٩٤، وقضية الأقباط تتفاعل متراوحة بين المعالجات الهادئة والأخرى ذات النبرة العنيفة المستفزة. لكن الجماعة الوطنية المصرية، بمفكريها وكُتابها المسلمين والأقباط، أجمعت على أن الأقباط لا يمكن اعتبارهم أقلية، بل هم جزء من النسيج المصري في انسجامه الأتم.

المؤلف يؤكد على هذه الحقيقة عبر استعراض العلاقة التاريخية بين المسلمين والأقباط ونضالهم المشترك ضد الغزاة والمستعمرين، وقبل ذلك بقرون عبر المواقف الوطنية للكنيسة القبطية التي استوعبت الكيان المصري كله.

في العصور الإسلامية ومنذ الفتح الإسلامي، اتسمت العلاقة بين العنصرين بدرجة من الاستقرار والنضج، خصوصًا في عصور الدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية، وحين دب الضعف في أوصال الدولة في بعض فترات الحكم المملوكي والعثماني، توترت العلاقة واضطهدت الأقلية العددية (الأقباط)، وتأكدت هذه العلاقة الحميمة بين العنصرين مع نضال المصريين ضد الحملة الفرنسية في عام ١٧٩٨ ثم كفاحهم ضد الاحتلال الانجليزي وبروز شعار مصر للمصريين وأن الدين لله والوطن للجميع في ثورة ١٩١٩.

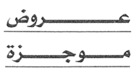
يستعرض المؤلف عددًا من الهيئات والمؤسسات القبطية التي لعبت - ومازالت - دورًا مؤثرًا في بلورة مفهوم المجتمع المدني ومنها مجموعة التنمية الثقافية والمركز القبطي للدراسات الاجتماعية وجمعية الصعيد للتربية والتنمية والهيئة الإنجيلية للخدمات الاجتماعية. ويناقش بعد ذلك فكرة الحماية الدينية عبر تقارير الكونجرس الأمريكي الذي أراد أن يعرض نوعًا من الوصاية في عصر العولمة كنوع من الضغط على الدول، ومنها في منطقة الشرق الأوسط مصر والجزائر والسودان، ويشير إلى الموقف المشرِّف الذي اتخذته النخبة المثقفة بمسلميها وأقباطها، والذي تمثل في الرفض التام لأي تدخل في الشأن المصري تحت أي مسمى.

ويشير المؤلف إلى بعض المشكلات التي يواجهها الأقباط أو التي أثيرت في السنوات الأخيرة مثل قضية بناء الكنائس والجامعة القبطية وحوادث العنف التي تعرض لها الأقباط، ثم الخطر الخارجي الذي بات يطلق عليه بتعميم يخلو كثيرًا من الدقة: أقباط المهجر.

وكتب المؤلف أن ثمة مشاكل تواجه الأقباط، كما أن هناك مشاكل تواجه المسلمين، لكنها جميعًا مما يمكن حله في إطار ديمقراطي مجتمعي وليس بمنظور طائفي أو ديني.

ويقدم المؤلف في نهاية الكتاب ملحقًا بالوثائق والشهادات يتضمن شهادات للبابا شنودة والأنبا موسى والشروط العشرة لبناء الكنائس، وبعض البيانات التي أصدرها مثقفو الأمة وفنانونها وعلماؤها من الطرفين وبيان لجنة الحكماء الداعي إلى وقف العنف. ثم تقرير الكونجرس الأمريكي ولجنة حماية الأقليات وتدخلاتها السافرة في شئون الدول.

□ □ □



ابن خلدون من منظور آخر
عبدالسلام الشدادي
ترجمة: محمد الهلالي، وبشرى الفكيكي
الدار البيضاء: دار توبقال للنشر ٢٠٠٠



ثمة حقيقة مؤكدة ومبدئية في مجال العلوم الإنسانية، مؤداها أن ابن خلدون هو مؤسس علم العمران البشري - علم الاجتماع فيما بعد - ومقدمته اعتبرت دومًا عملاً رائدًا سابقًا لعصره، وابن خلدون بحسب «جاك بيرك» هو «العبقري المحيِّر» وهما كلمتان لخصتا - كما يقول المؤلف - الفكرة السائدة عن ابن خلدون لدى دارسيه.

المؤلف يعيد قراءة ابن خلدون مستفيدًا من قراءات سابقة، ومقترحًا صيغًا بديلة وفضاءات أخرى للرؤية، ويبدأ من نظام السلطة في المقدمة الخلدونية الذي لم يتم استخلاص جميع نتائجه حتى الآن بحسب رأيه.

ثم النموذج الذي يقترحه ابن خلدون لتفسير المجتمع الإنساني بسيط للغاية، فهو يميز بين مرحلتين من تطور الإنسانية: حالة المجتمع الزراعي الرعوي، وهي مرحلة أولية بسيطة لا توفر إلا الضروري، ومرحلة حضرية، أكثر تعقيدًا وتطورًا تلبي الكمالي والرفاهي، في الأولى يتحدث الاجتماعيون عن «وجود بالقوة» وفي الثانية يتحدثون عن «وجود بالفعل» ويشير المؤلف إلى مفهوم رئيسي عند ابن خلدون لم يتم أيضًا الالتفات إليه، وهو مفهوم الجاه. وهو عنده «القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة»، وهكذا يبدو الجاه، شرطًا أساسيًا لممارسة الإكراه الذي يعتبر ضرورة للعيش في المجتمع، وهكذا أيضًا فإن الشريعة الإلهية والقوانين السياسية لا تملك في حد ذاتها القوة لتفرض إنها تحتاج لشيء أكثر بدائية وتجذرًا في الطبيعة الإنسانية، الجاذبية الكونية للسلطة وهالة الافتتان المحيطة بها.

والقاعدة الأساسية للبناء السياسي عنده تقوم على التعاون بين الناس خصوصًا في جانبه المتعلق بالتقسيم الاجتماعي للعمل، والإكراه الضروري لتحقيق ذلك التعاون ويرى المؤلف أن نظام الجاه يحمل بذور فنائه بداخله، لأن أصحاب «الجاهات» سيتنافسون فيما بينهم من أجل تحصيل مزيد من الثروة والنفوذ، ومن ثم تفقد الدولة ما حصلت عليه من عظمة وجلال، وسيسري هذا الفساد في المجتمع كله، إلى الحد الذي تؤدي فيه عادات البذخ إلى تدمير المجتمع.

والاقتصاد الخلدوني يعني بصورة أساسية وسائل العيش وكسب القوت، وهي تقوم على فكرة عميقة وبسيطة في الوقت نفسه، مؤداها أن الإنسان مجبر على الحصول على ما يقتات به، وأن الله وهب للناس كل ما يوجد على الأرض، ولجميع الناس فرص متساوية في الحصول عليه، باختصار: العمل هو المصدر الرئيسي للمكاسب، فإذا اختفى العمل أو تناقص بسبب انحطاط الحضارة، فإن ذلك علامة على أنه لم يعد من الممكن امتلاك المنتوجات.

ويعطي ابن خلدون أهمية استثنائية للتعليم والمعرفة، والإنسان عنده جاهل بطبيعته لا يصبح إنسانًا إلا بالمعرفة، فالتكون يجب أن يبدأ منذ نعومة الأظافر حينما تكون النفس بكرًا، كما أن لاختيار محتوى التعليم الأول أهمية كبيرة، وينصح ابن خلدون بعدم تعليم أكثر من تخصص واحد في الوقت نفسه، ويلح على منهج التدرج والتبسيط دون إرهاق بالواجبات على التلاميذ.

رحلة المؤلف مع ابن خلدون تجوب مواضع كثيرة في مقدمته من السياسة إلى الاقتصاد إلى التعليم، ساعيًا إلى تقديم رؤى مغايرة عن الدراسات السابقة.

□ □ □

تصطفل ميريل ستريب
رشيد الضعيف
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١، ١٥٠ صفحة



تبدو الرواية في ظاهرها الخادع، حكاية عن علاقة فراش بين زوج وزوجته، الزوج متنور، لكنه يتمسك

خارطة الحب
تأليف: أهداف سويف
ترجمة: فاطمة موسى
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ٦١٤ص



عندما تقرأ الترجمة العربية لرواية الأديبة المصرية أهداف سويف «خارطة الحب» تكاد تنسى أنها كتبت في الأصل باللغة الإنجليزية. فإلى هذا الحد يأتي نص الرواية سلسًا خاليًا من التراكيب الغريبة، ويسري الحوار بين أشخاصها بشكل طبيعي بل مطعمًا أحيانًا باللغة المصرية العامية والأمثال الشعبية. وربما يعود الفضل في ذلك إلى فرصة أدبية من النادر أن تتكرر، حيث إن المترجمة هنا، فاطمة موسى، ليست فحسب من أهم نقاد وأساتذة الأدب الإنجليزي والأدب المقارن في العالم العربي، وإنما هي أيضًا والدة المؤلفة وصديقتها الحميمة، وقد اشتركتا بالعمل سويًا في تعريب الرواية التي رشحت للفوز بجائزة «بوكر». وكانت أهداف في مؤلفاتها السابقة الصادرة باللغة العربية قد قامت بتنفيذ عملية تعريبها بنفسها.

كما أن هناك عاملاً آخر يجعل الرواية تحمل الروح المصرية، وهو أن أهداف سويف لا تكتب بالإنجليزية لأنها إنجليزية من أصل مصري أو مصرية نشأت في إنجلترا، وإنما هي حسب تعبيرها ذات تكوين «أدبي» إنجليزي سببته ظروف الدراسة والاطلاع، بخلاف تكوينها «الحياتي». فهي مصرية، نشأت في مصر وتلقت معظم تعليمها في المدارس والجامعات المصرية. ويضاف إلى ذلك أن الرواية عن مصر، وتدور معظم فصولها فيها، وكثير من أشخاصها مصريون تدور على ألسنتهم الألفاظ اليومية الدارجة. وهذا بالتحديد هو ما يجعلها مألوفة - أكثر من اللازم - بالنسبة للقارئ العربي.

إن من أبرز سمات «خارطة الحب» اختلاف حس اللغة حسب الاختلاف بين الطبقات والشخصيات والأزمنة في الرواية. والقارئ هنا بطبيعة الحال تفوته ملاحظة براعة المؤلفة في التدرج باللغة الإنجليزية من إنجليزية القرن التاسع عشر، إلى الإنجليزية الأمريكية المعاصرة، إلى الإنجليزية المعبرة عن العربية العامية. وعندما تنقل أهداف الحوار المصري العامي باللغة الإنجليزية، يشكل أسلوبها إضافة غير مسبوقة في الأدب الإنجليزي المعبر عن العرب، حيث تنجح في نقل «جو» العامية ببساطته وإيقاعه وفكاهته. ومثل هذا التنوع الغرائبي يدهش القارئ باللغة الإنجليزية ويجذبه، بينما يأخذه القارئ باللغة العربية كأمر مسلم به. فليس مما يلفت الانتباه أن تقرأ عبارة أو دعاء «اسم النبي حارسها»، ولكنك سوف تلتفت إذا قرأت عبارة (the name of God guard and protect her!) كذلك حافظت المؤلفة في النص الإنجليزي على بعض الألفاظ العربية التي كتبتها بالحروف الإنجليزية لكي لا تفقد وقعها وسحرها الخاص، مثل «ياختي» و«خلاص» و«إن شاء الله»، ثم قامت بتزويد نهاية الكتاب بقاموس يحتوي على شرح لمعاني تلك الألفاظ.

أما القصة في «خارطة الحب» فمنسوجة حول أحداث ومناخ الفترة من ١٨٩٨ إلى ١٩١٢ في تاريخ مصر، من خلال يوميات ورسائل ليدي آنا ونتربورن الأرملة الشابة الإنجليزية التي تأتي إلى مصر عام ١٩٠٠ لتقع في غرام شريف باشا البارودي الوطني المصري وتتزوج منه. هذه اليوميات تعثر عليها عام ١٩٩٧ الأمريكية إيزابيل باركمان ابنة حفيدة آنا وشريف، التي تقع في غرام قائد أوركسترا شهير في أمريكا هو عمر الغمراوي - الذي يتصادف أنه ابن عمها - وتأتي إلى القاهرة لتقابل أخته أمل الغمراوي، التي تقرأ يوميات آنا وتضيف إليها يوميات جدتها ليلى البارودي أخت شريف باشا، لتكتمل معايشتنا لتلك الحقبة الزمنية. (ولا أجد سببًا لخلو الطبعة العربية من خريطة شجرة العائلة الموجودة في الأصل، رغم أهميتها في فهم تسلسل علاقات القرابة بين الأبطال).

وكما يبدو فإن الحبكة قائمة على مصادفات كثيرة، وتتوسع الرواية لتغطي قرنًا من الزمان متنقلة عبر القارات والشخصيات. فبخلاف روايتها الأولى المؤثرة «في عين الشمس» لا تتعمق أهداف سويف في التكوين الذاتي للشخصية، وإنما غرضها هنا معالجة إشكالية الشرق والغرب بشكل مباشر. فهي تقدم للجمهور الغربي قصتنا مع الاستعمار من خلال البطلة الإنجليزية المتعاطفة مع المصريين، التي تنتقد سياسات ومبررات أبناء وطنها من أمثال لورد كرومر والمحيطين به. وهي تقدم قضية الاستقلال الوطني وقضية النهضة التي ارتبطت بتلك الفترة من خلال شريف باشا الذي ترسمه المؤلفة في قلب الحركة الوطنية، فهو ابن أخ محمود سامي البارودي وصديق حميم للشيخ محمد عبده وقاسم أمين وغيرهم من الشخصيات التاريخية التي تستنطقها الرواية.

وحين تعود بنا المؤلفة إلى هموم الشخصيات المعاصرة في الرواية، وحوارات المثقفين في «أتيليه القاهرة»، تضعنا أمام مقارنة تاريخية مثيرة للتساؤلات. ما الفرق بين معاناتنا من الاستعمار المباشر ومعاناتنا الآن؟ وهل تقدمنا أم تقهقرنا في مسيرة التحرر والنهضة ؟

هديل غنيم

عروض موجزة

بالخفر والحياء والعفة، يريد زوجة بكرًا، لا خبرات سابقة لها تمكنها من أن تقارن بين زوجها وآخرين، ويطمح في أن يصبح أبًا لصبي، وأن تسير حياته في هدوء وسكينة لا يعكرها شيء.

ولأن عمره تقدم، والأهل - مثل كل الأهل في شرقنا العربي - يلحون عليه في الزواج، قرر أن يتزوج، وبطريقة شرقية تقليدية تمامًا، إذ لم تكن ببالـه فتاة بعينها، اختارت له الخالة عروسه، والتقى بها مرات قلائل، لم تكن كافية قطعًا كي تكشف عن أي شيء، وحين حاول أن ينتزع منها اعترافًا بما إذا كانت عاشرت رجالاً آخرين قبله أم لا، تصنعت الغضب وحردت، وحتى لا تضيع فرصة العروس التي وجدها مناسبة وقادرة على تحقيق أحلامه في الاستقرار والأبوة، سارع بالزواج منها، وبقي ليالي طوالا قبل أن تمكنه من تحويلها من حالة إلى حالة، وحين تم له ما أراد، هالته كمية الدماء التي نزفتها، وطاردته الوساوس، فيم إذا كانت عروسه بالفعل بكرًا أم صاحبة خبرات سابقة، وعزّز هذه الوساوس ما بدا من عروسه بعد أيام قلائل من الزواج، إذ كشفت عن لسان سليط وجرأة بدت له زائدة عن الحد، كما أنها أظهرت قدرًا من الكراهية تجاهه لم يعد بوسعها أن تخفيه، وانتهزت فرصة مناسبة لحادثة عارضة بينهما، فتركت البيت وأجهضت نفسها، وسافرت إلى إخوتها في الخليج.

ما علاقة «ميريل ستريب» الممثلة الأمريكية الفاتنة التي يزين اسمها عنوان الرواية الذي يعني إلى الجحيم مع ميريل ستريب بهذا كله.

هذا هو الجانب الأعمق في الحكي، إذ ينبئنا الراوي أنه لم يقتن تليفزيونا منذ زواجه، لكنه اكتشف بعد أسابيع من الزواج أهمية أن يشتريه، كي يبطل حجة زوجته في الذهاب عند أمها من ناحية، وكي يتابع ما يجري في العالم عبر اشتراكه في الفضائيات العربية والعالمية من ناحية ثانية.

فجأة.. وجد نفسه مع حادث شبيه بما يجري بينه وبين زوجته، بطلاه ميريل ستريب وداستين هوفمان، وهو من عشاق فاتنة هوليوود وقد تمناها دائمًا لنفسه، وهكذا تتداخل حكايته مع حكاية الفيلم المبثوث عبر محطة فضائية أجنبية، وهذه واحدة من فضائل - ربما - العولمة، التي تمزج الجميع في خلطة واحدة، ولكن ماعساه يفعل وهو الزوج الشرقي الذي يتمسك بتقاليد وقيم مغايرة، خصوصًا فيما يتصل بالحياة الأسرية وتضاعيفها، وكيف له أن يتخلى فجأة عن حقوق القوامة - بدون جور فهو مستنير كما أسلفنا - وحقه في زوجة بكر صانت جسدها حتى أهدته إليه بنضارته الأولى عربون حياة سعيدة ممتدة، يزينها أطفال ظرفاء؟ سيكتشف الزوج أن زوجته التي تمناها بكرًا ليست كذلك، وأنها خبيرة بالرجال حتى الشواذ منهم، وأنها قبيحة النفس وقحة، وأن الفضائيات والعولمة، نجحتا في تبديل مفاهيمها إلى حد أن حكايات البكارة والعفة والحياء وغيرها مما يقدره الراوي، صارت إرثًا من زمن ولّى ولن يعود.

□ □ □

الألقاب وأسماء الحرف والوظائف في ضوء البرديات العربية

سعيد مغاوري محمد

القاهرة: دار الكتب والوثائق المصرية، ٢٠٠٠، ٥٠٣ صفحات



يمثل هذا البحث أطروحة جامعية لنيل درجة الدكتوراة، وموضوعه في علم الدراسات البردية العربية غير مسبوق، وهذا يبدأ بفصل عن نشأة علم البرديات العربية الذي نشأ في الجامعات والمعاهد الأوروبية، ثم يقدم في فصل تال أبرز مجموعات البرديات العربية وأشهر دارسيها. ثم يدلف إلى موضوع بحثه الرئيسي وينقب في أصول ألقاب عربية شهيرة مثل الإشادي والإبراهيمي والأجري والأزدي والأسطي، واللقب الأخير يطلق أصلاً «أسطة»، وهو ربما كان الصيغة المستعملة في اللهجة الدارجة لكلمة أستاذ، بمعنى الكبير أو الماهر في صنعته، وكذلك الإسكافي، وهو لقب يرتبط بحرفة قديمة تعني صانعي النعال. وبين الحرف التي وردت في البرديات أيضًا «الجبّاش»، وهي مشتقة من جبش الشعر، يجبشه أي يحلقه وهي تعني الحلاق أو المزيّن، و«الدقّاق» وهو بائع الدقيق أو الطحين، وأحيانًا يستخدم لمن يقوم بدق القماش وتنعيمه، وكذلك «الدهّان» أي بائع الدهن، ويشمل أيضًا الطلاء بالدهان على الجدران والأسقف وطلاء الأدوات والآنية، وقد كانت للدهانين بيوت خاصة خلف القصر الكبير في العصر الأيوبي.

وترددت أيضًا في البرديات حرفة «الدلال» وهو الوسيط بين البائع والمشتري، وهو ما يعرف في الوقت الحاضر بالسمسار.

وورد كذلك لفظ «رقّاص» في كشوف العمال وإيصالات الجزية والخراج، وهي تعني في نصوص البرديات العربية: الشخص الذي يتولى خلط الطين وعجنه وإعداده للبناء.

عشرات الحرف والألقاب التي وردت في النصوص العربية يتضمنها هذا المجلد الذي يبحث في جذورها وأنسابها.

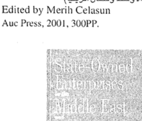
كتب أجنبية

State-Owned Enterprises in the Middle East and North Africa

(المشروعات المملوكة للدولة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا)

Edited by Merih Celasun

Auc Press, 2001, 300PP.



شهدت الفترة التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الكتلة الشرقية تسارعًا غير مسبوق في تطبيق اقتصاديات السوق في دول العالم النامي إضافة إلى دول أوروبا الشرقية وروسيا بالطبع، وفي مقدمة اقتصاديات السوق الخصخصة ولكن بقدر هذا التسارع العالمي فإن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لم تشهد مثل هذا التسارع، بل كان هناك تباطؤ ملحوظ. وأرجع الخبراء الاقتصاديون هذا التباطؤ إلى عاملين رئيسيين، الأول: العمالة الكثيفة غير المطلوبة في أحيان كثيرة في المشروعات المملوكة للدولة بتلك المنطقة، والعامل الثاني هو عدم قدرة اقتصاديات دول هذه المنطقة على خلق فرص عمل بالسرعة الكافية الأمر الذي أثار مخاوف المسئولين من أن الإسراع بالخصخصة من شأنه زيادة معدل البطالة وهو معدل مرتفع من الأساس.

وقد جرى تقسيم هذا الكتاب إلى جزءين الأول يعالج قضايا أساسية بشأن طبيعة الاقتصاد السياسي والمؤسسي في دول المنطقة. لإيضاح الضغوط المؤيدة والمعارضة لإصلاح وخصخصة المشروعات المملوكة للدولة. ويقدم الجزء الثاني من الكتاب دراسات تطبيقية على مصر والأردن والسودان وتركيا لتوضيح الأدوار المحددة التي تلعبها الدولة والأدوار التي تمارسها جماعات المصالح في مسيرة إصلاح وخصخصة المشروعات المملوكة للدولة. كما يتضمن هذا الجزء تحليلاً للتأثير السلبي لذلك في الإنتاجية والإصلاح المالي للقطاع العام الذي يعاني من المشاكل.

والخلاصة التي يتم الخروج بها من الكتاب هي أنه من الضروري دراسة سياسة الحماية الاجتماعية ومسائل الاستغناء عن العمال وغيرها قبل البدء في أي مشروع للخصخصة، كما يشير إلى أن زيادة الاستثمارات من القطاع الخاص للمشروعات المملوكة للدولة شرط مسبق للإسراع باندماج اقتصاديات دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا في الاقتصاد العالمي من خلال البرامج ذات العلاقة بالتجارة وإصلاح البنية الأساسية.

ومؤلف الكتاب عميد كلية العلوم الاقتصادية والإدارية والاجتماعية في جامعة بلكنت في أنقرة، وقد عمل في السابق مع البنك الدولي وفي هيئة التخطيط المركزي التركية، وهو عضو في مجلس الأوصياء في منتدى البحث الاقتصادي، والمنتدى مؤسسة بحثية إقليمية ومقره القاهرة.

□ □ □

In the Wake of the Plague.. The Black Death and the World at Made

(في أعقاب الطاعون.. الموت الأسود والعالم الذي صنعه)

Norman F.Cantor

The Free Press, 2001, 245pp., $25.00,



يعادل «الموت الأسود» الذي تعرضت له أوروبا في القرن الرابع عشر حربًا نووية، فقد حصد الطاعون الذي استمر من ١٣٥٠ حتى ١٣٥٧ ما يعادل ثلث سكان أوروبا أي ٢٠ مليون نسمة. وقد أحدث صدمات غير مسبوقة في كل نواحي الحياة من اجتماعية وسياسية واقتصادية بل إنه جعل الناس يتبنون مواقف جديدة إزاء الدين والفلسفة والفن. وهذه المواقف كانت بمثابة المقدمة للتغييرات الشاملة التي عرفتها أوروبا فيما بعد، والتي أطلق عليها اسم عصر النهضة.

وفي كتابه «في أعقاب الطاعون» يحاول نورمان كانتور أن يوفر للقارئ مسحًا جيدًا للطاعون وتأثيراته. وهو يتناول بشكل تفصيلي تأثيره على الأسر وعلى الأفراد. وأهم ما في الكتاب العواقب التي سببها الطاعون (الموت الأسود) بشكل خاص على الانجليز، فقد انخفض عدد السكان بشكل درامي وانخفض أيضًا الغذاء الذي يأكلونه، وفي المناطق الريفية ظهر نقص فادح في العمالة قوض النظام الزراعي آنذاك، فقد طالب المزارعون الأجراء بزيادة كبيرة في أجورهم من ملاك الأراضي، الأمر الذي كان يحدث

عـــروض موجـــزة

اضطرابات شديدة. ويقول المؤلف أن أعظم انتفاضة عمالية قبل القرن ١٨ حدثت في عام ١٣٨١ في انجلترا وكان من الممكن - حسب قوله - أن تؤدي إلى استيلاء الطبقة العاملة على الحكومة وتقيم نظامًا اشتراكيًا إلا أنه بسبب سذاجة الفلاحين وعدم نضجهم السياسي لم يتحقق هذا الحلم. وكنتيجة لذلك، فإن التأثير الاجتماعي الرئيسي للموت الأسود لم يكن زيادة أهمية الفلاحين بل اتساع رقعة الاستقطاب الاجتماعي والطبقي بينهم وبين النبلاء. الأمر الذي يشكل مقدمة لاقتصاد رأسمالي مبكر. إن الفجوة بين الأغنياء والفقراء في كل قرية انجليزية اتسعت بشكل كبير. واستغل ملاك الأراضي الظروف التي أوجدها الطاعون ليراكموا ثرواتهم وليعيش الفلاحون نتيجة لذلك في أحوال مزرية.

ويشير المؤلف إلى أن المأساة الكبيرة والهائلة التي تعرض لها الناس في أوروبا نتيجة الطاعون أفقدت كثيرين منهم قوة الإيمان بالكاثوليكية وظهرت تساؤلات وتفسيرات تحاول فهم الطبيعة الإنسانية والسلوك البشري.

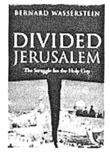
□ □ □

Divided Jerusalem.. The Struggle for the Holy City

(القدس المقسمة.. الصراع على المدينة المقدسة)

Bernard Wasserstein

Profile, 412PP, £20, 2001



عندما قام أرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل الحالي بزيارة الحرم الشريف مستفزًا مشاعر المسلمين في فلسطين، فإنه تسبب بشكل مباشر في تفجير الانتفاضة التي حصدت أرواح مئات الفلسطينيين برصاص الجنود الإسرائيليين المحتلين. وقد أعادت الانتفاضة قضية القدس إلى الواجهة.

ويقول المؤلف أنه بينما يكرر شارون دائمًا أن القدس ستبقى عاصمة أبدية لدولة إسرائيل، فإن المدينة مقسمة بشكل فعلي ويشير إلى أن القدس أكثر انقسامًا من جوهانسبرج قبل ٢٠ عامًا عندما كانت في ظل الحكم العنصري للبيض في جنوب أفريقيا. إن الانقسام واضح في شتى مناحي الحياة ويكفي حسب المؤلف أن تقوم بإيقاف سيارة أجرة في الجزء الغربي من القدس الذي يقطنه أغلبية من اليهود وتسأل سائقها أن يذهب بك إلى الجزء الشرقي وعندئذ ستجد رد فعل غاضبًا للغاية وعدم رغبة في الذهاب إلى الجزء الشرقي الذي يعيش فيه الفلسطينيون.

ويركز المؤلف في كتابه على وضع القدس منذ الانتداب البريطاني على فلسطين عام ١٩٢٠. ويقول أن البريطانيين أقاموا الانتداب في فرحة وسعادة لكنهم تخلوا عنه قبيل قيام إسرائيل عندما شعروا باليأس والإحباط. ولم يتمكن الإسرائيليون من الاستيلاء على المدينة بأكملها سوى نتيجة لحرب يونيو ١٩٦٧.

ويشير إلى أنه منذ ١٩٦٧ أصبحت القدس نقطة شائكة للغاية بالنسبة للجانبين العربي والإسرائيلي في الصراع. وقد نشط الإسرائيليون في إضفاء الطابع اليهودي على المدينة لإنهاء حق الفلسطينيين في المطالبة بها.

ومن خلال استعراض لشتى نواحي المدينة الديموجرافية والثقافية والاقتصادية والسياسية يتساءل المؤلف في النهاية: هل يمكن حل قضية القدس، ويشير إلى أن اللغة التي يتم الحديث بها عن مشكلة القدس، وكيفية حلها تظهر عدم القدرة على الحل فما يتم التحدث به هو الصراع.. والصراعات، حسب رأيه ليس لديها إجابات أو حلول. إن الصراع على القدس يبدو أنه سيستمر لوقت طويل، كما أن التنبؤ بنتيجة هذا الصراع سيكون مجرد افتراض غير مبني على أسس قوية.

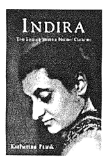
□ □ □

Indira.. The Life of Indira Nehru Gandhi

(أنديرا.. حياة أنديرا نهرو غاندي)

Katherine Frank

Harper collins, 454PP, $19.95, 2001



في مناخ يعيد إلى الأذهان رد الفعل الإيراني على كتاب آيات شيطانية للكاتب البريطاني الجنسية الهندي الأصل سلمان رشدي، صادرت سلطات إحدى الولايات الهندية نسخ مجلة تحتوي على مقتطفات من كتاب صدر للمؤلفة البريطانية كاثرين فرانك عن سيرة حياة أنديرا غاندي رئيسة الوزراء الهندية الراحلة. وقد تم حرق نسخ أخرى من الكتاب على أساس أن المؤلفة تشوه سمعة أنديرا غاندي.

الكتاب يدعي تورط أنديرا في علاقات غير شرعية، وقد أغضب ذلك سونيا غاندي زعيم حزب المؤتمر الهندي وأرملة راجيف غاندي رئيس الوزراء الراحل ونجل أنديرا. وقد فوضت سونيا محامين في الحزب لإقامة دعوى ضد المؤلفة.

نقطة الجدل الرئيسية في الكتاب إشارة المؤلفة إلى الشائعات التي ذكرت أن والدة أنديرا وكانت تدعى كمالا نهرو كانت على علاقة بفيروز زوج أنديرا الذي توفي عام ١٩٦٠. وبينما كانت هناك نميمة على مدى سنوات طويلة عن علاقات أنديرا غير الشرعية، فإن هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها ذكر هذه المعلومات عن كمالا.

وتشير المؤلفة، التي استمرت ٦ سنوات في جمع معلومات الكتاب، إلى أن الشائعات تركز على علاقة خاصة بين أنديرا ومانهاي المساعد الخاص لوالدها نهرو أول رئيس لوزراء الهند المستقلة وتدعي المؤلفة أن هذا المساعد نشر سيرة حياته في السبعينيات من القرن الماضي لكن جرى سحب فصل منها بعنوان «هي» أعطى فيه تفاصيل عن علاقة استمرت ١٢ عامًا. ويتناول الكتاب أيضًا العلاقة المزعومة بين أنديرا ومدرس اليوجا الخاص بها.

وصرح متحدث باسم دار نشر هاربر كولينز التي أصدرت الكتاب بأن محتويات الكتاب - حسب قوله - ليست هي التي فجرت الغضب الهندي بل الطريقة التي تم بها عرض الكتاب في الهند.

ومن جانبها، فإن المؤلفة أصدرت نفيًا شديدًا للاتهامات بأن كتابها غير دقيق. وقالت أنها تشعر بثقة بشأن المجهود الذي بذلته في الكتاب مشيرة إلى أنها وصفت العلاقة بين زوج أنديرا ووالدتها بأنها شائعة. وأضافت أنها أوضحت أيضًا أنه من غير المرجح بشكل كبير وجود علاقة بين أنديرا وأي شخص آخر ربما باستثناء مساعد والدها. وقد ذكرت أن هناك دليلاً قويًا لتأييد ذلك.

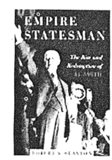
□ □ □

Empire Statesman.. The Rise and Redemption of Al Smith

(رجل دولة امبراطوري.. صعود وافتداء آل سميث)

Robert A.Slayton

Free Press, 2001 400pp., $ 30.00.



ضمن أمور كثيرة أخرى، أظهرت الانتخابات الرئاسية الأمريكية في أكتوبر الماضي مدى الانقسام الشديد في المجتمع الأمريكي سياسيًا وثقافيًا فقد فاز جورج بوش الابن بالجنوب والغرب وأبلى بلاء حسنًا في المناطق الريفية وبين الناخبين المحافظين، أما آل جور فقد حصد أصوات سكان الساحلين الأمريكيين والمدن الكبرى والأقليات والناخبين العلمانيين.

ويقول مؤلف هذا الكتاب روبرت سلايتون أن ذلك ليس جديدًا في مثل هذه الانقسامات عميقة الجذور في المجتمع الأمريكي. ومن خلال سيرة حياة حاكم نيويورك السابق آل سميث يشير إلى أنه في أوائل القرن العشرين حدثت تغيرات عميقة في الولايات المتحدة بما في ذلك هجرة أكثر من ٢٠ مليون شخص أغلبهم من الكاثوليك واليهود، كما حدثت توسعات كبيرة في السكن الحضري. وقد فتح ذلك الباب أمام انقسام ثقافي واسع، فمن ناحية هناك المناطق الريفية والبروتستانتية حيث تزدهر الأصولية الدينية ومن ناحية أخرى هناك - كما يقول المؤلف - «أمريكا الأخرى» التي يمثلها رجال مثل آل سميث.

وولد آل سميث في أسرة ذات أصول أيرلندية وإيطالية وألمانية عام ١٨٧٣ في حي مانهاتن بنيويورك. وخرج من المدرسة وهو في سن الرابعة عشرة لمساعدة والدته الأرملة، وبعد ذلك سيفتخر آل سميث بين السياسيين بأنه عمل في سن المراهقة في سوق السمك.

ويصور المؤلف عالم آل سميث في مانهاتن والانقسامات الشديدة في الحي الكبير. كما يتناول طريقه في عالم السياسة وعضويته في مجلس المدينة والشعبية التي حصل عليها عندما رأس لجنة تحقيق في وفاة ١٤٦ شخصًا في حريق بمصنع ملابس، وأصبح بعد ذلك رئيسًا للمجلس ثم حاكمًا لنيويورك عام ١٩١٨. وقد أحاط الحاكم نفسه بمجموعة من الشباب ذوي العقلية الممتازة، الأمر الذي ساعده على النجاح ومحاولة لعب دور على المستوى الأمريكي كله.

وقد رشح آل سميث نفسه في انتخابات عام ١٩٢٨ الرئاسية وحصل سميث على ترشيح الحزب الديمقراطي له ليصبح أول مرشح كاثوليكي يحظى بذلك، لكن الانتخابات كانت - كما يقول المؤلف - بمثابة إعلان حرب ليس فقط على سميث بل على الأجانب خاصة الأيرلنديين من جانب المحافظين والبروتستانت وقد خسر سميث في هذه الانتخابات أمام هوفر. ويتناول المؤلف حياة سميث السياسية بعد خسارته ومعارضته لما سمي بالصفقة الجديدة التي طرحها الرئيس فرانكلين روزفلت. ويضيف المؤلف أن سميث يذكرنا أن الانقسامات الثقافية داخل أمريكا ستظل دائمًا موجودة.

□ □ □

أدب رحلات

Journey to Portugal: In Pursuit of Portugal's History and Culture

(رحلة إلى البرتغال: بحثًا عن ثقافة وتاريخ البرتغال)

Jose Saramago

Harcourt, 2001, 452pp., $ 30.00

كتب شاعر البرتغال خوزيه ساراماجو الفائز بجائزة نوبل هذا الكتاب منذ عشرين عامًا قبل أن يترجم إلى الإنجليزية هذا العام. وقد كتبه بعد ستة أشهر من تجواله بين مدن وقرى البرتغال، محاولاً إلقاء الضوء على تاريخها وثقافتها الخاصة فى ذلك الوقت، بلغته الشاعرية الخاصة.

■■■

An Unexpected Light: Travels in Afghanistan

(ضوء غير متوقع: رحلات فى أفغانستان)

Jason Elliot

Picador, 2001, 473pp., $ 30.00

يتخطى هذا الكتاب مجرد الكتابة الأدبية الجميلة، أو السرد المشوق لوقائع رحلة فى بلاد عجيبة. فهو يقدم نظرة عميقة فى ثقافة وشعب وتاريخ أفغانستان. وقد رحل المؤلف إلى أفغانستان ثلاث مرات على مدى العشرين عامًا الماضية. فى المرة الأولى عام ١٩٧٩ اشترك المؤلف مع المجاهدين الأفغان فى مقاومتهم لاحتلال الاتحاد السوفيتى. وفى المرة الثانية بعدها بعشر سنوات، كان شاهدًا على القتال بين الطالبان وحكومة شاه مسعود. يصف المؤلف بحنين تلك البلاد التى أحبها والشعب الذى احترمه، إلا أنه يرثى لحاله ويشعر بالأسف لما ضاع منه.

■■■

The Flaneur: A Stroll Through the Paradoxes of Paris

(المتسكع: تمشية بين تناقضات باريس)

Edmund White

Bloomsbury, 2001, 211pp., $ 16.95

يكتب الأديب الأمريكى إدموند وايت عن مدينة باريس التى عاش فيها أكثر من خمسة عشر عامًا فى الثمانينيات والتسعينيات. وقد عمل وايت مراسلاً لمجلة فوج الأمريكية فى باريس. ويعلن فى مستهل هذا الكتاب أن الأمريكيين غير مؤهلين لأن يكونوا متسكعين، أى جوالين بلا هدف لأنهم منشغلون بكيفية تعظيم الاستفادة من الوقت.

اقتصاد

دور البنوك فى مكافحة غسيل الأموال

جلال محمدين

الكويت: بنك الكويت الصناعى، ٢٠٠٠

يضع المؤلف البنوك فى قفص الاتهام، ويعتبرها شريكًا فى جرائم غسيل الأموال، ويقدم مبرراته، كما يقدم مقترحاته للدور الذى يمكن أن تلعبه البنوك فى مقاومة هذه العملية التى تهدد الاقتصاد العالمى.

■■■

The Insatiability of Human Wants: Economics and Aesthetics in Market Society

(الرغبات الإنسانية التى لا تشبع: الاقتصاد وعلم الجمال فى مجتمع السوق)

Rigenia Gagnier

Chicago U.P, 2001, 255pp., $ 35.00

بينما ينشغل علماء الاقتصاد بأمور عملية مثل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والربح، يهتم علماء أو فلاسفة الجمال بالحق والجمال والذوق، مما يعنى الافتراق التام بين المنهجين. ولكن هناك خيطًا يجمع هذين الفرعين وهو البحث عن «القيمة».

تقوم المؤلفة فى هذا الكتاب بتوضيح هذا الجسر عبر استعراض تاريخ الفكر الاقتصادى وارتباطه بالقيم الجمالية والفنية السائدة فى كل عصر.

■■■

Basic Economics: A Citizen's Guide to the Economy

(أساسيات الاقتصاد: دليل المواطن العادى للاقتصاد)

Thomas Sowell

Basic Books, 2000, 432pp., $30.00

الكتاب يشرح للمواطن العادى كيف يعمل الاقتصاد فى الدولة، لكى يتفهم ما يحدث من حوله ولكى يستطيع بوعى أن يشارك سياسيًا من خلال الانتخاب.

بيئــــة

البيئة والمشكلة السكانية

حسن أحمد شحاتة

القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠١

صارت البيئة همًا عالميًا فى ظل العولمة، والمخاطر التى تهدد البيئة وكوكبنا «الأرض»، يتسبب فى أكثرها الدول المتقدمة صناعيًا وخصوصًا الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن البشرية جميعها تدفع الثمن. المؤلف يتناول الأخطار التى تهدد البيئة، سواء منها الطبيعة مثل الجفاف والفيضانات المدمرة، أو تلك التى من صنع البشر.

■■■

Fifty Key Thinkers on the Environment

(خمسون مفكرًا رئيسًا فى شئون البيئة)

Joy A. Palmer (editor)

Routledge, 2001, 288PP, $ 16.95

اشترك أكثر من عشرين خبيرًا فى تلخيص وتقديم الأفكار المتعلقة بالبيئة لخمسين شخصية مختلفة من الأزمنة القديمة وحتى الوقت الحالى.. تضم القائمة فلاسفة ورجال دين مثل جان جاك روسو وسبينوزا وجوته وبوذا، كما تضم علماء وأدباء، ونشطاء من مختلف أنحاء العالم.

تــــاريـــخ

فرسان الأمل

فاروق القاضى

القاهرة: مركز البحوث العربية، ٢٠٠١

الفرسان الذين يقصدهم المؤلف هم الطلاب، وقد لعبت الحركة الطلابية دورًا كبيرًا فى توجيه مجريات الأحداث فى العالم كما فى مصر، والمؤلف هنا يتتبع تاريخ الحركة الطلابية وقدرتها على توجيه الأحداث فى انعطافات مهمة فى التاريخ المصرى.

■■■

مجتمع القاهرة السرى

عبد الوهاب بكر

القاهرة: دار العربى للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

يتجول المؤلف فى شوارع القاهرة القديمة التى ضمت بيوتًا للدعارة، ويجرى حوارات مع نسوة حضرن تلك الأيام وسَكَنّ تلك الشوارع، ويلقى أضواء على ملفات من أجهزة الشرطة تضمنت تحقيقات وقضايا لمن امتهن أقدم مهنة فى التاريخ، وكذلك يشير إلى القوانين التى نظمت العمل فى البغاء منذ عام ١٩٢٦ وحتى عام ١٩٥٢، وخلاصات لأهم الأبحاث الجامعية فى الموضوع.

■■■

Arab Nationalism: A History:Nation and State in the Arab World

(تاريخ القومية العربية: الأمة والدولة فى العالم العربى)

Youssef M. Choueiri

Blackwell, 2001, 272pp., $ 60.00

تتناول هذه الدراسة القومية العربية كحركة تاريخية وعقيدة فى نفس الوقت، وتضم استعراضاً لمختلف الآراء المتباينة عن نشأتها وطبيعتها وأهميتها الثقافية. ويحدد المؤلف أربع مراحل فى تطور الفكر القومى العربى. المرحلة الثقافية والمرحلة السياسية والمرحلة الاجتماعية وأخيرًا المرحلة الراهنة.

■■■

In Defense of Honor: Sexual Morality, Modernity and Nation in Early Twentieth- Century Brazil

(دفاعًا عن الشرف: الأخلاق الجنسية والحداثة والأمة فى أوائل القرن العشرين فى البرازيل)

SueAnn CaulField

Duke University Press, 2001, 312pp.

تتعرف المؤلفة من خلال القضايا التى كانت تعرض على المحاكم البرازيلية فى أوائل القرن العشرين، على التغير والتعقد الأخلاقى والاجتماعى الذى حدث فى البرازيل أثناء عملية التحديث السريعة التى كانت تجرى فى ذلك الوقت.

دراسات المرأة

المرأة العربية.. رؤى سوسيولوجية

عفاف عبد المعطى

القاهرة: المركز المصرى للدراسات والبحوث الإعلامية، ٢٠٠١

تفرِّق الكاتبة بين مصطلحى النقد النسوى والنقد النسائى، وتلقى أضواءً على صورة المرأة فى المجتمع من خلال نصوص لمجموعة من الكاتبات العربيات، اللائى عكسن فى أعمالهن حالة الإجحاف والإبعاد التى تعانيها المرأة تاريخيًا وحتى اليوم.

■■■

Manifesta: Young Women, Feminism, and the Future

(النساء الصغيرات، والنسوية والمستقبل)

Jennifer Baumgardner, Amy Richards

Farrar Straus, & Giroux, 2000, 416pp., $15.00

يقدم هذا الكتاب أفكار جيل «الموجة الثالثة» من النسوية فى الغرب. ويتوجه أيضًا لنفس هذا الجيل الجديد، أى النساء فى العشرينيات أوالثلاثينيات من عمرهن.

ويتعرض هذا الجيل باستمرار لهجوم ونقد من أجيال الموجتين النسويتين الأولى والثانية اللائى ناضلن بعنف من أجل المساواة، بينما ينظر العمل النسوى إلى أعضاء الجيل الحالى من النساء باعتبارهن تخلين عن النسوية متمتعات بما تحقق لهن فى السابق. تنفى المؤلفتان هذا الاتهام شارحتين أنه تم استحداث أساليب جديدة تواجه مشاكل جديدة برزت فى هذا العصر.

رواية وقصص

اعترافات عربى طيب

يوراك كانيوك

ترجمة: عدنان حسن

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٠

رواية تختلط فيها السيرة الذاتية بالنهج الروائى، لكن المعنى الذى يقدمه يشير إلى مأزق انتماء، حيث يتزوج العربى الطيب بيهودية وينجب منها، ويضطر بفعل الاضطهاد النازى لليهود فى ألمانيا أن يعيش فى إسرائيل، وهناك يتم اقصاؤه معنويًا، وهو الذى سعى دومًا إلى تأكيد ولائه وصلاحيته للعيش بينهم، وهكذا يرفض الإسرائيليون حتى العربى «الطيب» كما يسمى الراوى أو المؤلف نفسه، وإن كانت لدينا تسمية أخرى لطيبته.

■■■

أيقونة الفن

جورج بهجورى

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١

جزء ثان من سيرة جورج بهجورى الفنان الذى عاش، جل حياته الفنية فى باريس، الجزء الأول صدر فى عنوان «أيقونة فلتس»، وهو الجزء الذى تناول فيه بداياته ودراسته الفنية وعلاقاته وأصدقاءه، وفى هذا الجزء يركز على الفن بالذات، الأساتذة الذين تعلم على أيديهم ثم إنجازاته ورؤاه للمدارس الفنية المختلفة.

■■■

قـــــراءات جـــــــديـدة

خشخاش
سميحة خريس
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

رواية تغوص فى أعماق امرأة اعتمادًا على المنولوج الداخلى، سعيًا إلى سبر أغوار تعقيداتها النفسية وتقلباتها الحادة بسبب وضعية المرأة فى مجتمعاتنا الشرقية عمومًا والنظر إليها ككائن أدنى، وشروط قبولها فى المحيط الاجتماعى حتى بين النسوة أنفسهن، خصوصًا إذا لم تسر حياتها وفقًا للسيناريو المعد سلفًا من قبل الأبوين.

■■■

صخور السماء
إدوارد الخراط
القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

تدور أحداث الرواية فى مدينة أخميم بصعيد مصر، وتعرض للحياة هناك خلف الأبواب وداخل أديرة الرهبان والأساقفة، وهى بذلك تنضم إلى نصوص روائية قليلة تعرض لحياة الأقباط فى مصر.

■■■

ضوء مهتز
منصورة عز الدين
القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠١

مجموعة قصصية هى الأولى لكاتبتها التى تنهل من معين الطفولة وذكرياتها الحميمة التى تضفى أجواءً حميمية على تجربتها القصصية وتنبئ بموهبة جديدة واعدة.

■■■

Dreamcatcher
(صائد الأحلام)
Stephen King
Scribner, 2001, 20pp., $ 28.00

أصيب «ستيفن كينج» مؤلف روايات الإثارة الأكثر مبيعًا فى العالم فى يونيو من عام ١٩٩٩ فى حادث سيارة أحدث له عدة كسور جسيمة. وروايته الأخيرة «صائد الأحلام» هى الرواية الطويلة الأولى التى يصدرها كينج بعد تلك الحادثة. وعلى عكس ما توقع بعض القراء والنقاد لم تتأثر قدرة كينج على الإثارة والتشويق بعد الحادث، بل الأمر الطريف أن الرواية الجديدة تحتوى أيضًا على شخصية تعانى من كسور بسبب حادث سيارة.

■■■

The Siege of Isfahan
(حصار أصفهان)
Jean Christophe Rufin
Norton, 2001, $ 26.95

تبدأ رواية جون كريستوف رفان بعد عشرين سنة من زمن انتهاء روايته السابقة «الإثيوبى»، أى بعد أن نجح البطل «جون بابتست بونسيه» فى إنقاذ أثيوبيا من براثن لويس الرابع عشر. وقد أصبح يعيش مستقرًا مع زوجته وابنه فى أصفهان عاصمة فارس حيث يعمل كطبيب فى بلاط الشاه. وتدور أحداث الرواية مع سفره إلى روسيا بحثًا عن صديق، ثم يبعه كعبد فى أفغانستان، وتنتهى بغزو أفغانستان لفارس.

سياسة

إسرائيل والولايات المتحدة
أحمد سليم البرصان
أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٠

حول المسكوت عنه فى العلاقات الإسرائيلية الأمريكية، والمعلن من تحالفات اقتصادية وعسكرية ومساندة أمريكية إلى حد تبنى المواقف الإسرائيلية كاملة والدفاع عنها فى كل محفل، ودور الدولتين فى عرقلة مسيرة السلام.

■■■

أفغانستان.. السياسة الغائبة والسلام المسلح
محمود المستيرى وصالح عطية
تونس: دار الجنوب للنشر، ٢٠٠٠

مازالت أفغانستان تشغل العالم، فى البداية بكفاحها المشرِّف ضد الاحتلال الروسى، ثم بعد ذلك بالنزاعات المسلحة الدامية بين فصائل المجاهدين، ثم أخيرًا باستيلاء حركة طالبان على السلطة هناك والمشكلات التى تثيرها بين فترة وأخرى. المؤلفان يعرضان للمسألة الأفغانية فى جوانبها المختلفة، وعلاقتها بجيرانها فى آسيا الوسطى، وجذور المشكلات الأفغانية والحلول المطروحة لتجاوزها.

■■■

الاتجاهات الوحدوية فى الفكر القومى العربى المشرقى
هادى حسن عليوى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

يعتمد الكتاب على الوثائق الأصلية الخاصة بالمشاريع الوحدوية والأعمال التى درست الفكر القومى والدوريات الحزبية فى دراسته للاتجاهات الوحدوية، فى فترة اتسمت بمقاومة الاستعمار والعداء للأجنبى وانفراج المد الوطنى.

■■■

الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية
جمال باروت وآخرون
القاهرة: المركز العربى للدراسات، ٢٠٠٠

عن تاريخ الأحزاب والحركات التحررية فى الوطن العربى، وكذلك نشأة وتطور الجماعات الإسلامية فى عشرينيات القرن الماضى، وتأثيرها على السياسة فى الوطن العربى، وعلاقتها بالأحزاب السياسية شدًا وجذبًا.

■■■

التسوية.. أى أرض أى سلام
محمود عبد الفضيل
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠١

حين وصلت التسوية إلى نقاطها الحاسمة، وبدا للإسرائيليين أنهم سيدفعون ثمنًا لم يتوقعوه لبلوغها، سارعوا فورًا إلى تفجير الموقف برمته، وهدم التسوية من أساسها ورفض الاحتكام إلى أية مرجعية أو الاعتراف بأية مواثيق، اللهم إلا قوانين الأمر الواقع التى تمنح إسرائيل الأرض والسلام والأمن معًا، دون أن تضطر إلى دفع شىء فى المقابل. هذا هو ما يناقشه المؤلف.

■■■

القدس.. من العهدة العمرية إلى كامب ديفيد الثانية
وليد الخالدى
فلسطين: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

يقدم المؤلف فى كتابه استعراضًا تاريخيًا وسياسيًا وسكانيًا لمدينة القدس، وهى سيرة توضح كيف كانت الأوضاع فى القدس المحتلة منذ الفتح الإسلامى لها وحتى كامب ديفيد الثانية مرورًا بالحكم العثمانى والانتداب البريطانى، حيث بدأت فى المرحلة الأخيرة الأطماع الإسرائيلية التى انتهت بابتلاع المدينة.

■■■

شارون.. مجرم مذبحة الأسرى المصريين كيف يكون مفاوضًا للسلام؟
جابر عبد السلام
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

السؤال منطقى جدًا ومطروح بقوة على مستوى الخبراء السياسيين والمراقبين وعلى مستوى الشارع العربى، فتاريخ شارون الدموى لا يعطى بارقة أمل فى إمكان تحوله باتجاه السلام والعمل على إرساء دعائمه، هذا ما يؤكده المؤلف الذى يتتبع تاريخ شارون ومواقفه لينتهى إلى معاداته الأكيدة للنهج السلمى.

■■■

شمعون بيريز.. الرحلة الخيالية مع تيودور هرتزل إلى إسرائيل
تعريب: يوسف ضومط
عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

رسالة يخفى بيريز عبرها نواياه السياسية خلف غلالة أدبية وأسطورية، لكن أدبه كما يتبدى هنا مشبع بالأيدلوجيا إلى درجة تحيله إلى تقرير دعائى سياسى ساذج، لكن المتلقى العربى سيكشف فورًا ما وراءه من أهداف تتعارض مع التاريخ والحق حتى وإن حملتها رمزية الأدب.

■■■

Beyond The Handshake: Multilateral Cooperation in the Arab-Israeli Peace Process
(ما وراء المصافحة: التعاون متعدد الأطراف فى عملية السلام العربية - الإسرائيلية)
Dalia Dassa Kaye
Columbia University Press, 2001, 256pp., $45.00

دراسة موسعة لعملية التعاون متعدد الأطراف فى الشرق الأوسط والذى بدأ فى عام ١٩٩١ فى مؤتمر مدريد للسلام. تتناول المؤلفة وهى أستاذ مساعد فى العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة جورج تاون، تطور العلاقات العربية الإسرائيلية بعد حرب الخليج. وعلى خلاف المفاهيم التقليدية للتعاون الدولى، ترى المؤلفة أن التعاون متعدد الأطراف فى الشرق الأوسط يجب أن يفهم على أنه عملية للتفاعل أكثر منه محاولة للتوصل لمجموعة نتائج.

سينما

سؤال الذات.. سينما يسرى نصر الله
نديم جرجورة
بيروت: جماعة شمس، ٢٠٠١

عن سينما المخرج يسرى نصر الله وأفلامه المؤثرة والمهمة على قلتها، وتأثره بأسلوب يوسف شاهين وعالمه السينمائى، يقدم المؤلف رؤية نقدية لأفلام يسرى نصر الله «سرقات صيفية» و«مرسيدس» و«المدينة».

■■■

Stars and Stardom in French Cinema
(النجوم والنجومية فى السينما الفرنسية)
Ginette Vincendeau
Continum, 2001, 275pp., £16.99

تحلل هذه الدراسة اختلاف النجومية فى السينما الفرنسية عنها فى السينما الأمريكية. كما تتناول دور النجم فى كل من السينما الجماهيرية، حيث يكون الفيلم مجرد حامل للنجم، وخطر النجومية فى السينما الفنية التى تتطلب خضوع النجم للمخرج / المؤلف.

كذلك يستعرض الكتاب عشرة نجوم ونجمات من السينما الفرنسية محللاً تأثيرهم على الجمهور الفرنسى والعالمى، منهم: ماكس ليندر، وجان مورو، وجيرار ديبارديو، وكاترين دونوف، وجولييت بينوش وغيرهم.

■■■

A Century of Films
(قرن من الأفلام)
Derek Malcolm
Taurus, 2001, 184pp., £9.99

مؤلف الكتاب ناقد سينمائى بريطانى مخضرم، وله عمود أسبوعى فى صحيفة «الجارديان» منذ سنوات طويلة. وفى هذا الكتاب يكتب ديريك مالكوم عن أحب مائة فيلم إلى قلبه وأفضلها من وجهة نظره. لذلك تأتى أغلب محتويات قائمته من الأفلام التى صنعت بين الأربعينيات والسبعينيات، ولا يوجد سوى ثمانية أفلام من تلك المصنوعة بعد عام ١٩٨٠.

شعر

حياة عادية
محمد صالح
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠١

قـــراءات جـــديـدة

ديوان جديد لصاحب «صيد الفراشات» ١٩٩٦ هو الرابع فى نتاجه الشعرى، الديوان سبعة أقسام ترصد محطات فى حياة الشاعر ونشاته الريفية.

■■■

لابد من خيانة
عمر طاهر
القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١

قصائد عامية تستعيد قيمًا جمالية عذبة، ومؤلفها الشاب امتداد لسلسال طويل من شعراء العامية المصريين، وهو يقدم قصائده لجمال عبد الناصر وصلاح جاهين وبليغ حمدى وغيرهما من الشخصيات التى أثرت حياتنا فى كل المجالات.

عمـــارة

فقه العمران الإسلامى من خلال الأرشيف العثمانى الجزائرى
مصطفى بن حموش
دبى: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ٢٠٠١

تميزت العمارة الإسلامية عن سابقاتها، وهى تعد جزءًا أصيلاً من التراث الإسلامى فى الفنون والآداب، وبرغم التباين فى أساليب العمارة من بلد إلى آخر ومن منطقة جغرافية إلى أخرى، فإن العمارة الإسلامية حملت سماتها فى كل منطقة من تلك المناطق، ويتضمن الكتاب أيضًا معجمًا لأهم مصطلحات العمران الإسلامى التى تم استخلاصها من مخطوطات الأرشيف الوطنى فى الجزائر.

■■■

Architectural Reflections: Studies in the Philosophy and Practice of Architecture
(ملاحظات معمارية: دراسات فى فلسفة وممارسة العمارة)
Colin St John Wilson
Manchester U.P., 2001, 240pp., £19.99

صدر هذا الكتاب لأول مرة قبل ثمانية أعوام، ولكن خلال هذه الأعوام تبدلت سمعة المؤلف بعد أن قام بتصميم «المكتبة البريطانية». فعلى غير العادة، أدى الإعجاب بأعماله المعمارية إلى زيادة الطلب على نظرياته.

ويهتم ويلسون بقضيته الوظيفية فى المقام الأول. وهو يطالب المصمم المعمارى بالتمسك بقدر من المسئولية والواجب العام، بمعنى أنه عليه أن يعبر عن ذاته على ألا يكون ذلك على حساب القيم العامة والوظيفة المطلوبة من البناء.

■■■

Recycled Spaces: Converting Buildings into Homes
(إعادة تدوير المساحات: تحويل المبانى إلى منازل)
Vinny Lee
Ray Main (Photographer)
Soma Books, 2000, 144pp., $35.00

يقدم الكتاب خبرة المشروعات التى قامت بتصميم منازل وشقق سكنية جميلة من مبان قديمة أنشئت فى الأصل كدور عبادة أو كمصانع أو كمبان تجارية أو حكومية.

■■■

In the Company of Stone: The Art of the Stone Wall
(فن الجدار الحجرى)
Daniel Snow
Peter Mauss (Photographer)
Artisan, 2001, 128pp., $35.00

المؤلف فنان متخصص فى بناء الجدران والمصاطب والكهوف الحجرية، وهو فن قديم يعود إلى العصور الأولى ويستمر الآن على نطاق فنى ضيق. وهو يعتمد فقط على ما تنتجه الأرض من مواد طبيعية، بدون مسامير أو أسمنت، فلا شىء يمسك ما يقوم ببنائه سوى الجاذبية الأرضية وملاحظته الدقيقة لتجاويف كل حجر.

عـــلوم

الإيمان والتقدم العلمى
خالص جلبى
بيروت: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٠

يتيح كتاب الكون المفتوح لمن يريد أن يتعرف على عظمة الخلق، وفى كل يوم تتكشف أسرار وحقائق جديدة عن الإنسان والطبيعة، تزيد من قناعة الإنسان بقدرة الخالق. المؤلف يبحث فى نشأة الكون والتاريخ الجيولوجى للأرض والكواكب، وأهم الكائنات التى وجدت على كوكبنا، وكيف تطورت لتواكب تطور الحياة والطبيعة ذاتها.

■■■

The Ape and the Sushi Master: Cultural Reflections by a Primatologist
(ملاحظات ثقافية لعالم الحيوان)
Frans de Waal
Basic Books, 2001, 433pp., $26.00

المؤلف، وهو من أشهر أساتذة سلوك الحيوانات الرئيسية وهى تلك الفصيلة من الثدييات المتطورة التى تشمل الإنسان والقرد، ينفى الفرض القائل بأن الإنسان يتميز عن الحيوان بالثقافة أو السلوك المتعلم من الآخرين.

فمن خلال ملاحظاته ودراساته التى امتدت لأكثر من ثلاثين عامًا، يؤكد العالم أن القردة تقوم أيضًا بتدريب صغارها على أنماط مختلفة من المهارات الاجتماعية.

■■■

Mauve: How One man Invented a Color that Changed the World
(البنفسجى الزاهى: كيف اخترع رجل واحد اللون الذى غير العالم)
Simon Garfield
W.W. Norton, 2001, 222pp., $23.95

فى عام ١٨٥٦ اخترع شاب إنجليزى أول صبغة صناعية فى التاريخ، قبل هذا كانت مجموعة الألوان القليلة المستخدمة فى الصباغة منتجة من عناصر طبيعية مثل الخضروات والنباتات والحشرات والأسماك القشرية.

وحين قام وليام هنرى بركين باختراع صبغة اللون «الموف» أو ذلك المزيج من الأرجوانى والبنفسجى بعملية كيميائية، كان ذلك بمثابة فتح علمى وصناعى جديد. وفى القرن العشرين وبسبب فكرة بركين الجديدة أصبح يوجد أكثر من ٢٠٠٠ لون صناعى. أما الآن وبسبب الثورة الرقمية، فأصبح من الممكن استخراج أكثر من ١٦ مليون درجة لونية مختلفة.

فكـــر

المعرفة والسلطة فى المغرب
ديل إف. إيكلمان
ترجمة: محمد أعفيف
المغرب: مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، ٢٠٠٠

العلاقة بين المثقفين أو من نالوا قسطًا معقولاً من التعليم والسلطة إشكالية دائمًا، والمؤلف هنا يعرض لهذه العلاقة من خلال قصة حياة قاض، يشير من خلالها إلى مرحلة مهمة ازدهر فيها التعليم فى المغرب بفضل تشجيع الخلفاء والأمراء، وتوفيرهم كافة التسهيلات الممكنة لطلاب العلم، وإيفادهم فى بعثات إلى الخارج، وحين هبط الاستعمار الفرنسى أدرك المكانة المهمة التى يحتلها الفقهاء والعلماء، وسعى الفرنسيون إلى استغلال هذه المكانة فى التأثير على العامة وإقناعهم بمزايا المستعمر، وقد استجاب بعض الفقهاء لهذا الإغراء فيما رفضه آخرون.

■■■

المختلف والمؤتلف
جميل قاسم
بيروت: منشورات الآن، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى بلورة فكر عربى جديد ومعاصر، عمادة ديمقراطية حقيقية، وهى - أى الديمقراطية - ربما كانت الفريضة الغائبة عن عالمنا العربى كله، والرؤى النقدية التى يتبناها المؤلف ويسعى إلى أن تسود بين مفكرينا، هى القادرة على تبديل الواقع العربى إلى الأفضل.

■■■

المصطلحات السياسية فى الإسلام
حسن الترابى
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠١

يقدم الترابى شروحًا لمفاهيم ومصطلحات شاع استخدامها فى السياسة والحياة العامة، أو أنه يصوغ مقابلاً إسلاميًا لهذه المصطلحات، التى وردت أساسًا من الغرب الحديث، وهى اجتهادات ربما أصابت وربما أخطأت، وهى تصب بالتأكيد فى مجرى يضيف إليه زعماء الحركات الإسلامية المعاصرون، الذين يسعون إلى «أسلمة» أو إيجاد مرادفات إسلامية لمفاهيم تطورت أساسًا مع التطور الغربى.

■■■

طه حسين
حسن جغام
تونس: دار المعارف، ٢٠٠٠

لم يكن طه حسين مثقفًا عاديًا ولا أديبًا أو ناقدًا فحسب، كان انعطافة فى تاريخ الفكر العربى كله، والقضايا التى طرحها والقذائف التى أطلقها فى سماء الفكر العربى والإنسانى من نقد الشعر الجاهلى إلى مستقبل الثقافة فى مصر وغيرها، والمواقف التى اتخذها حين تولى مناصب أكاديمية أو تنفيذية تشهد له بهذه الريادة، المؤلف يقدم رؤية لهذا المفكر الفذ الذى حُرم البَصر واضاء ببصيرته الطريق أمام كثيرين، ويركز على مواقفه من تاريخ الأدب الجاهلى وإحيائه لتراث أبى العلاء.

■■■

طواحين الكلام
محيى الدين اللاذقانى
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

ينحاز المؤلف - وهو صحافى باحث وشاعر - للمرأة، ويقدم تحليلاً اجتماعيًا ونفسيًا لعلاقتها بالمجتمع ونظرته إليها، وكذلك علاقتها بالرجل. ويقدم بعضًا من آراء الأولين فى هذا الموضوع، ويقوم فى دراسات أخرى بكتابة رؤية ساخرة للأوضاع العربية.

■■■

Moral Freedom: The Impossible Idea that Defines the Way We Live Now
(الحرية الأخلاقية: الفكرة المستحيلة التى تحدد الطريقة التى نعيش بها الآن)
Alan Wolfe
W.W Norton & Comp, 2001, 256pp., $24.95

يبحث عالم الاجتماع الأمريكى عن الخصال التى تميز الشخصية الأمريكية فى الوقت الراهن، مختبرًا صحة الأفكار السائدة عن الحرب الثقافية الدائرة فى المجتمع الأمريكى. وقد اعتمد فى دراسته على نتائج استطلاعات الرأى التى أجرتها مجلة النيويورك تايمز فى عام ٢٠٠٠ والتى تناولت آراء الناس فى الأخلاق والرضا الذاتى. بالإضافة إلى مقابلات معمقة أجراها مع عينة من سكان ثمانى مناطق تمثل الجماعات أو القطاعات المختلفة فى المجتمع الأمريكى.

■■■

Dogs and Demons: Tales From the Dark Dide of Japan
(كلاب وشياطين: قصص عن الجانب المظلم من اليابان)
Alex Derr
Hill & Wang, 2001, 432pp., $27.00

يرى المؤلف أن المشكلة فى الثقافة اليابانية هى غلبة الشكل على حساب الوظيفة والهدف فى كل جانب من جوانب الحياة اليابانية.

فعلى سبيل المثال يكثر الحفظ بدون تعلم، والتصميم الخارج عن السياق والبناء بدون هدف، والمعلومات بدون معرفة، والتمويل بدون إنتاج للقيمة.

فكـــر ديني

أمهات المؤمنين

على عبد المنعم

القاهرة: دار سفير، ٢٠٠١

أمهات المؤمنين هن المثل الأعلى للمرأة المسلمة، والقدوة الحسنة فى إخلاص العبادة وسمو الأخلاق وعفة اللسان وسعة العلم، المؤلف يعرض لحياة أمهات المؤمنين فى بيت النبوة ومواقفهن المشرفة فى كل شئون الحياة.

■■■

Wide as the Waters: The Story of the English Bible and the Revolution It Inspired

(قصــة الكتــاب المقـدس الإنجليــزى والثورة التى ألهمها)

Benson Bobrick

Simon & Schuster, 2001, 379pp., $26.00

المؤلف يسوق نظرية مفادها أن ظهور طبعات شعبية من الكتاب المقدس أحدث ثورة اجتماعية شعبية فى إنجلترا وأسهم فى ميلاد الديمقراطية.

للأطفـــــال

من أين يأتى الطفل؟

سلسلة بدايات العلوم المبسطة

القاهرة: دار سفير، ٢٠٠١

تقدم هذه السلسلة معلومات بسيطة تشكّل عقل الطفل وتغذّى مداركه وتسهم فى تكوين شخصيته، وفى هذا الكتيب من السلسلة معلومات عن تكون الجنين ونموه وولادته وكيف تتم عملية الولادة وكيفية استقبال عضو جديد فى العائلة، وما الذى يمكن أن تقوم به الأم كى تمهد لإخوته قدومه.

■■■

Waiting for Wings

(انتظارًا للأجنحة)

Lois Ehlert

Harcourt Brace, 2001, 38pp., $17.00

(للأطفال من سن ٤ إلى ٨ سنوات)

كتاب مثالى لتعليم الأطفال دورة حياة الفراشة سواء فى المنزل أو المدرسة أو المكتبة، حيث تقدم المعلومات البيولوجية فى صورة قصة أو حدوتة تصاحبها رسومات وصور ملونة بشكل جذاب.

■■■

Ramona's World (Ramona Series)

(عالم رامونا «سلسلة رامونا»)

Beverly Clearly

Alan Tiegreen (Illustrator)

Harper Collins, 2001, 208pp., $4.95

(للأطفال من سن ٩ إلى ١٢ سنة)

تعد رامونا كويمبى من أحب الشخصيات فى قصص الأطفال الأمريكية، وقد ابتكرتها المؤلفة بفرلى كليرلى منذ الخمسينيات. وهذه القصة تعد الأولى بعد توقف دام خمسة عشر عامًا. ويرجع سبب شعبية قصص رامونا إلى نجاح المؤلفة فى التعبير عن مشاعر الأطفال فى هذه السن، والمواقف المختلفة التى تسبب لهم الحرج أو الخوف أو الغيرة.

مذكرات وسير

Stet: A Memoir

(ستت: مذكرات)

Diana Athill

N.Y: Grove Press, 250pp., $ 24.00

تكتب السيدة الأولى فى عالم النشر البريطانى هذه المذكرات عن عملها فى السنوات الأولى مع «أندريه دويتش» الذى تحتل شخصيته وحكاياته الجانب الأكبر من هذه المذكرات.

فقد بدأت معه فى تأسيس دار النشر الشهيرة «بنجوين» بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة. والآن تبلغ ديانا أتهل من العمر ٨٣ عامًا. وإلى جانب أندريه دويتش شريكها، وعشيقها، ورئيسها فى العمل فى ما بعد، تتحدث ديانا فى مذكراتها عن مؤلفين آخرين كانت هى أول من غامر وقام بنشر أعمالهم ومنهم فى. إس نايبول، وبريان مور، ومورفاى رتشلر.

■■■

Franco: A Concise Biography

(فرانكو: سيرة حياة مختصرة)

Gobrielle Ashford Hodges

Weidinfeld and Nicolson, 2001, 290pp., £20.00

كثيرًا ما يندهش المؤرخون من حسن الحظ الذى حالف الجنرال فرانشسكو فرانكو فى حياته العسكرية والسياسية.

فقد كان من القلة الذين نجو من ميادين القتال فى المغرب، كما قتل كثير من منافسيه الحربيين أثناء الحرب الأهلية الإسبانية فى حوادث طائرات، بينما خرج هو سالمًا. كذلك انتهت الحياة السياسية لقادة سياسيين فى إسبانيا الجديدة بحوادث اغتيال مثل خوزيه سوتيلو وخوزيه دى ريفيرا بخلاف قدرته هو على البقاء. هذا الكتاب لا يهتم بالمصادفة فى حياة الجنرال فرانكو بقدر ما يتناول التكوين السيكولوجى لشخصيته، محللاً طفولته ونشأته فى منزل غير سعيد، ومعاناته عقدة أوديب وقلقه العصبى وإحساسه بالدونية.

نقـــد أدبي

أبو حيان التوحيدى وشهرزاد

أنور لوقا

تونس: دار الجنوب، ٢٠٠١

يؤكد المؤلف أن ثمة حداثات عديدة لا حداثة واحدة، وجمعه بين أبى حيان التوحيدى صاحب الإمتاع والمؤانسة «والمقابسات» وغيرها من عيون النثر العربى، وشهر زاد أشهر شخصيات ألف ليلة وليلة، يؤكد ذلك المفهوم.

■■■

الجوائز الأدبية.. الحدود والأقنعة

حسين بافقيه

أبها: نادى أبها الأدبى، ٢٠٠٠

لم تعد الجوائز الأدبية نزيهة أو معيارًا صالحًا للجودة والاستحقاق، المؤلف يثير أسئلة عديدة حول مقدرة الجوائز العربية على تجذير الإبداع الأدبى والثقافى ويتساءل: هل استطاعت أن تخلق قاعدة جماهيرية عريضة من القراء؟ الإجابة بالنفى، ومن ثم يقدم المؤلف أفكارًا لإعادة الاعتبار إلى الجوائز.

■■■

الشعر والوجود.. دراسات فلسفية فى شعر أدونيس

عادل ضاهر

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

ثمة مداخل عديدة لعالم أدونيس الشعرى، المؤلف اختار المدخل الفلسفى واخترق أفكار الشاعر فى أسئلته الوجودية المحيرة، كيف استطاع أدونيس أن يحيل هذه الأسئلة المعقدة إلى أبيات شعرية تصنع أفقًا خاصًا.

■■■

القصيدة الحديثة فى الخليج العربى

مجموعة من الباحثين

البحرين: إدارة الثقافة والفنون، ٢٠٠٠

يرصد الباحث التحولات التى طرات على القصيدة العربية الحديثة فى منطقة الخليج خلال النصف الثانى من القرن الماضى، ويعرض كذلك للحركة النقدية التى واكبتها وأسهمت فى تطور الشعر وتعديل مساراته.

■■■

تفكيك الرواية

فتحى أبو رفيعة

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى اكتشاف طرق جديدة لتحليل النص عبر القراءة الاستدلالية، دون أن يفكك أواصر النص أو بنيته التركيبية، وهو يتناول هنا ١٦ نصًا من أجيال مختلفة وحساسيات أدبية متباينة.

■■■

سيكولوجيا الإبداع الفنى فى القصة القصيرة

شاكر عبد الحميد

القاهرة: دار غريب، ٢٠٠١

السؤال الذى يتردد باستمرار على مسامع المبدعين هو: كيف تبدأ عملية الإبداع وما هى مؤشراتها وإرهاصاتها وكيف يكتشف المبدع أن حالة الإبداع حلّت، المؤلف هنا يركز على مبدعى القصة القصيرة، ويقدم تحليلات سيكلوجية لقصص أجيال مختلفة منهم عبد الحكيم قاسم، وسعيد الكفراوى، وإدوار الخراط، وجمال الغيطانى، وآخرون، كما يقدم من خلال حواراته معهم تصوراتهم عن انطلاق اللحظة الإبداعية.

■■■

فردنيان دوسوسير

تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات

جوناثان كللر

ترجمة: محمود حمدى عبد الغنى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

يتناول المؤلف الذى يعد أحد تلاميذ دوسوسير، أهم المبادئ التى وضعها دوسوسير فى هذا الميدان، والمحاضرات التى ألقاها فى علم اللغة وعلم العلامات الذى يعد دوسوسير مؤسسه الحقيقى.

■■■

مدخل إلى الشعر الشفاهى

بول رومتور

ترجمة: وليد الخشاب

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١

يقدم المؤلف مفاهيم ودلالات جديدة تتجاوز حدود المتداول والمتعارف عليه، وتُشكل موضوعات حياتية مُلحَّة ومقولات فكرية معقدة، وتتحول قضية الشعر الشفاهى عنده إلى قضية وطنية سياسية، يدعو من خلالها إلى الحفاظ على خصوصيات الشعوب وتعبيراتها الجمالية والثقافية.

■■■

نظرية العماء وعولمة الأدب

سعيد علوش

الرباط: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

يقدم الكتاب طريقة خاصة لهدم النظريات التى تم استلامها من العقود الأخيرة فى حقل النقد الأدبى فى أحيان كثيرة بلا وعى أو حاجة، ويفكك مبادئها ومصادرها التقليدية، معتمدًا على نظرية العماء التى تكشف مواقع التشوش والارتجال فى النقد العربى المعاصر.

■■■

Ethical Issues in Twentieth-Century French Fiction: Killing the Other

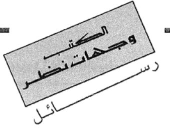
(قضايا أخلاقية فى الرواية الفرنسية فى القرن العشرين: قتل الآخر)

Coliu Davis

Macmillan, 2001, 228pp., $ 42.50

يرى الناقد أنه ليس من المفروض على الرواية أو القصة أن تؤكد المعتقدات الراسخة لكى تكون أخلاقية، بل إن أخلاقية العمل القصصى من وجهة نظره تنبع من تفادى حسم المسائل الأخلاقية. ومن هذا المنطلق يحلل المؤلف العلاقة مع الآخر، وكيف عالجتها الرواية الفرنسية وكيف تعامل معها النقاد مثل سارتر ولاكان وليفيناس.

■■■



وَرَقة الخيمة والسوق

وَرَدَت في مقال سابق للأستاذ محمد حسنين هيكل إشارة إلى ثلاث أوراق تلقاها كيسنجر قبل أن يقوم باول زيارة له إلى المنطقة في شهر نوفمبر ١٩٧٣، وضمنها وَرَقة عن «الشيخ في الخيمة» والتعامل في «السوق» - وقال الأستاذ هيكل أن الوَرَقة الأولى كانت من جوزيف سيسكو، والوَرَقة الثانية: كانت من روجر فيشر، أما الوَرَقة الثالثة فقد ذكر أنه لم يستطع معرفة كاتبها وإن كان يُرَجِّح أنه ريتشارد هاس.

واعتقادي الشخصي أن الذي كَتَبَ هذه الوَرَقة كان «بيتر رودمان»، وهو من الذين صاحَبوا كيسنجر في رحلاته وساعَدوه في كتابة مُذكَّراته بخصوص الشرق الأوسط.. وكان يَحمل الخرائط في الفريق المصاحب لكيسنجر.. وكنت أن شخصيًا أثناء فترة عَمَلي في واشنطن - كلما عَنَّ لي أن أتعَرَّف على أية تفاصيل خاصة برحلات ومباحثات كيسنجر - أتَّصل به.

هذا وقد عَمَل «رودمان» - وهو يهودي - بعد ذلك في مجلس الأمن القومي أثناء إدارة ريجان، وكان مسئولاً عن الشرق الأوسط. أما الآن فهو يعمل في مركز الأبحاث الذي يحمل اسم «نيكسون»، ومازال قريبًا من كيسنجر.

و«رودمان» مُتَزَوِّج من «فيرونيك»، واسمها أيضًا «فايزة»، وهي مولودة في الإسماعيلية، حيث كان أبوها يَعمَل في شركة القناة.. وهي ليست يهودية، وهي في الأغلب كاثوليكية لأن خالتها «مير بولا» (راهبة) كانت تدير مَدرسَة كاثوليكية في جاردن سيتي «Mere Dieu».

أما «هاس» فقد عَمل مساعدًا للرئيس بوش لشئون الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومي، وكان دوره بارزًا أثناء الغزو العراقي للكويت.. ولكنه يَعمَل الآن - أي في إدارة بوش الابن - في الخارجية ويرأس إدارة التخطيط السياسي.

عبد الرءوف الريدي
سفير مصر الأسبق بأمريكا

العرب.. والصديق

.. بعدما تسلمت حكومة الدكتور/ عاطف عبيد إدارة الحكومة في مصر المحروسة أعلنت بصوت عال أنها تنتهج «الشفافية» سلوكًا وتدعو لها في بحثها عن حل لمشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية وأخلاقية باتت معقدة ومزمنة، ولقد باغتتنا الكلمة غير المسبوقة في أبجديات الحكومة وتندرنا عليها قليلاً كعادتنا كمصريين. وفي مجلة الإشعاع الثقافي الوحيدة التي نثق بها «وجهات نظر» دأب الأستاذ هيكل على كتابة مقالاته المتميزة العالية والمختلفة عما يقرأه المواطن المصري في أي صحيفة قاهرية أخرى.. وهي مقالات تعتمد على ذخيرة عالية القيمة والاختيار من الوثائق التاريخية لكي نعرف أولاً ولكي نستطيع إعمال عقولنا ثانيًا.. فليست هناك قاعدة معلومات ذات قدر من المصداقية المعقولة للقارئ المصري مثلما يكتب لنا أستاذنا هيكل.. وظل الأستاذ هيكل يكتب في تصاعد ملحوظ.. ويزداد اكتئابًا بشكل ملحوظ بعد كل مقالة شهرية بوجهة نظر.. لأن الجهل نعمة مع الأسف.. وحينما نعرف نختنق.. حتى أسقط علينا نحن قراء «وجهات نظر» قذيفة ذات عيار ثقيل أكثر من اللازم في مقالة أبريل.. حيث اسودت لها القلوب والعيون بمقارنته بين موقف السادات من الحليف الوحيد والرئيسي لنا قبيل حرب أكتوبر وهو الاتحاد السوفيتي بغرض تأمين احتياجات الحرب لنا مع إسرائيل.. قارنه مع موقف حكومتنا الآن وكذلك الحكومات العربية من الحليف الرئيسي والوحيد والبلطجي الأول والأخير في هذا العالم وهو الولايات المتحدة الأمريكية.. وكانت المقالة الأخيرة للأستاذ هيكل انتفاضة غير عادية مثل انتفاضة أبناء فلسطين فوق أرضهم المحتلة.. عسى أن يقرأ أحد ليتحرك أي أحد. قبل طوفان الضياع الشديد القادم والذي بدأ منذ ربع قرن وسط سحابة ضخمة ضبابية من الأوهام والأحلام الخادعة والمخدرة لجيلين كاملين من أجيال الشباب المصري.

فهل ستكون الحكومة بإعلانها القديم عن «لشفافية» عونًا لهيكل لاستمرار مقالاته.

د. سمير عنتر
استشاري حميات - الطالبية - الهرم



الخرائط التوضيحية

بمناسبة ما نشرته المجلة في عدد أبريل الماضي تحت عنوان «أمراض الحيوان تهدد صحة الإنسان» وبحكم تخصصي سيقتصر تعليقي على شيء محدد، وهو الخرائط المرفقة بالمقال:

أولاً: يبدو أن الخريطتين مأخوذتان من أصل أجنبي «ملون»، ولذلك فقد فقدتا ما لهما من فائدة توضيحية بعد إعادة نشرهما في المجلة بلون واحد. خاصة خريطة أفريقيا. والتي يصعب التمييز بين الرموز المشيرة لأنواع العدوى. وكان من الواجب إما نشرهما بالألوان إذا كان ذلك متيسرًا، أو إعادة رسمهما على يد متخصص بالأبيض والأسود. وذلك لتكتمل الفائدة المرجوة من نشر الخرائط التوضيحية.

ثانيًا: جاء في الخريطتين خطأ مشترك خاص بالحد السياسي بين مصر والسودان بطريقة تجعل من منطقة حلايب سودانية، الأمر الذي يتعارض مع حقيقة أن الحد السياسي الرسمي بين الدولتين هو دائرة عرض ٢٢ شمالاً.

ورغم علمي بأن الأمر كله يندرج في إطار الهيئات التي قد لا نتوقف عندها إذا صادفناها في صحف أخرى، إلا أن الأمر بالضرورة يختلف مع مجلة في مستوى «وجهات نظر»

الدكتور/ محمد عبد الرحمن المنهاوي
معهد البحوث والدراسات الأفريقية - القاهرة



الطريق الطويل للنهضة

تابعت باهتمام ما شرحه الأستاذ رئيس التحرير باقتدار عن أسباب التخلف وكيفية النهضة في مقاله (لماذا يطول بنا الطريق إلى النهضة) المنشور في العدد السادس والعشرين الماضي من مجلتنا الرائعة «الكتب.. وجهات نظر»..

لكني استأذن هنا في إضافة بعض النقاط لما أورده من أسباب للتخلف والركود..

ففي اعتقادي أنه ليس من أسباب تخلفنا فقط انهيار نظام التعليم عندنا وتآكل التفكير العلمي وانحطاط مستوى التربية على مستوى الأسرة والمجتمع.. رغم أهمية وجوهرية كل نقطة وإنما:-

١- لأننا وبصراحة لم نفهم إلى الآن ماهية وإطار مشروع النهضة والتقدم الذي نتمناه ونرجو تنفيذه. ولم نحدد بعد هل نحن في حاجة إلى مشروع نهضوي ديني.. يبعث من جديد الروح الدينية العالية والسليمة في النفوس.. وينقي ويفرز ما دخل على العقيدة الإسلامية من مغالطات وتجاوزات.

٢- أم مشروع نهضوي اقتصادي علمي ينتشل اقتصادنا المتدهور صناعيًا وزراعيًا، كما حدث في بلدان نامية كثيرة أصبحت الآن نمورًا، وأشهرها كوريا الجنوبية التي عايرنا بتقدمها علينا الصحفي الأمريكي توماس فريدمان.

٣- أم هو مشروع نهضوي حياتي وأخلاقي نريده الآن ليعيد لنا ولو قليلاً من القيم والأخلاق المصرية الغائبة مثل قيم الشهامة والاحترام والذوق ويحاول أن يجد وسيلة ما فعالة تقضي على اللغة السوقية، وعفوًا (القذرة) المنتشرة حاليًا بقوة بين قطاعات كبيرة من الحرفيين والطلبة والموظفين.. وغيرهم.

مشروع نهضوي يحاول وبقوة أن يحرر الشخصية المصرية باختلاف فئاتها نساءً ورجالاً من عبوديتها للجنس.

لنتفق بداية على ما نريد تحقيقه.. هل هو مشروع نهضوي اقتصادي أم سياسي أم علمي أم حياتي وأخلاقي ثم بعدئذ لنعاتب أنفسنا على عدم قدرتنا على إنجاب شخصيات قيادية مختلفة تتواجد كأعلام ورموز وراء مشاريع نهضوية متعددة وتقاتل في سبيل تحقيقها.. لابد أن تتزحزح القناعات الزائفة بالحاضر المتخلف من مكانها المستقر داخل نفوسنا وأن نخرج شبابنا من الغيبوبة الراقد فيها الآن. ونحطم معه يدًا بيد تماثيل الروشنة واللاشيء وقتل الوقت في اللعب.. واليأس.

وختامًا.. كل الشكر للمقال الذي أعاد تفجير القضية.

إبراهيم شعبان مصطفى
بكالوريوس التربية
جامعة المنوفية



عروبة موريتانيا

بمناسبة مقال الأستاذ هيكل في عدد مارس الماضي بعنوان: «نهايات طرق» تلقت «وجهات نظر» رسالتين بهما معلومات مهمة عن «عروبة موريتانيا».

***

لقد تحدث أستاذنا الفاضل عن القوافل العربية، وهي متوجهة إلى عمان خصوصًا عندما وصل إلى ما أسماه «الذيل» أو «القوافل الوافدة» من خارج كيان الأمة العربية، والتي انضمت إليها مؤخرًا، بسبب «الطفرة المفاجئة للنفط» إذ يرى كاتبنا الكبير أن أمر هذه القوافل يستحق المراجعة والنظر.

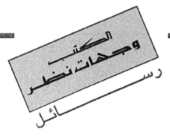
وقد عنى بهذه القوافل في الشق الأول «جيبوتي» و«جزر القمر» وفي الشق الثاني «الصومال» و«موريتانيا» باعتبار أن دخولها لجامعة الدول العربية مخالف للشروط المؤسسة للنظام الداخلي للجامعة.

وهذه الشروط كما وردت عن كاتبنا هي:

- أن تكون اللغة العربية هي لغة ذلك البلد.
- وأن يكون البلد الراغب في الانضمام إلى الجامعة قد تمكن من تحقيق قدر من الاستقلال الوطني يكفل نوعًا من الإرادة المستقلة.

ثم أن يكون البلد العربي الراغب في الانضمام على اتصال جغرافي بالعالم العربي، وانطلاقًا من هذه الشروط الثلاثة وباعتبارها أساسية في الانضمام إلى الجامعة العربية، فإني أطمع في أن يسمح لي كاتبنا الكبير في أن أناقشه في مدى توافر هذه الشروط في موريتانيا مما أهلها للانضمام لجامعة الدول العربية حسب المعطيات الموجودة وليسمح لي أيضًا أن أخالفه الرأي في أن أسباب انضمامها ليست سياسية أو اقتصادية «الطفرة المفاجئة للنفط» وسأبرهن على ذلك حتى لا يكون كلامي مصادرة على المجهول.

وأبدأ بالنقطة الأولى وهي مسألة اللغة العربية باعتبارها الوعاء الثقافي للأمة، وهنا أقول لأستاذنا الجليل إن



الشعب الموريتاني شعب عربي، يتكلم اللغة العربية، إذ ترجع أصوله إلى قبائل بني معقل القادمة من شبه الجزيرة العربية والدراسات التاريخية تثبت ذلك.

وللتذكير فإنه توجد بعض الأمثلة الدامغة التي وقعت كلها على أرض مصر، وشهد بها كبار الكتاب المصريين، حيث أظهر أبناء موريتانيا عبقريتهم وتمكنهم من ناصية اللغة العربية، ويعتبر محمد محمود ولد تلاميد مثالاً ناصعًا في هذا المجال، وقد شهد بتفوقه عميد الأدب العربي طه حسين في كتابه الأيام إذ ذكر مدى قدرة ونبوغ الشيخ الشنقيطي في علم اللغة العربية حيث يقول: (كان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريبًا للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سندًا ومتنًا عن ظهر قلب. وكانوا يتحدثون بحدته وشدته وسرعته إلى الغضب وانطلاق لسانه بما لا يطاق من القول. وكانوا يضربونه مثلاً لحدة المغاربة. وكانوا يذكرون إقامته في المدينة ورحلته إلى قسطنطينية، وزيارته للأندلس، وربما تناشدوا شعره في بعض ذلك، وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع في مصر وفي أوروبا، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئًا أو ناسخًا). كما كان ينازعه الريادة والسبق أحمد ولد الأمين الشنقيطي وهو من أبناء موريتانيا أيضًا. فقد أثبت الرجلان تفوقهما في علوم اللغة العربية بين علماء الأزهر، هذا ولم يقتصر عطاء الموريتانيين اللغوي والديني على مصر وحدها، بل إن عطاءهم تجاوز ذلك إلى الحجاز والعراق.

كما كان لهم دور بارز ومتميز في نشر اللغة العربية والإسلام، في ربوع أفريقيا، مما شكل جسرًا للتواصل والتلاقح الثقافي ما بين العرب والقارة السمراء.

أما الشرط الثاني وهو الاستقلال فقد لا يتطلب منا الكثير من الشرح والتفصيل إذ أن موريتانيا نالت استقلالها التام ٢٨/١١/١٩٦٠ ومن ذلك التاريخ وهي تدار من قبل أبنائها وليست هذه الفترة متأخرة، فهي نفس الفترة التي نالت فيها أخواتها الاستقلال (المغرب، الجزائر، تونس) وانضمت للأمم المتحدة ١٩٦١، وكان لها دور بارز وإرادة سياسية وشعبية مستقلة، ليس لأية دولة عليها وصاية، حتى فرنسا التي كانت مستعمرة لها، تعاملها بالندية والاحترام التام لسيادتها.

وعن الشرط الثالث أقول إن موريتانيا تقع في غرب الوطن العربي، إذ تحدها من الشمال الجزائر، وهي بلد عربي حسب شهادة أستاذنا الكبير، ومن الشمال الغربي المغرب والصحراء الغربية وهما بلدان عربيان كذلك.

هذه الحدود حسب اعتقادي توفر لموريتانيا صلة جغرافية قد تشفع لها عند أستاذنا الكبير، إذ إنه توجد بعض الدول في الجامعة العربية، أكثر منها صلة موريتانيا الجغرافية بالوطن العربي، دون أن يثير ذلك اهتمام أستاذنا الكبير وبهذا الموقع تمثل موريتانيا بعدًا استراتيجيًا للوطن العربي، وذلك لاطلالتها على غرب أوروبا، وعلى شمال أفريقيا وإن كانت هذه الميزة لم تستدع من أستاذنا الجليل لحظة تأمل على الرغم من أنه محلل سياسي واستراتيجي معروف!

وأخيرًا.. وليس آخرًا فإنني أؤكد لكم أن موريتانيا لا ترضى لنفسها أن تكون عبئًا على أحد، ولن تكون كذلك، ما أظلتنا الخضراء، ولن تكون عائقًا لمسيرة العرب، وعروبتها ثابتة شكلاً ومضمونًا، قلبًا وقالبًا. إذ لا فائدة للقلب إذا قصت الأطراف.

محمد الأمين ولد أحمد عبد الله
طالب موريتاني - بالقاهرة

* * *

ما دمنا بصدد الحديث عن عروبة موريتانيا فإن من الضروري مراجعة التاريخ الوسيط والحديث للمنطقة العربية والاطلاع على ما كتبه ابن خلدون والبكري والإدريسي والناصر السلاوي، وغيرهم من كتاب القرون الوسطى عن بلاد موريتانيا والهجرات العربية التي وصلتها، وما كتبه الفرنسيون في كتبهم العلمية وتقاريرهم الاستعمارية عن الثقافة العربية في موريتانيا ودورها في تقزيم النفوذ الاستعماري الفرنسي في منطقتي الصحراء وغرب أفريقيا من خلال هزيمتها للغة الفرنسية التي قال عنها ديجول: إنها حققت للفرنسيين ما عجزوا هم أنفسهم عن تحقيقه، ولعل أكثر الحق دلالة ما شهدت به الأعداء كما يقال.

ولعل الذاكرة تسعفنا بما وصل إليه العلماء الشناقطة (الموريتانيين) من تألق في الأزهر الشريف، ذكره محمد عبده وطه حسين في مؤلفاتهم، وجسده العلماء الشناقطة في تصحيح وتدقيق الكثير من أمهات الكتب العربية، لعل أهمها وأكثرها ارتباطًا بموضوعنا القاموس المحيط الذي لا يزال مرجعية العرب اللغوية إلى حد الساعة، ولعل المفكر الكبير يتذكر أن انضمام موريتانيا إلى الجامعة العربية لم يحتج إلى فترة تأهيل، كما حدث مع بعض الدول العربية التي تلقت الدعم الفني والمادي من الجامعة العربية لتدعيم اللغة العربية فيها حتى تكون مؤهلة للانضمام إلى الجامعة، وأن تأخر انضمام موريتانيا إلى الجامعة جاء في سياق الاعتراضات التي قدمتها المملكة المغربية إلى المنظمات الدولية والإقليمية على استقلال موريتانيا على اعتبار أنها جزء من أراضي المملكة.

أما ما يتعلق بأن موريتانيا لا تتمتع بقدر كاف من الاستقلال يخولها الانضمام إلى الجامعة العربية، فنود أن نشير إلى أن انضمام موريتانيا إلى الجامعة جاء بعد ثلاثة عشر عامًا من الاستقلال التام مليئة بالأحداث المؤكدة على استقلالية القرار السياسي، منها طرد سفيري الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وغلق سفارتيهما في نواكشوط سنة ١٩٦٧ ردًا على دورهما في حرب يونيو ١٩٦٧، ووساطة موريتانيا بين مصر والصين الشعبية بطلب من الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، ودور موريتانيا المشرف في محاصرة إسرائيل في أفريقيا، وقرارات التأميم المؤسسي للشركات الأجنبية في البلاد، وإصدار عملة وطنية.

د. محمد الأمين ولد سيدى أحمد
موريتانيا

«وجهات نظر» والبحث العلمي

كنت قد أرسلت رسالة سابقة منذ حوالي شهر تقريبًا أطلب فيها من المجلة السماح لي بنقل مقال د. محمود عبد الفضيل المعنون بـ «نحو تفسير بسيط لأزمة السيولة والركود في الاقتصاد المصري» واستخدامه كمرجع في أبحاثي ودراساتي حيث إنني طالب بكلية الحقوق، ومن خلال قسم الاقتصاد والتشريعات الاقتصادية نتناول كل ما يهم اقتصاد البلاد وما يمر به وماله وما عليه ونحاول استخدامه كسند أو مرجع لدراساتنا الاقتصادية.

وللمرة الثانية أطلب من المجلة السماح لي باستخدامه مع حفظ حق د.محمود عبد الفضيل ككاتب للدراسة والمقال كاملاً من الناحية الأدبية والقانونية.. فأرجو موافاتي بالرد ولعل المانع من الرد على رسالتي الأولى يكون خيرًا.

محمد أحمد عبده علیبة
شباس الشهداء - دسوق
كفر الشيخ

* جرى العرف على أن اقتباس فقرات لا «النقل» من المقالات المنشورة، وذلك لأغراض البحث العلمي لا يحتاج إلى تصريح خاص بذلك، على أن يراعى ذكر المصدر تبعًا لمقتضيات البحث الأكاديمي.

المحرر

من السجن

في بداية رسالتي أحب أن أُعبر عن مدى حبي وتقديري لهذه الموسوعة الثقافية والسياسية والفكرية التي تقدمها مجلتكم لكل من يهمه أن يعرف الحقائق والعلوم والأفكار. وإنني لسوء حظي حُرمت من نهرها الفياض بسبب دخولي السجن في قضية قتل ولم أعد أستطيع الحصول عليها، لذلك فكرت في أن أكتب إلى سيادتكم هذه الرسالة، فهل تقبلون سيادتكم أن تساعدوني لكي أتابع الأعداد الصادرة من مجلتي المفضلة وأنا أعرف أنكم لا تنظرون إلى الكسب المادي من وراء نشر هذه المجلة بقدر الكسب الفكري والتنويري، وأنا متعطش إلى طلب المعرفة فهل أجد عندكم طلبي؟

السجين / محمد عبده محمد الابشيهي
الحكم / مؤبد
التهمة / القتل
الطالب بالفرقة الرابعة بكلية الحقوق
جامعة المنصورة



«لغويات» نبيل علي و«سعادة» مستجير

في منتصف عقدنا الثامن لا يوجد لدينا الكثير من أسباب السعادة التي يطلبها لنا أحمد مستجير في مقاله بمجلة «وجهات نظر» في شهر أبريل الماضي، فبين استيلاء اليمين المتوحش على الحكم في أمريكا، وانتشار آداب وفنون ما بعد الحداثة، والعولمة واتفاقيات الجات، وتهديد الفكر العقلاني بتشويه نظريات اللاحتمية والنسبوية والشواش، بين هذا كله أصبح أمثالي ممن اجتازوا الكهولة والشيخوخة محرومين من أي سبب للسعادة.

ولكن طاقة من الأمل والنور قد انفتحت بمقال الدكتور نبيل علي عن اللغة والوراثة في نفس العدد من المجلة، ها هو صوت عقلاني واضح يتحدث، فبعد عرض جميل واضح وسليم لإضافات تشومسكي في علوم اللغويات يعرض لنا نبيل علي أهم الإضافات في لغة الوراثة، ثم يربط برباط وثيق بين لغتين.

ويتميز الدكتور نبيل علي بوضوح الفكر وعمقه وجمال وشاعرية لغته فهو بحق، كما وصفته يومًا، تشومسكي مصر، بل إنه يتميز عن تشومسكي بعمق معلوماته عن لغة الوراثة والهندسة الوراثية. ورغم سبق عرض الفكرة فإنني أظن أنها لم تعرض من قبل في أي مكان في العالم بهذا العمق وهذا التفصيل.

فإذا أضفنا إلى هذا أنني وأسرتي نأكل الآن أرزًا حصده الدكتور أحمد مستجير من نبات غاب استحدثه وراثيًا يروى بماء البحر المالح، اتضح سر تضاعف سعادتي وإقبالي على الحياة - أو على ما بقي منها.

هنيئًا لمصر أمثال نبيل علي وأحمد مستجير ممن بقوا فيها وأخلصوا لها وأحبوها حبًا جمًا وممن يستحقون بجدارة كل التكريم والجوائز والشهادات.

وهنيئًا لوجهات نظر مثل هذه الصفحات الجديدة عن العلم التي نرجو أن تستمر.

سمير حنا صادق
لجنة الثقافة العلمية
بالمجلس الأعلى للآثار




جدلية الصحراء والمدينة

كل إنسان يشعر فى لحظة ما من حياته بأن الروابط التى تصله بالحياة قد زادت وطأتها عن قدرته واحتماله. يشتد إيقاع الحياة بوتيرة متسارعة تصل بها إلى حد الاختناق والشعور بالحصار. وتصبح الحاجة إلى التقاط الأنفاس خارج دائرة الحياة اليومية، بعيدًا عن الروابط الروتينية والمألوف من الممارسات، أقوى من الاستمرار بحكم العادة، أو ما يعرف فى الطبيعة بقانون القصور الذاتى.

ولم يعد إنسان العصر الحديث يجد أمامه متنفسًا للخروج من المدينة الكبيرة، بشوارعها المزدحمة، وبيوتها المعلبة، وسياراتها المرصوصة بالحركة أو بالسكون، وضجيجها الذى يصم الأسماع، وروائحها التى تزكم الأنوف.. إلا بالانفلات من قيود العادة. بعض الناس يملأ قلبه عن ذات حياة تشوهت معالمها، بالعزاء النافع والصبر الجميل. والبعض الآخر يملأ قلبه بالخروج إلى البحر، أو إلى الريف، أو الصحراء كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

والناس قد هجروا الريف وقلما يعودون إليه. يذهبون إلى البحر حيث تدعوهم حرارة الصيف وقسوة الهجير. أما الصحراء فنادراً ما يفكر إنسان المدينة فى خوض مجاهلها واستطلاع معالمها. تظل الصحراء بالنسبة للكثيرين لغزًا غامضًا محفوفًا بالمخاطر. فالصحراء نقيض الحياة الرخية الناعمة، وهى مرادف العزلة والوحدة والتيه فى خضم المجهول، رمز الترحال الدائم وعدم الاستقرار.

لم أشعر بجلال الصحراء وجمالها وعظمتها إلا حين قطعت الطريق إلى الواحات فى قلب الصحراء الغربية. فجأة يشعر الإنسان بأنه انفصل عن ذاته.. عما كان منغمسًا فيه. وأصبح وحيدًا، غريبًا، منفرداً بالكون، يبحث عن شىء آخر، تتحول الحياة إلى نوبات من الانفصال والاتصال. ويصبح الشعور بالوحدة فى هذا الفضاء الممتد بغير نهاية، طاغيًا آسرًا، يعبر عن الرغبة فى الخروج عن الذات، والذوبان فى الوجود، وحين يشتد الإحساس بالوحدة، تزداد الرغبة فى الخروج منها، بحثًا عن الاكتمال ولم الشمل والتجاوب مع الحياة. وهكذا تكتمل الدائرة حين يعيد الإنسان أواصره التى تربطه بالحياة، وقد ارتد إليها متطهرًا من الشوائب والسفاسف، تتصاغر الأشياء الكبيرة فى عينيه، وتتحرر روحه من سيطرة الوجود المادى المحسوس حوله. ولكنه يكون أكثر استعدادًا للفهم والتجاوز والتغلب على نفى الذات، فى جدلية واعدة بالسكينة والسعادة.

للصحراء منطقها ولها لغتها.. وعندما كنت أطالع ما كتبه بعض الباحثين والمفكرين عن تأثير الصحراء على العقلية العربية، فسوف تجد اختلافًا شديدًا يصل إلى حد التناقض. ولكنه يثير ما يثيره اليوم حديث بعض المفكرين عن صراع الحضارات، وكيف أن الشعوب العربية والإسلامية بحكم حضارتها وثقافتها لا تستسيغ الديمقراطية ولا تستوعبها، ولا تملك الاستعداد للتفكير العلمى التحليلى الذى يهيئ لها السبيل إلى التقدم والاندماج فى الثقافات الأخرى.



مثال ذلك ما يراه ابن خلدون من «أن العرب لطبيعة التوحش الذى هم فيه أهل انتهاب وعبث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر، والقبائل المتنعة عليهم. بأوعار الجبال. بمنجاة من عبثهم وفسادهم.. وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، لأنهم أمة وحشية.. وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد.. وهم متنافسون فى الرياسة. وقل أن يسلم واحد منهم الأمر لغيره، ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا فى الأقل. فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدى على الرعية فى الجباية والأحكام، فيفسد العمران وينتقض، وانظر إلى ما ملكوه من الأوطان كيف تقوض عمرانه، وأقفر ساكنه.. وهم أصعب الأمم انقيادًا بعضهم لبعض.. إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة».

ويمضى ابن خلدون فيؤكد أن العرب أبعد الناس عن العلوم «لأن العلوم ذات ملكات محتاجة إلى التعليم.. لذلك كان حملة العلم فى الإسلام أكثرهم العجم أو المستجمون باللغة.. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم».

وسبق الجاحظ ابن خلدون فى وصفه لطبيعة العقلية العربية فيقول: «إن الهند لهم معان مدونة، وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف، وإنما هى كتب متوارثة، ولليونان فلسفة ومنطق.. وفى الفرس خطباء.. وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام. وليست هناك معاناة ولا مكابدة. ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام فتأتيه المعانى إرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً..»

مثل هذه الأوصاف التى نسبها بعض الكتاب العرب من القدامى إلى طبيعة العقلية العربية وتكوينها، عللوها فى رأيهم بما طبعته الصحراء على حياتهم وأسهمت به فى تشكيل وجدانهم وطريقة التفكير وأساليب التعبير عندهم ولم تلبث أن تحولت على أيدى المستشرقين والعديد من المفكرين الغربيين إلى سمات ثابتة متجذرة فى العقل العربى، لا يستطيع منها فكاكًا، ولا تتغير بتغير الأطوار التى انتقل فيها من البداوة إلى الحضارة، ومن البساطة إلى النضج، ومن حياة الصحراء إلى حياة القصور، ومن مضارب الخيام إلى المدن ذات الأبنية الشامخة والقلاع المحصنة والمساجد الباذخة والعمائر السامقة.

وقد ذهب كثيرون منهم بعد ذلك إلى إطلاق أحكام شاملة، نزعت عن العقل العربى قدرته على التحليل والتركيب والاستنتاج، وكشفت عجزه عن النظر الفلسفى، وإغراقه فى الولع اللفظى الذى يغنى عن الفعل، وضعف الخيال الذى يحبس نفسه فى شعر الفخر والحماسة والغزل والوصف الذى يخلو من الابتكار.. وما إلى ذلك من أقوال جردت الإنسان العربى من كل قدرة على كتابة الرواية والقصة والإبداع فى فنون التمثيل والمسرح.. كل ذلك لأن العربى فى العصر الحديث ليس إلا نتاجًا وتسلسلاً طبيعيًا للعربى فى العصر القديم.

وقدساير عدد كبير من المفكرين العرب هذه الادعاءات. واستخلصوا منها نتائج ومقولات، بحثًا عن الأسباب التى أدت إلى الأزمة العربية المعاصرة، التى نزلت بالأمة العربية فحالت بينها وبين اللحاق بالعصر. وقد ذهب مفكر كبير مثل زكى نجيب محمود فى كتابه عن «تجديد الفكر العربى» إلى أن العلة التى نشكو منها تكمن فى أن «روح» تراثنا الثقافى هو إيثار السكنى فى عالم اللفظ على معالجة الأشياء. وأن الفتنة باللغة فى ذاتها تكاد تصرفنا عن دنيا الكائنات والحادثات، وهو يدعو من ثم إلى الخروج من دنيا اللغة إلى دنيا الأشياء، وأن ننضم إلى قافلة التفكير العلمى الذى يعالج قوانين الطبيعة ومناهج العلم الحديث.



تخايل هذه التساؤلات عقل المسافر عبر الصحراء، والسكون المخيم على الكون المحيط يملأ النفس روعة ورهبة.. فلا يملك المرء إلا أن يسأل نفسه: هل ما خلفه العرب من تراث فى الشعر والقصيد، وما أفضت إليه الحضارة العربية بعد ذلك من فنون القول والرسم والزخرفة وإرهاصات التنوير الذى قاده ابن رشد وغيره من الفلاسفة، وما أنجزه الفنان العربى من خطوط هندسية محكمة، أبدعت كثيرًا من مظاهر التراث العربى فى فن المعمار، وما ألهمته الصحراء للمتصوف العربى من تجليات، وما أضافه الفقهاء من أحكام عقلية فى الشريعة والقانون وكل ما أبدعه فى الأدب والفن والفكر والعقيدة.. ألا يستحق أن يكون جزءًا من التراث الحضارى للعالم نعتز به، كما يعتز العالم بالإلياذة وبالملاحم والمأثورات الشعبية التى تعتبر من المرجعيات التى تؤكد هوية الفرد والجماعة؟؟

مجتمعات الترحال والبكاء على الأطلال قد تكون سمة من سمات الحياة التى تفرضها ظروف الصحراء. ولكن التراث العربى لم يكن كله بكاء على الأطلال وقلما تجد صحراء جرداء لا تتخللها الواحات العامرة بالأشجار والنخيل والأرض الخضراء، التى تمثل فى حياة الإنسان دعوة إلى الاستقرار والبناء والتعمير وبناء الحضارات. تتبدى لك هذه الحقيقة حين تبصر بعينيك ما خلفه السابقون من آثار ومقابر ومعابد فى الواحات التى تتناثر كاللآلئ فى التيه الممتد للصحراء الغربية.. دليل لا يقبل الشك على أن تنوع التراث المشترك للإنسانية لا ينبغى أن يقتصر على نصب قائمة أو مندثرة، ولكنه يجب أن يشتمل على ما خلفته قريحة الإنسان من مأثورات شعرية أو ملحمية تناقلتها الذاكرة الإنسانية عبر العصور، فلا نستهين بفنون الشعر التى أبدعها العرب وربما لم يبدعوا غيرها ولكنها صمدت على مر العصور. ومع ذلك فلم تعد الصحراء. فى عصرنا الحديث. قفرًا يبابًا، بل عمرتها يد الإنسان وزرعتها وأخرجت من باطنها من الثروات والكنوز ما يقيم دولاً وممالك، ويفجر حروبًا طاحنة من أجل شقفة من رمال الصحراء هنا وهناك.. وهذه هى الجدلية الدائمة بين الإنسان والطبيعة على مر العصور!

سلامة أحمد سلامة